

هكذا خلقت

الدكتور محمد حسين هيكل

دار المعارف



هكذا خلقت!

قصة طويلة

محمد بن هيكل

الدكتور محمد حسين هيكل

هكذا خلقت!

قصة طويلة

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كوديش النيل - القاهرة ج. ٢٠٠٤ ع.

تقديم

كانت أسرى في المصيف ، وكنت أتردد بين المصيف والقاهرة لبعض شتوئى . وقد اعتدت في ذلك العهد أن أنزل فندق « مينا هاوس » ، أستمتع من نوافذه بمنظر الهرم والصحراء ، ذلك المنظر البديع في كل حين ، وهو الروعة والسحر في الليالي القمرية ! . . . ويزيده سحراً ما يسرى إلى نفسك معه من نسيم عذب يتسبك قيظ النهار ، ويتبعث خيالك إلى تصور القرون الخالية ، حين كان أجدادنا يشيدون هذه الأهرام الضخمة ، لتكون مقراً للفرعون الذى أمر بشييدها ، سكناً له في حياته الآخرة ! . . .

وكنت أستيقظ بكرة الصبح فأنزل إلى حديقة الفندق أجوس خلالها ، ثم أتناول طعام فطورى تحت شجرة من أشجارها الباسقة ، وكثيراً ما كنت أقضى في هذه الحديقة سويكات الغروب ، ولم يكن نادراً أن ألقى بعض الأصدقاء الذين يجيئون إليها من العاصمة يتغنون في رقة نسيمها وبعدها عن ضجة المدينة ما يعوضهم عن جهد نهارهم وقيظه ! . . .

وإني يوماً لجالس قبل الغروب ، أتوقع أن أرى بعض هؤلاء الأصدقاء ، إذ رأيت فتاة شابة تقبل على متأبطة حافظه أوراقها ، ثم تقف عندى وتسلم على باسمى . ولم يدهشنى أن عرفتنى ، وأنا لا أعرفها ؛ فكثيراً ما يقع ذلك لى ولأمثالى ، وكثيراً ما يقدم إلى بعض الشبان والشابات كراسات صغيرة ،

ويطلبون أن أوقع باسمي على صفحة من صفحاتها ، أو أن أكتب فيها عبارة ما .

ولقد خيل إليّ أن هذه الفتاة تقبل على مثل هذا الأمر ، وأنها ستخرج من حافظة أوراقها كراسها ، وتطلب إلي أن أوقع باسمي عليها ، أو أكتب ذا عبارة تعتر بها بين صديقاتها ، لكنها لم تفعل من ذلك شيئاً ؛ بل رأيتها ما لبثت حين وقعت أمامي أن استأذنت في الجلوس . فلما هممت بعد جلوسها أن أدعو الخادم ؛ لبقدم لها ما تطلب اعتذرت وشكرت وقالت إنها لا تريد شيئاً ، ولكنها قدمت في مهمة كلفت بها ، وكل الذي ترجو فيهِ ألا أسألها عن شخصيتها ولا عن كلفها هذه المهمة .

وبعد هنية فتحت حافظة أوراقها ، وأخرجت منها ملفاً أنيقاً وقالت : هذه يا سيدي قصة كتبها صاحبها ، ورغبت إليّ في أن أضعها بين يديك . وقد تركت لك الحرية المطلقة في شأنها . لك أن تقرأها أو تهملها ، فإذا تفضلت وأضعت وقتك في قراءتها ، فلك أن تليّ بها في النار ، أو تحتفظ بها بين المهملات من أوراقك ، ولك إن شئت أن تنشرها على الناس . فإذا كان لها من الحظ أن راقتك فنشرتها ، فستكون هي إحدى قارئاتها ، ولن تعرف أنت ولن يعرف غيرك عن صاحبها شيئاً ! . . هذه يا سيدي رسالتي ، وهذه هي القصة في ملفها ، أدعها بين يديك ، وأستأذنك في الانصراف ! . .

تولتني الدهشة لهذه المفاجأة ، فحدقت بالفتاة الشابة وقلت : قد أفهم أن تحرص صاحبة القصة على ألا أعرف أنا ، أو يعرف غيري من هي ، وأن يدقمها هذا الحرص على أن تجعل منك رسولا يحمل إليّ قصتها . لكنني

لا أفهم سبباً يدعوك أنت لإخفاء اسمك وكل ما يتعلق بشخصك ، إلا أن تكوني أنت صاحبة القصة ! . .

قالت : كلا يا سيدى ، لست أنا صاحبة القصة ولا كاتبها ، وسرى حين تلوها أنها قصة سيدة فى سن والدنى ، إن لم ترد على ذلك ! . .

قلت : فما يمنعك إذن من أن تذكرى لى اسمك ؟ ! . . إنك شابة رقيقة يلعب فى عينيك الجميلتين ذكاء ، قل أن تعبر عينا أنثى عن مثله . ولعل إن سعدت بمعرفتك أن أكون أكثر سعادة بمعرفة من تمتين إليهم بصلة ، ممن تربطنى بهم صداقة أو معرفة ! . .

قالت : ذلك أدعى ألا تعرف عنى شيئاً ، وقد استخلفتنى صاحبة القصة ألا أذكر لك شيئاً عن شخصى ، وقطعت لها العهد والميثاق أن أكون عند رغبتها ! . . وأحسبك يا سيدى تشجعنى على أن أحفظ عهدى ، وتسمح لى بالانصراف .

قالت ذلك وهمت بالوقوف ، وأيقنت أن ما أبذل من جهد لمعرفة اسمها أو شخصيتها سيذهب سدى ، فوقفت وودعتها قائلاً :
لعل أراك من بعد .

وأجاب : علم ذلك عند ربى . . وانفلتت فى رشاقة ، وسرعان ما اختفت عن ناظرى ، تاركة لى هذا الملف الأنيق الذى أخرجه من حافظة أوراقها ؟ . .
وكان الملف مربوطاً بشريط من الحرير الأزرق زرقة السماء ، فككت رباطه وأجلت بصرى فى صحف القصة الأولى ، ثم إنتى تخطيت هذه الصحف إلى فصل يتوسط القصة فإذا هوثير طلعتى ، بل يثير دهشتى ، وتكاد

تهتر لقراءته أعصابي . عند ذلك آثرت أن أصعد إلى غرقى وأن أبدأ قراءة القصة من أولها ، وفعلت ، وإننى لأتابع القراءة إذ دق الخادم باب الغرفة وقال : ألا ينزل سيدى ليتناول عشاءه ، فقد جاوزت الساعة التاسعة ١٩ . . وأجبتة : بل أوتر الليلة أن أتناول طعاماً خفيفاً . فأحضر لى ها هنا خبزاً وجبناً وأكثر من الفاكهة .

وخرج الخادم يعد ما طلبت ، وعدت أنا أتابع قراءة القصة ، وكنت كلما انتقلت فيها من فصل إلى فصل تولتى الدهشة . فصاحبها تروى حكاية حياتها فى بساطة ويسر ، يكاد يخيل إليك معهما أنها حياة عادية لأية امرأة تعرفها ، ولكنك تقف بعد قليل دهشاً تسأل : ما هذه المرأة ؟ . . ومن هى ؟ . . إنها فريدة فى طرازها ، بل هى نسيج وحدها . . إنها تحب الحياة ، ولا تريد مع ذلك أن تسلم للحياة أمرها ، بل تريد أن تصوغ الحياة كما تشاء هى ، فإذا صدمها الواقع لم تذعن لصدمته ، بل حاولت أن تواجهه فى كبرياء المعترف بنفسه ، المؤمن بقوة ، لتبلغ آخر الأمر إلى الإسلام للحياة ومقاديرها ، وللطبيعة وحكمها .

والعجيب فى أمر هذه البطلة أنها لم تقف إزاء معركة من المعارك الكثيرة ، التى خاضتها ، لتحلل نفسها ، ولتجاهد كى تصلح ما يكاد الدهر يفسده . بل هى تنتقل فى قصصها من معركة إلى معركة ، وقد كان فى مقدورها أن تجد فى حمى السلام ملجأً ينجيها هذا النضال ، ويظلها بوراف من الطمأنينة بل السعادة ، لكنها لم تكن تعرف للطمأنينة معنى ، ولم تكن تفهم السعادة إلا أن تكون هى المتحركة فى أقدارها وأقدار غيرها . فلما طال بها أمد النضال

وشعرت أنها أصبحت كالكرة تتقاذفها الأهواء التي ابتدعتها هي ، من صنع
يديها ، لجأت إلى الحصن الذي يلجأ إليه كل من عشت به أنواء الحياة ،
لكنها ما لبثت أن اضطرت للخروج من هذا الحصن ، لتدعن آخر الأمر
لحكم القضاء ، ولسلطان الطبيعة .

لم أنم تلك الليلة حتى فرغت من قراءة القصة ، فلما أصبحت فكرت :
من تكون بطلتها ؟ ومن تكون الفتاة التي حملتها إلى ؟ ولماذا اختارني صاحبها
لتدفعها إلي ، وترك لي مطلق الرأي في مصيرها ؟ . . وماذا عساي أن أفعل
بها ؟ . .

ألقيتها في سلة المهملات ، أم أدفعها طعماً للنار ؟ . . كلا ! . . فهي
تستحق غير هذا المصير لا ريب ، وإن أنا فكرت في نشرها ، فأى عنوان
أختار لها ؟ . . لقد تركتها صاحبها بغير عنوان ، فأجعل عنوانها : قصة
امرأة ؟ . . لكن قصص النساء كثيرة ، وليست هذه البطلة في غمارها تيك
النسوة اللاتي أحياناً أو أبغضن ، كما تحب كل امرأة وتبغض ، بل إن لحبها
وبغضها لطابعاً خاصاً بها ، لا يتسق هذا العنوان معه ! . .

ومالي لا أتخذ عنوانها من طريقة تحريرها ؟ . . فلم يرد فيها اسم بطلتها ،
أو اسم شخص من أشخاصها برغم وضوح شخصياتهم جميعاً وروزها . .
ما لي لأجعل عنوانها : قصة بلا أسماء ؟ . . ثم ما لي لأجعل عنوانها صفة
اختارتها البطلة لنفسها في آخر قصتها : المذنبه الثابتة ، أو صفة أخرى اختارها
لها زوجها الأول : غيرة وغرور ؟ . . وترويت في اختيار العنوان طويلاً ،
ثم أهتمني شخصية البطلة بشلوذها وذكاها وجاذبيتها ، وبغرورها وغيرها ،

كما أضمنى الخاتمة التي أضاقها ذيلاً لروايتها ، فجعلت عنوانها : « هكذا خلقت » ، مقتنعاً بأن هذا العنوان يصف البطلة وطريقة تفكيرها أصلاً الوصف ! . .

ولا أريد أن أحكم لهذه القصة أو عليها ، وحسب أن أذكر أن حديث البطلة عن نفسها جعل القصة أكثر واقعية في تصوير عواطفها وإحساسها ، وتطور هذه العواطف والمشاعر في دخيلة وجودها وهي في غمرة المضطرب الذي تعاني العيش فيه .

والواقع أن ما صورته هذه القصة لا يزيد على أنه أثر من آثار التطور الاجتماعي الذي شهدته مصر ، ولا تزال تشهده . وإذا كان في البطلة شذوذ غير مألوف فهو يصور واقعاً قل أن يجتمع كله في نفس واحدة في فترة واحدة من الزمن . . فهو يرسم لا ريب صورة من صور تطورها المتصل ، في هذا الدور الحاضر من أدوار المجتمع المصري ، وبعض البلاد الشرقية معرضة لأن تمر بهذا الدور مثلنا ! . .

ولعل من القراء من شهد مناظر في الحياة تشبه ما صورته هذه القصة ، وإن اتصلت هذه المناظر بأكثر من شخص واحد في الطبقة المصرية المستتيرة ، في هذا الزمن الذي نعيش فيه ، وتلك ألوان من الحياة لم تكن تمر بخاطر جيلنا أو الجيل الذي سبقه .

ومن الخير تصوير الجوانب المختلفة من أطوارنا في هذا الوطن إذا أردنا أن نواجه التطور الحاضر لفائدة المجتمع ، وحرصنا على ألا تنسوء آثاره في بعض الطبقات زمناً طويلاً ، ولن يستطيع كاتب فرد أن ينهض بهذا العبء

الجسم ، سواء اختار القصص أو الرسالة أو البحث العلمي أو الفلسفي ،
 فحياة المجتمع تزداد تعقيداً كلما ازداد المجتمع ارتقاء . وقد أصبح التخصص
 ضرورة في الكتابة كما أنه ضرورة في الطب أو الهندسة أو غيرهما من المعارف
 والأعمال الإنسانية . وغاية ما أرجو أن تتضافر جهود الكتاب على اختلاف
 نزعاتهم ، ليوجه هذا التضافر مجتمعنا الوجهة الصحيحة في تطوره ، وليكفل
 له سرعة السير في معارج الرقي إلى أسمى درجات الحضارة ! . .

هدانا الله جميعاً سواء السبيل .

محمد حسين هيكل

الفصل الأول

ما أكبر الفرق بين القاهرة اليوم ، في هذه العشرة السادسة من القرن العشرين ، وبينها أيام طفولتي وصباي في العشرة الأولى من القرن نفسه ! . . وما أكبر الفرق بين الحياة في هذه المدينة العاصمة اليوم ، والحياة فيها إذ ذاك ! . .

أنا اليوم أَسْكُن شارع الهرم على مقربة من نهايته عند فندق « مينا هاوس » وتقلى السيارة إلى قلب المدينة في عشر دقائق أو نحوها ، وذلك ما لم يكن يحلم به أحد في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن . . لم يكن أحد يومئذ يسكن شارع الهرم ، بل كان النيل يفصل بين « القاهرة » وما على شاطئه المقابل لها من مزارع ممتدة إلى مدى النظر ، ولم تكن السيارات يومئذ وسيلة المواصلات ، بل لم تكن موجودة بالنسبة لسواد الناس ، ولست أذكر متى جاءت أول سيارة إلى مصر ! . . لكن السيارات بقيت بعض مظاهر الرف إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، أي إلى سنة ١٩٢٠ ، فكان طبيعياً أن تظل رقعة المدينة ضيقة مع وسائل مواصلاتها ، وأسرعها عربات الخيل (الحناطير) والحمير ! . . أما الترام الذي بدأ يسير في السنوات الخمس الأخيرة من القرن الماضي ، فلم تكن شبكته قد امتدت إلى ما وراء حلود المدينة كما صورتها ! . .

ثم إنى لأذكر يوماً من سنة ١٩٠٩ ذهبت فيه مع أبى إلى ضاحية « مصر
جديدة » . وكانت فى بدء إنشائها : فلم يكن بها غير عدد قليل من المنازل ،
على مقربة من فندق « هليوبوليس بالاس » ويومئذ سمعت أبى يبدى عجبه :
كيف تغامر انشركة البلجيكية القائمة بهذا المشروع ، باختيار تلك البقعة من
الصحراء لبناء ضاحية فيها . لكن المصريين كانوا يؤمنون بعقريه الأجانب
حتى ليكادون يضعونهم فى مصاف الملائكة أو فى مصاف الشياطين ، ولذلك
كانوا يحتاطون فى الحكم على تصرفاتهم لاقتناعهم بأن هؤلاء الأجانب
يلدركون مالا ندر .

ولقد آمنت يومئذ بما أبداه أبى من عجب ؛ لأنه أبى ، ولأننى رأيت الترام
الأبيض الذى يصل « القاهرة » « بمصر الجديدة » ينساب بعد العباسية فى
صحراء خالية لا حياة فيها ، فلا ترى العين على جانبيه إلا الرمال الممتدة
لتلامس السماء عند الأفق .

وكانت العباسية نهاية القاهرة من هذا الجانب ، وكانت أشبه بضاحية
يقطنها العسكريون الذين ألفوها فى أثناء خدمتهم فى الجيش ، لأنها تجاور
تكناته . فلما انتهت خدمتهم فيه أقاموا مساكنهم هناك ، على أرض رخيصة
التمن : لبعدها عن المدينة وعن مواصلاتها .

أما سرة المدينة فكان ميدان « العتبة الخضراء » ، منه كانت خطوط
الترام تبدأ سيرها ، وفيه كانت تقوم المحكمة المختلطة ميدان النشاط القضائى
بين الأجانب والمصريين فى العاصمة وما حولها ، وعلى مقربة منه كانت تقوم
حديقة الأزبكية . التى كانت قبل مائة عام بركة ، ثم انقلبت حديقة

باسقة الشجر محاطة بأسوارها المنيعه . ومن ميدان العتبة الخضراء يمتد شارع عابدين المعروف إلى قصر الحكم عن شمالك ، وتقوم متاجر فخمة عن يمينك ، وينحدر شارع الموسيقى ذو الشهرة العالمية لأنه كان شريان النشاط التجارى بالمدينة .

وكان ميدان « العتبة الخضراء » والشوارع المتفرعة منه يفصل بين الأحياء المصرية والأحياء الأجنبية في القاهرة ، فما امتد منه غرباً إلى النيل كان مستقر الأجانب . وما امتد شرقاً متجهاً إلى جبل المقطم كان مستقر المصريين والشرقيين وميدان نشاطهم ، لذلك كان شارع « الموسيقى » مختلط فيه العناصر الثلاثة : الشرقيون والأجانب والمصريون ، يزداد الأجانب في جانبه القريب من العتبة ، والمصريون في جانبه المتصل بالسكة الجديدة المؤدية إلى أحياء سيدنا الحسين والأزهر وما وراءها إلى الجبل من أحياء وطنية صميمة ! . . وكان سكان القاهرة يومئذ لا يبلغ عددهم الثلث بل الربع من سكانها اليوم .

كان طبيعياً ، وتلك حال القاهرة في العشرة الأولى من هذا القرن ، ألا ترى فيها عمارات شاهقة كالصروح التي تراها اليوم ، وأن تتألف منازلها من طابقين أو ثلاثة على الأكثر ، وكانت منازل الذوات وأهل اليسار أشبه بالحصون ، ترتفع جدرانها الخارجية لتستر كل ما فيها وكل من فيها ، ولتستر السيدات المخدرات صاحبات العصمة بنوع خاص ، وبين هذه الجدران كان المنزل يتألف من (سلامك) متصل بالباب الخارجى خاص بالرجال ، ومن (حرمك) منفصل عنه هو مستقر السيدات ، ويغلب أن

تقوم أمام (الحرملك) حديقة صغيرة تنسم السيدات فيها الهواء ، بعيدات عن أعين الرجال .

وكان والدى من المصريين ذوى الجاه واليسار ، فكان البيت الذى ولدت به ونشأت فيه من هذا الطراز الذى وصفت ، وكان يقع على الميدان الذى يقوم فيه تمثال (لاطوغلى) ، وكان سلاملكه يقع إلى يمين الداخل من بوابته الكبيرة ، مكوناً من غرفة واسعة للجلوس ومن غرفة أصغر منها ، يدخل الإنسان إليها من بهو فسيح أمامهما ، ويرتفع الكل عن الأرض بضع درجات ، وكان يفصل بين (السلاملك) و (الحرملك) جدار يزيد ارتفاعه على قامة الرجل ، ومن ورائه حديقة غرس فيها الجازون ، وقامت على جوانبها أحواض من أشجار الورد والأزهار المختلفة ، كما قامت فى أحد أركانها «جبلالية» صغيرة تجرى فيها المياه . كنت إبان طفولتى أقضى معظم وقى فى هذه الحديقة ألعب مع اثنتين من بنات الجوارى اللاتى يعملن فى خدمة المنزل ، وكانت والدى إذا أراهن دعوتى إلى داخل الدار بعثت إلى ياحدى هاتين الطفلتين أو بجارية من الجوارى ، ولم تكن تنادىنى مخافة أن يسمع صوتها خادماً من الرجال ، أو أحد معارف أنى الجالسين معه فى (السلاملك) ، فصوت المرأة كان يومئذ عورة لا يجوز أن تداعب آذان الرجال .

وكانت والدى من قريبات أنى ، وكان أهلها من الأعيان الذين يرون تعليم البنات القراءة والكتابة أمراً نكراً ، ولكنها كانت بارعة فى إدارة المنزل ، تحذق كل شئونه ، وكانت لذلك مدبرة فى غير شئ ، لا ترمى قرشاً فى غير موضعه ، ولا تنص على خادم ، رجلاً كان أو امرأة ، بما يحتاج إليه برغم

أنها لم تكن ترى الخدم الرجال أو مخاطبتهم .

وكانت والدتي تستقبل السيدات من صديقاتها مساء الثلاثاء من كل أسبوع ، وفي هذا اليوم كان الخدم الرجال يتمتعون بإجازة من بعد الظهر : وكان والدي يغادر المنزل فلا يبقى به رجل إلا بوابنا العجوز المتهتم باستقبال السيدات عند دخولهن من البوابة وخروجهن منها ، وكنت أغتبط بمقدم يوم الثلاثاء لأنه كان أشبه بأيام العيد ، ولأن بعض المغنيات والراقصات من معارف والدتي كن يحضرن فيحين هذا الاجتماع النسائي ، وكنت قلما أحضر هذه الاجتماعات إلى نهايتها ، فقد كانت والدتي تبعثني إلى الحديقة ألعب فيها ، أو إلى صديقة لي من الأطفال كان منزل أهلها قريباً منا . لأن هذه الاجتماعات النسائية كان يدور فيها من الحديث مالا يحوز أن يسمعه الأطفال ، ذلك ما تيقنته من بعد حين كبرت وحين عرفت ما تتبادله النساء من أحاديث تافهة ، أساسها الغيبة التي لا تخلو من قصص ، يألّفها النساء ، ويرغن عيباً أن يسمعهن الأطفال أو يسمعهن القتيان .

وكنت أغتبط بالذهاب إلى منزل صديقتي الصغيرة التي مجاورنا لأن والديها كان رجلاً رقيقاً غاية الرقة ، وكان يحبها أعظم الحب ، وكان يحين لأنتى صديقتي ، وكان ينتظرني يوم الثلاثاء وقد أعد لي هدية من اللعب التي يغتبط بها أمثالي ، فكنت لتوقعي الهدية أسارع إلى تلبية والدتي والذهاب مع خادم من الجوّاري أقضي مع صديقتي والديها سويّات مهيّئة سعيدة .

ولما بلغت السابعة بعث بي والدي إلى المدرسة السنية ، ولم يكن بينا وبين دارنا ما يدعو إلى ركوب عربتنا ، لذلك كنت أذهب مع البواب العجوز كل

صبح وأعيد معه كل مساء ومعى كجى وكراساتى ، وكان معلم القرآن والديانة
ونحن العربى يشغل معظم حصص الدروس معنا ، فكنا نراه ثلاث ساعات
كل يوم على الأقل . وكان شيخاً رقيقاً شديد اللطف بنا ، يعاملنا معاملة الأب
بناته . فكنا نحبه ونسر بمقدمه . وكنا لذلك نحفظ الدروس التى يلقيها علينا
ونحن مغتبطات أشد الاغتباط . ولهذا حفظت من القرآن جزء (عم) فى
السنة الأولى . وجزء (تبارك) فى السنة الثانية ، وكنت أشعر بالمسرة حين أتلو منهما
أمام والدى ما يزيدهما عطفاً على واغتراباً بناهتى ، وازداد عطفهما على
وضوحاً حين رأيتى منذ تخطيت الثامنة من سنى لا أترك فرضاً إلا صليته لوقته ،
فكنت أصلى الصبح قبل الذهاب إلى المدرسة ، وأصلى الظهر فى مصلى المدرسة ،
وأصلى بقية الفروض لأوقاتها بالمنزل ، ولم يكن العطف علىّ هو وحده مظهر
تقدير أبى لهذا الصلاح وهذه التقوى ، فقد جاء يوماً إلى المدرسة وطلبنى ،
وظلب الشيخ معلم القرآن والديانة والخط ، وشكره أمام ناظرة المدرسة ،
وكانت إنجليزية ، على عنايته بتقويم أخلاق التلميذات عن طريق الدين وفرائضه
ومنذ بدأت السنة الدراسية الثانية بدأنا نتعلم اللغة الإنجليزية ، وفى السنة
الثالثة كنا ندرس التاريخ والجغرافيا ، تاريخ مصر وجغرافيتها ، باللغة الإنجليزية ،
ولذلك أسرعت إلى التقدم فيها وأمكنتنا أن نتكلم بها .

• • •

كان لأبى على حدود مديرتى القليوبية والشرقية ، عزبة كنا نقضى بها
جانب من الصيف فى كل عام . وكانت والدتى تغتبط أشد الاغتباط بهذه الفترة
التي نقضها فى الريف ، فقد كان حول منزلنا حديقة فسيحة فيها أزهار

وفواكه ، وكان كثيرون من أهلنا الأعيان يترددون علينا هناك فيجدون من
والدى مودة ولطفاً ، وتجدد والدتي في أحاديث قريباتنا الريفيات عن الزراعة
وأحوالها لوناً من الحياة غير الذى ألفته في العاصمة ، فتسلى بهاتي ك القريبات
الودودات وبقصصهن ، وكنت أنا أجد في الحديقة وفي الحقول القريبة
ما يبعث إلى نفسى المسرة . فلما بلغت الثالثة عشرة من عمري ذكرت لى والدتي
أن التقاليد تمنع خروجى نهائياً إلى ما وراء أسوار الحديقة ، وتمنع نزولى بها
ساعة وجود العمال من الرجال فيها ، عند ذلك شعرت بأننى بدأت أدخل
ميداناً جديداً من ميادين الحياة ، وأننى موشكة متى عدت إلى القاهرة
أن ألبس ملابس النساء : الحبرة والبرقع ، وألا أخرج إلى الطريق وحدى .
كانت عمى تكثر التردد علينا في أثناء مقامنا بالعزبة ، وكانت سيدة من
أعيان الريف المحترمت في وسطها ، المحافظات على كرامة الأسرة ومكانتها ،
المتصدقات على الفقراء والمساكين من أهل قريتها . وكانت تكبر والدتي عدة
سنوات ، وكانت ورعة تقية قوية الإيمان بالله ورسوله ، شديدة المحافظة على
فروض دينها ، تصلى الخمس فرضاً وسنة ، وتصوم ثلاثة الأشهر : رجب
وشعبان ورمضان . وكان والدتي يحبها ويحترمها ، وكانت تغدق على من
عطفها وحبها ما كنت أغتبط به ، وكان حبها الشديد إياى يرجع إلى أننى
كنت ، برغم أننى تلميذة بالمدارس ، شديدة المحافظة على فروض ديني ،
وكنت أتلو عليها من سور القرآن ما يثلج صدرها ، سواء أفهمته أم لم تفهمه .
وكانت عمى تقضى معنا أحياناً أسابيع متعاقبة ، وكان لها غرام بأن تقص
عليها صوراً من ماضى الحياة في الريف ، هذا الماضى الذى تطور في نظرها

تطوّراً لا تطمئن إليه نفسها . وكانت تقص على من تلك الصور ما يثير عجبها كانت تذكر أن أسرتنا التي استأثرت بعمدية البلد ومشيختها ، ولا تزال تستأثر بهما ، كانت تعد بالعشرات وتقيم في منازل عدة ، وأن الفلاحين الذين كانوا يعملون في أراضينا كانوا يجتمعون كل مساء بعد صلاة المغرب في صحن انداد الكبيرة يتناولون طعام العشاء الذي يطهى لعشراتهم في هذه الدار ، ثم لا يصد عن الطعام فقير وإن لم يكن يشتغل معهم في المزارع ، وأنهم جميعاً كانوا ينظرون إلى جدى لأبي على أنه والدهم جميعاً ، فلا يترّوج أحدهم إلا بعد مشورته ، ولا يختلف اثنان إلا احتكما إليه وقبله حكمه ، ولا تطلق امرأة من زوجها إلا بعد أن يقتنع بأن الصلح بين الزوجين غير مستطاع . وكانت تذكر أن هذه الأبوة لم تكن مقصورة على أبناء الأسرة والعمال في مزارعنا ، بل كان أهل القرية جميعاً يتزلون على حكم جدى اقتناعاً منهم بعدالته . وبأنه رجل صالح يخاف الله ولا يرضى بما يفضبه ، وأنه إلى ذلك رجل خير يعين البائس والمحتاج ويأنف أن يتدخل في شئون البلد غريب أو أن يستبد بأهله حاكم ظالم .

وإن نسبت الكثير مما قصت على إذ ذاك فلن أنسى تصويرها للقرية المصرية في النصف الثاني من القرن الماضي . فهذه الصورة لا تزال عالقة بذاكرتي . وهي تجعلني أرى أهل تلك القرية يعيشون عيش القبائل في البادية برغم أنهم أهل زراعة ، ولم يكن هذا النوع من العيش عجيباً في ذلك العهد . فقد كانت كل قرية تعيش في عزلة عن غيرها من سائر القرى ، لأن المواصلات السريعة لم تكن قد ابتكرت ، وكان أهلها لا يكادون يسمعون شيئاً عن حياة

المدن ، إلا ما اتصل منها بعقائدهم وإيمانهم الراسخ بالمشايخ والأسايد ،
وتطلّهم لزيارة هؤلاء الأسايد للتبرك بهم ، ولم يكن ذلك مستطاعاً لغير
ذوى اليسار ومن يلوذون بهم ، أما سائر أهل القرية فكانوا يمتصون حياتهم
كادحين في غير ملل ، مؤمنين بأن الله قسم الحظوظ ، وأنا لن يصيبنا إلا
ما كتب الله لنا ، هو مولانا عليه توكلنا وعليه فليتوكل المؤمنون .

كنت أطبل الاستماع لعمتي وأطرب لحديثها ، وكنت أشد اغتباطاً بما تقع
عليه عيني من مناظر هذا الريف الممتعة حين أتردد عليه غير مرة خلال السنة ،
ولم يكن جمال الريف هو وحده الذى يأخذ بناظري ، بل كان لى من الطمانينة
إلى أهله حظ عظيم ، وكيف لا أطمئن إليهم وأنا أرى من مظاهروهم وتقواهم
ما يثير إعجابي . لقد كنت أخرج مع والدى أحياناً بعد الغروب فأرى أحدهم
يقوم لصلاة العشاء في مصلى ساذج مفروش بالحلفاء على حافة التربة بعيداً
عن الأعين فيهتّر لذلك قلبي ، وتتأثر بهذا المنظر كل مشاعري . فهذا الرجل
المتفرد وسط لا نهايات المزارع في هذه الساعة من المساء يدعوره ويستغفره ،
كان مثال الورع في نظري ، ولم يدّر بخلدى في تلك الأيام من طفولتي وبدء
صباى ما عساه يدور برأسه في أثناء صلاته أو بعدها من أفكار قد لا يرضى الله
عنها ، بل كنت أومن بأنه في وحدته قريب من ربه ، وأن حرصه على فروض
دينه خير شاهد على نقاء قلبه وصفاء سريرته .

وعدنا إلى القاهرة في أخريات الصيف من تلك السنة وأنا مشكّة أن أدخل
ميداناً جديداً من ميادين الحياة ، وأن ألبس ملابس النساء : الحبرة والبرقع .
وإني لأذكر اليوم في ابتسامة لا تخلو من مرارة ما كان يدور برأسمى الطفل إذ ذاك

من غبطة هذا الانتقال من حرية الطفولة إلى قيود المرأة ، هذه الغبطة التي لا تفسر لها إلا التطلع إلى المستقبل الذي كتب على جنسنا ، والذي لا نعرف غيره ولا مفر لنا منه ، والذي تنتظره كل فتاة ، أو على الأقل كانت تنتظره فتاة ذلك العهد وترى فيه أحلام السعادة ، ويرى أهلها فيه أحلام الطمأنينة إلى الحياة . أقصد الزواج . آواه لو علمت كل فتاة ، وآه لو علم أهلها ما ينحني الغيب !! . . .

لا أريد أن أسبق الحوادث أو أعبر عما شعرت به في لحظة غير اللحظة التي أكتب عنها . لقد كنت يوم دخلنا القاهرة في ذلك العام سعيدة نفيض عني المسرة . . لقد كنت أحب من الطفولة إلى الصبا في صحة ونضارة ، وكانت تحيط بي كل أسباب النعمة على ما كان يتصورها ذلك الجيل . كان أبواي يسبقاني إلى رغباتي ، وكنت أجد من حنانهما وعطفهما وبرهما ما يسبغ على الحياة خير ألوانها ، وما يجعلني أشعر كأنني في جنة الخلد ، وكان تقدير أساتذتي في المدرسة وتقديمي فيها يزيدني نعيماً وغبطة .

وكان الأمل الباسم الذي يفتح أجنحته الأثيرية للشباب الموشك أن يفتح كما تفتح الأزهار ينشر أمام خيالي الساذج ألواناً من الهناء لم أعرف لها في الحقيقة مثالا ، وكان مرجع رضاي يومئذ عن نفسي إلى ما عرفت به بين زميلاتي في المدرسة من حسن الخلق لشدة محافظتي على صلواتي ، حتى كان بعض معلماتي يسميني « رضوان الجنة » نسبة إلى حارس جنة الخلد ، وذنت لشدة عنايتي بمصلى المدرسة .

وبعد أسابيع من استقرارنا في العاصمة فكرت والدتي في أن تفصل لي حبرة

ألبسها وألبس البرقع معها ، ولهذا المناسبة جعلت أذهب معها إلى المحال التجارية لتختار القماش المناسب وإلى الخياطة لأفصل الحبرة ، ويومئذ أحسست أن شعوراً جديداً يخالط نفسي ، شعور الأنوثة التي تسرى في عروقي وأعصابي ، كما يسرى ماء الحياة في الشجر فيزيده رواء ، ويزيد خضرة أغصانه بهجة وأكمام أزهاره تفتحاً .

ولقد كنت إذ ذاك اعني بملاحظة السيدات المبرعات وما يسبغه عليهن الحجاب من جمال يزيد عيونهن النجل روعة وبراعة ، وكنت نحيفة القوام معتدلة ، وكانت والدتي لا تفتأ تلفتني إلى هاتيك السيدات الممثلات يتحدث جسمهن البض عن معاني النعمة وتكاد تؤنني لنحائقي ، بل لقد كانت تذكر لي أن من هاتيك السيدات من تشعر بنحافة جانب من جسمها فتطالب « الخياطة » بأن تضع تحت الحبرة أسلاكاً أو تحشوها فتستر هذه النحافة ، مع ذلك بدأت أشعر أن في عيني من الجاذبية ما يغني عن هذا الجermal المصطنع ، وإن لم أجزؤ على أن أذكر شيئاً من ذلك لوالدتي .

ولبست حبرتي وبرقعي وانتعلت حذاءً عالي الكعب وأخذت أخرج مع والدتي إلى الأسواق وفي بعض زياراتها لصدقاتها فإذا هذا الشعور بالأنوثة يزداد في نفسي ، وإذا حيويته تسرع إلى النماء أضعاف نموها قبل أن ألبس الحبرة والبرقع ، ولعل ما شعرت به من اختلاف نظرة الرجال إلي في أثناء سيرى مع والدتي عما كانت عليه قبل هذا الحجاب قد كان سبباً في هذا التزايد السريع في نمو شعوري .

وأدى ذلك بي إلى مزيد من عنايتي بهندامي ، فكنت أقضي أمام المرآة

من أضحى في أنثائه من شأى وألاحظ في أنثائه أدق التفاصيل في مظهرى .
فكنت أعنى حتى بالشعرات التى تخرج من تحت رأس الملاية ونظامها .
عنائى بموضع البرقع من أنى حتى يزيد في جاذبية نظراتى ، ثم أعنى بانسدال
الملاية على جسمى حتى تتم في دقة عن ميول قوامى وبارع اعتداله .

ولم يزعجنى حديث والدتى عن نحاقى . فقد كنت أقرأ بعض المجلات
والقصص الإنجليزية . فأرى فيها تصويراً للسيدات والأوانس النحيفات يشهد
بجماهن ويثير الإعجاب بهن . وكنت أقرأ مثل ذلك فيما ترجمه هذه المجلات
عن الأدب الفرنسى . ليست النحافة إذن عيباً لذاتها ، وإن أثار الجسم الناعم
البض من المعانى المألوفة في مصر ما لم يكن يدور إذ ذاك بخاطرى . ثم إنى رأيت
في هذه المجلات والقصص حديثاً عن جاذبية المرأة وأنها ترجع إلى رقتها ودماعة
طبيعتها وحسن حديثها ، فأغرأت ذلك بالعناية بهذه النواحي من أنوثتى أكثر من
عنائى بما أقوم به نحاقى .

على أن شيئاً من ذلك كله لم يصرفنى عن صلواتى احتفاظاً بمكانتى بين
زميلاتى وأساتذتى في المدرسة ، وإرضاء لشعور داخلى كان يتردد في أعماق
وجدانى بأن الزينة لا تخالف التقوى ، وكم اغتبطت حين سمعت الشيخ الذى
يتلو القرآن كل صباح جالساً في غرفة الانتظار بالطابق الأسفل من منزلنا
يرتل : « خذوا زيتكم عند كل مسجد » ، فقد ثبتت هذه الآية شعورى
أن داخلى واطمأن لسماها وجدانى فازددت عنايتى بزيتتى كما ازدددت حرصاً
على أداء فروض الله ! . .

وازدددت على الزمن شعوراً بأن القراءة تم الزينة ، صحيح أنها ليست

لزينة المادية التي تلفت النظر إلى أشخاصنا حين مسيرنا في الأسواق ودخولنا على صديقات والدتي ، بل هي الزينة المعنوية التي تزيد نظراتنا ذكاء وجاذبتنا فعلا في النفوس ، لذلك أكتبت على الكتب والمجلات التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة ، أو أشتريها من المكتبات ، وشعرت لهذا الإكباب بلذة قوية كانت تأخذني عن نفسي وتصرفني عن كل ما سواها ، وإن جلبت عليّ في كثير من الأحيان لوم والدتي خوفاً على عيني ، وإشفاقاً منها أن تصرفني القراءة عن الاضطلاع بواجبات الفتاة والمرأة في العناية بأمور المنزل وحسن تديره .

وخشى والدي حين رأى إكبابي على قراءة الكتب والمجلات الإنجليزية أن يضر ذلك بلغتي العربية وثقافتي الدينية ، فاختار لي مدرساً شيخاً كانت له به ثقة ، وكثيراً ما رأيته يصحبه ، بل لقد حضر إلى العزبة في أثناء مقامنا بها في الصيف مما دلني على أن له على أبي دالة تزيد في ثقته به .

وكان هذا الشيخ على حظ غير قليل من الذكاء ، درس أول أمره في الأزهر ، ثم انتقل إلى دار العلوم فوجد اللغة العربية بها ، وجعل همه أن يطلع على ما يظهر من كتب مؤلفة أو مترجمة إلى العربية ليجاري العصر ولا يقبع في زوايا الماضي على حد تعبيره . فلما بدأ تدريسه لي لم يلبث حين وقف على مبلغ علمي أن اختار لي كتاب « عيسى بن هشام » للمويلحي ، وكتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، وكتاب « التربية » الذي ترجمه محمد السباعي عن هيرت سبنسر .

وقرأت جانباً من هذه الكتب الثلاثة معه وسمعت إليه يفسر ما رآه

عضاً على من ألفاظها وعباراتها فأغراني ذلك بالمضي في قراءتها في أثناء
وحدتي . وفتحت لذلك أمامي آفاق جديدة يقصر دونها الكثيرات من
مثلي . بل يقصر دونها كثيرون من رجال ذلك الوقت ونسائه ، وقد كنت
أقف وجلة أحياناً أمام ما أقرأ ، لأنه يخالف مألوف الحياة في مصر إذ ذاك ،
وهو مع ذلك مكتوب بلغتنا العربية ، فيجب أن نفكر فيه ، وألا نعتبر
قراءته مجرد تسلية لقتل الوقت ، ويجب أن ننهي من هذا التفكير إلى رأى .
وكنت أسأل أستاذي الشيخ أحياناً فيما يستوقفني ، فلا يزيد على أن يبتسم
ثم يقول :

الزمن يا فتاني كفيل بانضاج رأيك في كل ما تقرأين .
ولقد أخذني العجب يوماً لحوار جرى بين والدي وأستاذي حسبت حين
سمعته أن الشيخ يبلغ فيما يسميه « عصره » . فقد ذكر والدي أن شاباً من
أبناء أحد أصدقائه تزوج من أجنبية يهودية فكان جواب الشيخ : وماذا
في ذلك ؟ ثم تطور الحوار إلى جدل ديني كان الشيخ فيه دون والدي تعصباً
لعهيدته ، فقد رأى والدي أن زواج اليهودية من المسلم يتيح لها الفرصة لتقف
من زوجها أو من أهله أو من خلطائه على حقيقة الإسلام ، فإذا هي لم
تعنقه من بعد كانت مكابرة ، وكان مصيرها إلى الجحيم . أما الشيخ فرأى
أنها إذا لم تقتنع بحجة زوجها أو أهله أو خلطائه وعملت صالحاً فلا جناح
عليها أن تقيم على دينها ، وأن يغفر الله لها ، ويدخلها الجنة .

كانت تدور أحاديث من هذا القليل بين الرجلين ، وكان الجدال
بينهما يبلغ الحدة ، ثم لا يغير ذلك من ثقة والدي بالشيخ ، واطمئنانه

لحسن إيمانه ، فإذا نودى للصلاة من مثذنة المسجد القريب من دارنا ، وقام الشيخ للصلاة ، ائتم به والذى وقضى فرضه وراءه .

كنت أسمع وأرى ما يحدث من مثل ذلك فلا أقف طويلا عنده . ومن كان في مثل سنى يومذاك لا يقف طويلا عند شيء ، بل تمر أمامه الأحداث والآراء ، فيلم بها الإمامات سريعة تبقيا في ذاكرته لتنضم على الأيام لأشبابها ثم تكون موضع تفكير وعبرة من بعد ، حين نصبح قادرين على أن نبدي حكماً ذاتياً على ما نرى ونسمع ، وكذلك بقيت ذاكرتي تحتزن ما استطاعت اختزانه ، حتى إذا آن الأوان تفاعل ذلك كله في نفسى ، وكوّن وجودى الذاتى وكيانى المعنوى .

تعاقت الأيام والأسابيع والشهور ، وانقضت السنة الدراسية ، واحتفلنا بقيظ العاصمة أسابيع من أوائل الصيف ، ثم ذهبنا إلى العزبة وبدأ أقاربنا يزوروننا ، وأقبلت عمى وعلى رأسها طرحة بيضاء على خلاف ما ألفت من لباس رأسها فى الأعوام الماضية ، إذ كانت طرحتها سوداء ؛ ذلك لأنها سافرت إلى الحجاز وأدت فريضة الحج واستيقظت الطرحة البيضاء من لباس إحرامها ، ولم يكن حديثها ذلك الصيف عن ماضى الحياة فى قرينتنا العزيزة ، بل كان كله عن الحج والحجاز والكعبة ومسجد المدينة والمقصورة النبوية ، وكانت تقص ذلك فى تفصيل يشهد بطمأنينة نفسها إليه واستراحة قلبها له ، وكنت أشعر فى بعض ما تقصه بأنه أدنى إلى الأساطير ، لكنها كانت ترويه فى حرارة إيمان تنقل صدها إلى قلب والذى فلا تفتأ تكرر :

يا بحث من زار النبي ! - .

ولو أننى استطعت يومئذ أن أنقل كل ما روته عمتى عن حججها لتألف
 منه كتاب شائق ، فقد كان حديثها عن هذا الحج يتصل يوماً بعد يوم
 وكانها شهر زاد فى ألف ليلة وليلة . لكننى كنت فى شغل بقراءة مجلاتى
 وفصصى الإنجليزية ومراجعة عيسى بن هشام وتحرير المرأة والثرية ، لأن
 أستاذى الشيخ أخيرنى قبيل سفرنا أنه سيزورنا بالعزبة بعد شهر من مقامنا ،
 ويسألنى عما قرأته .

وجاء الشيخ إلى العزبة فى الشهر الأخير من أشهر الصيف ، وكنت
 فى فترة هذه الإجازة المدرسية قد أسرعت فى النمو وبدأ تكوينى النسوى برعم
 نحافى . وشعرت فى نظرائى بمحاذية قوية كنت أعجب بها حين أقف أمام
 المرأة أصلح من هندامى . ترى أكان هذا هو السبب فى أن والدى لم يكن
 يذرنى وحدى مع الشيخ ساعة تدريسه لى ؟ ! . . فقد لاحظت أنه كان
 يحضر دروسى جميعاً على غير عادته من قبل ، وما أحسبه خالجه شبهة
 فى خلوقى مع الشيخ . ساعة الدرس ، أو خالطت نفسه ريبة من أمره ،
 فقد كانت ثغته بورعه فوق كل شبهة ، وإنما أحسبه خشى قالة الناس ،
 وقالة النساء أكثر من قالة الرجال . فقد علمتنى السنون من بعد أن الناس فى
 مصر ، من أهل المدن كانوا أو من أهل الريف ، يسرعون إلى الريبة فى غير
 موضع الريبة ، ويتناقلون من الأحاديث الكاذبة فى أمر غيرهم ما يسرعون
 إلى تصديقه . هذا فى اعتقادى هو ما دعا والدى لمصاحبة الشيخ ساعات
 تدريسه لى ، وبخاصة بعد أن رأى منذ كنا بالقاهرة عنايتى بهذه الدروس
 واستفادنى منها .

وجاءت مولات الصيف وأن لنا أن تعود إلى العاصمة ، وإننا لناخذ
أهبتنا للعودة ، إذ شعرت والدتي عرض ألزمها فراشها ، وتولت عمي الحاجة
العناية بها ، فكانت تلازمها ليلها ونهارها ، وكانت تنكو وهي في مجلسها إلى
جانها كل ما عرفت من رقي وتعاويد ، وكانت تدبر البخور على رأسها
تطرد به حسد الحاسد . لكن المرض كان يشتد يوماً بعد يوم . واستدعى
والدي الطبيب من أقرب مدينة فلما فحص والدتي أشار بضرورة إسراعنا إلى
القاهرة أو بإدخالها مستشفى المدينة القريب منا ، وأثر والدتي أن نعود إلى
القاهرة فعدنا إليها مسرعين .

وجاء الطبيب الذي اعتادت والدتي أن تعرض نفسها عليه كلما مرضت ،
فححص وأطال الفحص ودقق فيه ، ثم كتب تذكرة دوائه ، ووعد أن يعود
المریضة بعد ثلاثة أيام ، وخرج والدتي معه من غرفة المريضة ووفقاً هنية
بها مسان . وبعد أن ودعه عاد يؤكد لوالدتي أن الأمر بسيط ، ولن يمضي
أسبوع حتى تكون قد استردت عافيتها ، ورأيت على وجه والدتي سباً الألم ،
وإن ردت إليها هذه الكلمات من الطمأنينة ما خفف بعض وقعه .

وفي المساء جاء والدتي بعد أن خلع ملابسه ، وتمطى على « كنبه » تواجه
السري الذي رقدت والدتي فيه ، بعد أن دعا الخادم وأمرها ففرشت عليها
ملاعة ، ووضعت على طرفها الملاصق للحائط مخدة نوم . وعجبت لما
رأيت من ذلك ، فلم أر والدتي من قبل ينام على هذه « الكنبه » قط ، والحت
عليه والدتي أن ينام على السري في الغرفة المجاورة لغرفتها فأني قائلاً :
لقد نمت أنت على هذه « الكنبه » غير مرة حين مرضي ، فلا أقل من

أن يؤدى بعض ما على من دين لك ، وإن كنت موقناً أنني لن أؤدى إلا القليل ،
مقابل ما غمرتني به دائماً من رقة وود خالص .

وغادرت الغرفة وقد زادني ما رأيت وسمعت إعجاباً بأبى وبهذا الحب
تبادل وتمنيت أن أسعد في الحياة بمثله .

وانقضت الأيام الثلاثة التي تحدث عنها الطبيب وشكوى والدتي من
علتها لا تنقص . بل تزيد . وجاء الطبيب في موعده وأعاد الفحص وخرج
بعده مع والدي . وفي صباح الغد علمت أنه سيحضر معه طبيبان آخران
من كبار الأطباء . لإجراء « كونسلتو » يشخصون بعده المرض ويصفون
علاجه . وجاء الأطباء الثلاثة بعد الظهر من ذلك اليوم ، وفحصوا المريضة
وما عولجت به من دواء . ثم تبادلوا الرأي ، وكتبوا تذكرة جديدة .

كانت والدتي تذكر للأطباء الثلاثة ، في أثناء الفحص ، ما يتتابها الوقت
بعد الوقت من آلام مبرحة . وتتنظر إليهم نظرة رجاء واستعطاف لهمهم
يخففون آلامها ويبرئونها من علتها ، وكان الأطباء ينظر بعضهم إلى بعض لدى
سماع حديثها ثم يقول كبيرهم العبارات المطمئنة المألوفة ، وكأنه يتلو ورداً من
الأوراد أو دعاء من الأدعية التي تتلوها عمى الحاجة ، فلا يفتّر ثغره عن
إبسامة ولا يلمع في عينيه معنى الرجاء الذي طمعت والدتي في أن ترى
بريقه . فلما انصرفوا وودعهم والدي وعاد إلى غرفة المريضة نظرت إليه
نظرة استنهام فقال :

إنهم يستحسنون نقلك إلى المستشفى زيادة في العناية بك . وأجابته
والدتي مترعجة :



ولست حيرته وبرقى وأدى ذلك إلى مزيد من عنايتي بهندامى

المستشفى؟! . . كلا ، كل شيء إلا المستشفى ، وإذا كان قد كتب لي أن أموت ، فخير لي أن أموت على فراشي هذا ، أما إن كان الله قد كتب لي الشفاء ، فلن يكون في المستشفى شفائي .

ورأيت في عينيها دمة تترقق . فأخذ والدي يسكن من روعها وبذكرها أنه كان على يقين من أنها لن تقبل الذهاب إلى المستشفى ، وأنه ذكر ذلك للأطباء ، ولقد رأى أن يعيد على مسمعا ما قالوا ، وأنهم يرون الخير في أن تكون في عناية ممرضة ورقابة طبيب ، ثم إن والدي أضاف :

وقد ذكرت لهم أننا نستطيع أن ندعو الممرضة لتكون إلى جانبك هنا ، وأن طبيبك يستطيع أن يعودك كل يوم في الصباح وفي المساء .

وجف الدمع في عين والدي ، ونظرت إلى والدي نظرة عرفان وبدت على ثغرها المتألم شبه ابتسامة ، لكنها قالت :

لا ضرورة لممرضة ، فأنا لا أريد أن تطلع أجنبية على دخائل بيتنا ، وإذا أمكن أن تحضر عمي الحاجة إلى هنا ففيها البركة ، وفي يدها الشفاء . وكانت والدي تحب عمي حقاً ، وتبادلها عمي هذا الحب الصادق ، وقد رأيتها تحضر صبح الغد من هذا الحديث ، وتدخل على والدي تقبلها وتكرر لها الدعوات بالشفاء . وفي لحظات خلعت ملابس السفر ، وجاءت وعلى رأسها طرحتها البيضاء ، وجلست إلى جانب والدي ، وأخذت تلو من الأدعية ما اطمأنت له المريضة وشعرت لساعه براحة نفسية ، لعل سببها أنه أزال ما تبلى لناظرها من شبح المستشفى ومنظر الممرضة .

وقد قامت عمي بمهمة التمريض بإخلاص وإتقان ، لما بينها وبين

والدنى من الود الصادق والمحبة الخالصة ، فلم تكن المريضة ترغب في شيء إلا سبقت إلى تنفيذ إرادتها بهمة لا تعرف الكلال ، وكَم من ليلة باتت إلى جانبها ساهرة تقص عليها من أخبار القرية أو من أخبار الحجاز ما تتسلى به المريضة عن آلام كانت مبرحة في بعض الأحيان ، وكثيراً ما سمعت العمة العزيزة تمنحها بعد أن يمن الله عليها بالشفاء أن تؤدي فريضة الحج ، وتزور القبر النبوي وتتمتع بلمس شبّاكه ولثمه . ، والدنى تسمع لذلك فيعود نظراتها أملٌ يرد إليها الحياة بعد ذوبها ، ولا أحسب مموضة كانت تستطيع - وإن بلغت من الدقة في عملها أعظم مبلغ - أن تخدم المريضة ، بخير مما كانت تخدمها الصديقة الوفية الصادقة الود .

وكان الطبيب يعود والدنى كل يوم ، بل كان يعودها مرتين أحياناً ، وكان والدنى يقف إلى جانبه في أثناء هذه العيادة فإذا فرغ منها وطمان المريضة بأن صحتها في تقدم خرج مع والدنى ووفقاً برهة يتحدثان ، وقد لاحظت غير مرة أن أسارير والدنى خلال هذا الحديث كانت أدنى إلى الانتباض ، وأنه كان يودع الطبيب إلى الباب ثم لا يعود إلا بعد زمن لعله كان يحاول فيه أن يدخل غرفة المريضة بوجه تبدو عليه ملامح الطمأنينة ولا ينم عن شيء من اليأس والألم ! . .

ولم يكن شيء يبعث الطمأنينة إلى نفس والدنى ما تبعها إليه صلوات عمى الحاجة ودعواتها الصادرة من القلب ، فقد كانت تؤدي الفرائض لأوقاتها على مقربة من سرير والدنى ، وكنت كثيراً ما أأتم بها ، فإذا ما قضيت الصلاة رفعت كفها ضارعة إلى الله أن يشفي المريضة لتتمتع بشبابها وتفرح

بأيتها . وكانت نجواها في أثناء هذه الدعوات تحالطها حرارة الإيمان الصادق
وإنرجاء العميق في وجه الله أن يستجيب لها .

برغم هذه الدعوات ، وبرغم العناية الصادقة ، شعرت والدتي في
إحدى الليالي بألم ممرض لا قبل لها به ، وأسرعت عمتي فأيقظت أختها من
نومه . وجاء والدي مسرعاً بحسب أنه يستطيع أن يخفف من هذا الألم
بما يضيفه على زوجه من محبة وعطف وحنان . لكن الألم كان قد بلغ
بالمريضة . فكانت تتأوه وترسل من أعماق صدرها أنات تذيب الجماد .
وأسرع والدي إلى الطبيب في منزله فكان كل ما استطاعه أن يحقن المريضة
بالمورفين تسكيناً لحدة الألم ، وأن أشار بضرورة استدعاء زميله اللذين
شاركاه في (الكونسلتو) وفي تقرير العلاج ، وهذأت حقنة المورفين من شدة
الألم وأغمضت والدتي عينها في غفوة ذكرت لي عمتي من بعد أنهم كانوا
يرجون أن تنام بعدها نوماً هادئاً ، لكن الصباح تنفس عن معاودة الألم
للمريضة . ولما جاء الأطباء وفحصوا المريضة كانت سيهاهم تنطق بمعاني
الأس ، ولا يبدو في نظرات بعضهم لبعض ، شيء من الأمل أو الرجاء ،
وكتبوا تذكرة دواء جديدة ، وودعهم والدي متصرفين .

أفاستطيع اليوم أن أصف حالي في أثناء مرض والدتي ؟ . لقد انقضى
الآن على ذلك الزمن ما يزيد على ثلاثين سنة ، ولا أزال مع هذا أذكر كيف
كنت في ذلك الظرف القاسي أدور في أنحاء الدار ، كأني الروح . الحائر
لا يعرف لنفسه مستقراً . ثم أرتد إلى غرفة المريضة فإذا سمعتها تتأوه أو تن
اضطرب قلبي في صدري ، وشعرت بالألم يحز في كبدي فارتسم ذلك على

قسبات وجهي ثم لم يغنى ما كان يسبغه والدي على من عظيم عطفه وسابغ
حنانه . بل لقد كنت أشعر حين يزيد به الحنان عن مألوف عطفه ، كأنني
أصبحت يتيمة الأم ، وكأنه يريد أن يكون أبي وأمي في وقت واحد ، وكانت
عمتي تحاول جاهدة أن تقنعني بأن والدتي ولله ألف حمد وشكر تتقدم نحو
العافية ، وتذكر لي أنها رأت رؤيا تفسرها أن المريضة ستعود إلى مثل صحتها
في خير أيام عافيتها ، وأن رؤياها لا تكذب أبداً ، فأطمئن لحديثها بعض
الشيء ، ثم لا ألبث حين أسمع أنات الألم تكظمها المريضة جهدها ، كلما
رأيتي مقبلة عليها ، أن تذهب طمأنينتي وأشعر في دخيلة نفسي وأعماق
وجداني بأنني مقبلة على أمر جليل ، فتزداد روجي حيرة ويزيدني الحنان
والعطف الأبوي وحشة على وحشة .

وتشتد مخاوفي أحياناً وأكاد أسألك نفسي : أأذنبت في حق والدتي يوماً
حتى أجثو أمامها وأطلب عفوها ومغفرتها ؟ . . بل لقد اعتزمت ذلك يوماً
ودخلت عليها أريد أن أقبل وجهها ويديها وقدميها ، وأسألك العفو عما لعله
سلف مني ، لكنها إذ رأيتني انحطى الباب نحوها أشارت إلى إشارة فهمت
منها أنها تريد أن تطالعي بشيء أوتسر إلى أمراً ، فلما دنوت منها أجلسني على
السرير إلى جانبها ، وأخذت تقبلي وتبكي ، وكأنها هي المذنبه تطلب الصفح ،
ولم أملك عبراتي فوضعت خدي على خدها ، واختلط دمعني بدمعها ولم تنبس
أبتنا ببنت شفة .

وإننا لذلك إذ دخل علينا والدي ، ورأى ما نحن فيه ، فانهمرت من مآقي
عبرات جعل يحاول حبسها ، ثم تقدم نحونا وقد اختنق صوته وأخذ يقول لزوجته :

« آمي بالله يا حبيبي ، إنه الرؤوف الرحيم ، وعما قريب سيشفيك
فلا ترهقي نفسك ولا ترهقي هذه الصبية العزيزة بما لا طاقة لها بأحماله ،
ودفعني أمي عنها دفعاً رقيقاً لدى سماعها هذه الكلمات ، فخرجت من
الغرفة مسرعة إلى غرقي وحبت نفسي ، وأرسلت العنان لدموعي ، وبعد
هنية رأيت والدي يقبل عليّ ، وحمرة عينيه تشهد بأنه مسحها ساعة دخوله
عندي . وما زال يتلطف بي حتى خرجت معه من الغرفة إلى البهو ، وهناك
جلسنا ندعو للمريضة بعاجل الشفاء .

لكن رؤيا عمتي والدعوات الصادقة الصادرة من قلوبنا جميعاً لم تكن
لتغير حكم القدر . فلكل أجل كتاب ، وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون .

فقد خرجت مطلع الفجر يوماً من غرقي ، فإذا عمتي جالسة على باب
غرفة والدي . وإذا هي لا تكاد ترائي حتى تأخذني إلى صدرها وقد هزه
البكاء المختنق وتقبلني وتقول :

الأمر لله يا بني ، والله يحفظ لك أباك . ثم إنها لم تطق كتمان بكائها
فعلا صوتها به . وبكيت أنا كذلك وارتفع صوتانا ، وأقبل أبي وعليه ثياب
النوم ما يزال وأخذ يسكن من ألمي ، وكل ملامحه تدل على أنه لا يقل ألماً
عني . وعبراته تحدث عن عميق حزنه ، ولما تنفس الصبح جاء الخدم ،
وهن يتوقعن المصاب الفاجع ، فلما عرفته ارتفعت أصواتهن بالصراخ
المرعج . وبعد سوية أقبلت جاراتنا ، وانقلب البيت مناحة تدوي أصواتها
فيما حولنا من الأرجاء .

وتركتنا والدى إلى غرفته وهو يندق رأسه كأنما خرج الألم به عن صوابه ،
وأقبل صديق له من جيراننا سمع الصريخ ، وكان يردد من قبل على والدى
يسأل عن أخبار زوجته ، فلما رآه والدى ناداه قائلاً :
أرأيت يا أخى خراب بيتى ، وأخذ الصديق يسكن من لوعة صديقه
ويذكر له أن أهله ومعارفه سيحضرون له عما قريب ، فلا مفر له ، برغم
هول المصاب ، من أن يتجمل بالصبر حين يتقبل العزاء ! . . وذهب الرجلان
إلى السلامك بعد أن ذهب والدى إلى غرفته ، وارتدى ملابسه محاولاً جهد
طاقته أن يبدو فى وقاره الذى اشتهر به ، وعرف عنه ! . .
ودفنت أُمى فى مشهد مهيب وتقصت ليالى المأتم الثلاث ، وانصرف
المعزون والمعزيات ، وأقهر بيتنا من روحه ، فكنت أرى والدى يتنقل فيه من
غرفة إلى غرفة ، فى حين كانت عمى تدير شئونه وتبذل الجهد لراحة أخينا
وراحتى ، وكم رأيت أبى فى تطوافه من غرفة إلى غرفة يندق يداً بيد . أو يسير
شارد الذهن ، مشتت اللب كأنما أذهله الخطب الذى نزل بنا ! أو كأنما
يفكر فى أمر خطير . وكنت كلما رأيته على هذه الحال ، ازدادت شعوراً
بفداحة اليتيم ، الذى أصابنى فحرمنى حنان الأم ، وأنا أشد ما أكون حاجة إليه .
وكان والدى يحاول ما استطاع أن يخفف لوعتى ، غير متكلف فى محاولاته إلا
ما يملكه عليه وجدانه ، وتفيض به عاطفة الأبوة ، وقد اختص بها الابنة
الوحيدة التى رزقها منذ تزوج . وكنت ألمح فى عينيه حين يحدثنى أنه
لم يبق له فى الحياة أمل غيرى ، وكنت أتمنى لذلك لو استطعت أن أدخل
إلى قلبه من السعادة ما كانت أُمى تلخه على هذا القلب العطوف الرفيق .

ولم يجر في خاطري أن أبى يمكن أن يتزوج بعد موت أمى ، وإننى لنى
برءة صباى إذ ضرق سمعى حديث يتبادلہ الخدم فيما بينهم وهن لا يريننى .
حديث أفرغنى ولم أكد أصدقه . قالت إحداهن :
إنها سمعت عمى تتحدث إلى أخيها بأنه لا يزال فى فتوة رجولته ، وأن
بيته لا يصلح إلا أن يتزوج . وأن والدى أظهر بادئ الرأى عدم الرضا إكراماً
تذكرى المرحومة أمى . بعد الذى كان بينهما من صادق الحب ، فكان جواب
أخته أنها كانت تحب المتوفاة كما كان يحبها ، وأنها حزنّت لموتها مثل
حزنه .

لكن لله فى تصاريفه أحكاماً لا يدركها البشر . وإنا إذا وجب علينا
الوفاء لمن نحب فذلك واجب ما عاش المحبوب . أما إذا اختاره الله إلى جواره
فقد سقط عنا هذا التكليف لأن قيمة الوفاء فى تبادله ، فإذا لم يكن متبادلاً
فلا مسوغ لوجوده . والأموات يحلوننا بموتهم من واجب الوفاء لهم ، ثم إن
عمى ضربت على الوتر الحساس من قلب أخيها ، فقالت :
ولعل الله قد كتب لك ذرية صالحة من البنين يحفظون اسمك ويفتحون
بيتك . والزواج سبيلك إلى هذه الذرية ، وابتك هذه لا تستطيع أن تعيش
وحدها فى هذا البيت الفسيح ، فهى بحاجة إلى من تحسن توجيهها وتقوم
بشأنك وشأنها .

وسمع والدى هذا الكلام من عمى فأطرق قليلاً ثم خرج بالصمت عن كل
جواب ؛ وسمعت أنا هذا الكلام من خادמות البيت فأخرجنى من أحلامى
السوداء حزناً على أمى إلى مخاوف أشد سواداً ؛ إشفاقاً من المستقبل الذى يفغر

فاه ليتلنى فى جحيمة . لكننى لم أكن أستطيع أن أقول شيئاً أو أنبس بكلمة . وكل الذى فعلت أن منيت نفسى أن تكون إطراقة أبى شاهداً بعدم رضاه عما سمعه من أخته ، ولقد بدأت أشعر لهذه العمة بالبغض والكراهية . وبدأت أفر من كل مكان أراها فيه ، فإذا جلست فى بهو الطابق الأول أو نزلت إلى الطابق الأرضى أسرعرت إلى الحديقة ألتمس فيها الوحدة ، وإذا نزلت إلى الحديقة ، وقلما كانت تفعل ، صعدت إلى الطابق الأعلى والتمست فى غرفتى ملجأ أسكب فيه الدمع السخين على هذا اليم الباكر . ولست أدري أأفضت عمى إلى والدى بميل إلى العزلة ، أم أنه لاحظ هذا الميل من تلقاء نفسه ، أم أنه كان صريحاً حين قال لى إن عمى تريد العودة إلى قريتها ، وإنه يؤثر أن يغير الهواء بالسفر إلى الإسكندرية والمقام بها أسبوعاً أو أسبوعين .

وسافرنا بالفعل ، وسافرت معنا طاهيتنا ، ونزلنا طابقاً صغيراً استأجره والدى من أحد معارفه كانت به خادع صغيرة السن تتقن تنظيف المسكن وقضاء ما تحتاج إليه الطاهية من السوق القريبة منا .

وكان لهذا التغير فى لون حياتنا من الأثر الحسن على نفسيتى ما خفف بعض الشيء من عميق لوعتى ، فقد كنت أجد من هواء البحر المنعش فى هذه الأيام الأولى من فصل الخريف ما ينشط ذابل حيوتى ، وكنت أجد فى زرقته الممتدة إلى الأفق حيث يتعاقب الماء والسماء مسرحاً لأفكار مبهمة يذوب خلالها جوى الحزن الذى ناء به صدرى . وكان صريف أمواجه المتكسرة على الشاطئ يداعب سمعى ، وكأنه أنغام يبعث تشابهها إلى الأعصاب نوعاً

من السّامة المريحة التي تدعوننا إلى النوم كما تدعو أنعام الأم طفلها الرضيع إليه .

ثم إنني قلما كنت أرى ما ينهني إلى ذكر والدتي ، فقد كان والذي يخرج كل صباح ثم لا يعود إلا لتناول طعام الغداء وليستريح بعده في سريره ساعة يخرج بعدها من جديد . ولم أكن أسأله كيف كان يقضي وقته ، وكانت انطاهية تدخل مطبخها في الصباح لإعداد الإفطار ثم لإعداد طعام النهار ، أما الخادم الصغيرة فكانت من الإسكندرية ولم أكن قد رأيته من قبل ، وقلما كنت أجد القرصة للحدث إليها ، إلا حين تصحني ساعة خروجي بعد الظهر أسير على شاطئ البحر ، وفي تلك الساعة كانت تقص عليّ أنباء تافهة عن مخدوميا أصحاب الطابق الذي نقيم به ، ولم ير عنايتي من حديثها إلا إعجابها الذي لا حد له بجمال سيدتها ، وجمال أخت هذه السيدة التي تزوجت قبلها . ثم ظلت سنوات مع زوجها لم تنجب فطلقها لأنها لم ترض أن تشاركها فيه امرأة أخرى يرجو أن يرزق منها الخلف الصالح .

على أن هذه المسكينة المحسنة التي خفت بعض لوعتي لم تبلغ أن أنستني فادح مصابي ، ولا حجبت عني طيف المتوفاة العزيزة أذاقني موتها طعم اليتيم المرير . فقد كانت تتبدى لي في أحلامي ، وكنت أرى طيفها في شبه اليقظة وأنا أنظر من الدار إلى غاية الأفق وكأنها ترزوي إلى بعين ممثلة خناناً وعطفاً . وكثيراً ما كنت أناجى السماء عند هذا الأفق البعيد أسألهما : لم حرمني الله أمي وما جنت ذنباً ، بل كانت البر والرحمة بكل محتاج إلى البر وإلى الرحمة ! . .

وكنيت أعيد هذا السؤال على نفسي إذا تبدت لى أسمى فى أثناء النوم ،
ثم استيقظت بكرة الصباح دامعة العين منقبضة النفس ، واستبد بى هذا
السؤال أيامنا الأخيرة بالإسكندرية ، حتى كنت أخرج أحياناً من صلاتى
قبل أن أتمها مخافة أن يجزئنى الله بالتعرض لقضائه أو الاعتراض عليه ،
وكنيت فى بعض الأحيان أجمع بين يدى كل قوى ، وأمضى فى الاعتراض
على ما أراه ظلماً وقع بوالدنى وبى ، حتى إذا شعرت أننى أصبحت على
شفا جرف من هاوية التجديف ارتدبت فزعة أبكى ، وأنا لا أدرى : أكان
بكائى فرقاً من هول ما اجترحت فى حق ربى ، أم من هول المصائب الذى
أذبل صباى وشبابى ، وجعلنى أرى المستقبل أمامى أسود لا يبدد ظلمته خيط
من ضياء .

وأدت بى هذه الحال إلى إهمال بعض صلواتى ، وكنيت من قبل حريصة
على ألا يفوتنى فرض منها ، كما بدأ يخامرنى شيء من الشك فيما كان أستاذى
يلقيه على من دروس الديانة ! .

وعدنا إلى القاهرة لموعده بدء الدراسة فى المدرسة السنية ، فلما كنت
بين زميلائى ومعلمائى لم أجده بداً من العودة إلى العناية بمصلى المدرسة محافظة
على مكاتئى ، وانخرطت فى الدرس وضاعفت مذاكرة علومى فى البيت ،
ووجدت فى ذلك مسلاة عن همى ، وجاءت عمى من جديد فتولت تدبير
المنزل ، ثم أعفنتى المذاكرة من طول المكث معها ، واطردت حياتنا على هذه
الوتيرة زمناً كان والدى يسبغ على فى أثنائه أضعاف ما كان يسبغ على من قبل
من عطف وحنان . وأخذت عمى تدنينى منها ، فأنسانى مر الزمن ما سمعته

من خدم البيت عن حديثها مع أبي في أمر زواجه ، فلم تبق في نفسى من ناحيتها
تلفت نحيفة التي شعرت بها من قبل ، وتعددت حياة اليم وأخذت أشعر
بضرورة الاعتماد على نفسى في كل شأن من شئنى ، وبأنى مطالبة فوق
ذلك بالاشتراك مع عمى في تدبير شئوننا المترلية ، وبخاصة ما تعلق براحة
أبى في ملبسه وفى غرفة نومه . آلمة أن يجد فى عنايتى بأمره ما يصرفه عن
التفكير فى الزواج .

الفصل الثاني

أقبل شهر رمضان بعد أسابيع من بدء السنة الدراسية فاختار أبى فقيماً ندى الصوت ، أحبا لياليه مع الفقيه الذى ألفنا سماعه عندنا فى هذا الشهر المبارك ، فلما كان عيد الفطر خرجت مع والدى وعمتى وزرنا قبر والدق وذرفت عليه دموع سخينة ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر التى أحضرها والدى ، وبعد شهرين كان عيد الأضحى فزرنا القبر ككرة أخرى وسمعنا عنده من يرتل القرآن ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر ، وشعرت بدمعى أقل سخاء مما كان فى عيد الفطر ، وإن بقى قلبى يشعر بألم اليم شعوراً قاسياً عميقاً . وبعد أسبوعين علمت أن أبى سافر إلى الإسكندرية لأمر لم أعرفه ولم تطل غيبته هناك غير أسبوع ثم عاد إلينا وقد تزوج ! . .

تزوج السيدة الجميلة المطلقة شقيقة صاحبة الطابق الذى نزلنا به حين سافرت معه ، فلما دخل البيت معها نادانى وقال :

سلمى على « تيزة » . . ونظرت إليها فإذا هى جميلة هذا الجمال الشرسى البارع . . فارعة القد ، عالية العنق ، دعجاء العينين ، رقيقة البشرة ، دقيقة الأنف والشففتين ، يلفت جمالها النظر ويمسكه .

وسلمت عليها فى تأديب وبقيت هنية صامته ، ثم شعرت بأنى أطلت المقام فانفلت مسرعة إلى غرقى ، وقد أحسست بالعبرات تملأ عيني ، وخشيت

عنده القدرة على أن أحبس في صدرى نشيج البكاء ، وأغلقت باب الغرفة وانخوست في حزن صامت مخافة أن يسمع أبى صوتى . . ترى ما عسى أن يكن مصرى مع هذه السيدة الباردة الجمال ؟ . . وهل اصطعبنى والذى إلى الإسكندرية ليخطبها إلى نفسه وأنا عما صنع في جهل وعماية ؟ . . لا ريب أن عمى لن تلبث أن تغادرنا إلى قريتها وترك أمر البيت وتديره إلى الزوجة الجديدة التى حلت محل أمى ، وأصبحت ربة البيت ومن فيه ، وستغادرنا عمى بعد أن دبرت هذا الزواج مع أبى ، وبعد أن علمت به منذ عدنا من الإسكندرية . ثم كتمته عنى كل هذا الزمن .

وطال احتباسى في غرفى ولم يدعى أبى ولم تدعى زوجته للانضمام إليهما ، ولم تفكر عمى في الدخول على لمواساتى ، وأغلب الظن أنهم رأوا الخير في تركى أسلس العنان لعواطفى في هذه اللحظة الأولى ، تقديرا منهم لما أثاره هذا الموقف في نفسى من ذكر أمى وذكر مرضها وموتها ، لكننى لم أقدر الأمر على هذا التحرف في هذه اللحظة . فقد أيقنت أن العزلة أصبحت نصيبى ، وأن هذه الزوج الجديدة قد اختطفت أبى كما اختطف الموت أمى ، وأبى لم يبق لي إلا أن أعتمد برحمة الله وأنزل على حكم قضائه القاسى .

ولم يدربخاطرى أن زوج أبى لم تلبث بعد أن اطمانت إلى مكانها من بيتها الجديد أن قامت تدور في أرجائه لرسم في ذهنها صورته ، ولترسم بعلا ذلك أسباب تديره ، وإنتى لى مجلسى من غرفى وقد جف دمعى ، وإن ظلت عيناى محمرتين من أثر البكاء ، إذ فتح الباب ورأيت الأب والزوج والعمة يدخلون على . ثم يقول أبى موجهاً الكلام إلى :

أنت هنا يا ابنتي ! . . وسرعان ما أقبلت زوجه نحوي وأخذت تطرى نظام الغرفة وحسن ذوقى فى تنسيقها ، وكان صوتها رقيقاً فيه من الحنان الملم تتكلفه . فلما ان لهم أن يتركوا الغرفة أخذتني من يدي وأخذت تسألني عن شأني سؤال من يعنيه أمرى ويحرص على راحتي ، ونظرت إليها ألتمس مبلغ الصديق فى كلامها فسحرتنى جمالها ، وختلها ملاكاً كريماً بعث به السماء ليضمم جراحى ، ويأسوكلوم قلبي ! . .

وسرت إلى جانبها وهى ممسكة بيدي ، فلما كنا فى البهو ، وأخذنا مجالسنا منه رأيتها تفتح حقيبة ، وتخرج منها عقداً جميلاً تثبته حول عنقى ، ثم تخرج من حقيبة يدها مرآتها الصغيرة ، لأنظر جمال العقد على صدرى ، ونظرت فى المرأة فأعجبني العقد وكان أول مصاغ تحليت به من نوعه ، وأدرت عيني إلى ناحية أبى فإذا على ثغره ابتسامة راضية ، تشهد باغتنباطه لما يرى ! . .

غادرتنا عمتى بعد ثلاثة أيام إلى قريبها . وانخرطت أنا فى نشاطى المدرسى وفى الدروس الخاصة التى كنت ألتقهاها فى اللغة العربية وفى الديانة ، وأنا أحسب أن شيئاً ما لم يتغير فى حياتى المتزلية . . ترى هل كان للجمال البارع الذى اختصت به زوج أبى أثر فى هذا الحسبان ؟ . . فقد نمحطت الثلاثين وكانت فى

نظرتها مع ذلك براعة الطفولة ، وفى ضحكها سداجة الصبا الذى تفتح عنه هذه الطفولة ، وكانت قسماً محياها كأثما صورها فنان أدق تصوير مرّ بخياله . وكان شعرها الناعم الفاحم المنسلل على كتفها خير إطار يزيد حديث عيونها بلاغة ، وجمال قسماتها روعة وسحراً ، وكان قوامها بهجة للنظر باعتداله ودقته ، وكان كل شئء فيها يقف الناظر إليها مسبحة بقدره الخالق

الذى أبدع هذه الفتنة الباهرة ، وكانت حركاتها وسكناتها طبيعية وتبدو مع ذلك ، وكأنما درست بعناية لم تذر للمصادفة حظاً في شيء منها ، وكنت كلما رأيتها مسحوت بها وازددت إيماناً بالله بارئها وشعرت بأن لجمالها من السلطان على جناني ما كان لحنان الأم الروم من السلطان على وجودي كله ! . . .

تنصفت السنة الدراسية ثم قاربت نهايتها وأنا منكبة أشد الانكباب على دروسي : والذى يحضر كعادته درسي الخاص مع الشيخ موضع ثقته ، وإنني لذلك إذ مرضت وانقطعت عن المدرسة قرابة عشرة أيام ، فلما أبليت وأردت الإقبال على الدرس ، لأستعيض ما فاتني في أثناء علاتي ، دعاني والدي إليه وقال لي :

« لقد رأيت يا ابنتي خوفاً على صحتك أن تقطعي عن المدرسة ولا تنهني إليها منذ غد » .

ولم يكن لي عهد بأن أناقش قراراً أتخذه ، فخرجت من عنده وآويت إلى غرقي وقد عرتني الدهشة . صحيح أنني كنت أسمع زوج أبي تبدى من البرم بتعليم البنات الشيء الكثير ، وتذكر أن البنت خلقت للبيت وللأمومة ، لا لممارسة الأعمال والوظائف الحكومية ، وأن الخير لذلك كل الخير في أن تتدرب منذ صباها الباكر ، لتتقن ما ستقوم به في مستقبل حياتها .

لكني لم أكن أعير حديثها في هذا الشأن بالاً ، لأنني كنت أعلم أن أبي على غير هذا الرأي ، وأنه يرى أن تعلم الفتاة تعليماً عالياً بعض ما يجب

لكمال وجودها الإنساني ، واحتياطاً لمستقبلها حتى يكون لها فيه من الحرية ما يرفع عنها ذلة العبودية للرجل ، أياً كان مصدر هذه الذلة . فإذا حدث ؟ ما الذي دفع والدي ليلغني هذا القرار ولم أبلغ بعد من التعليم غاية مرحلته الثانوية ؟ . . وهل للمرأة من الأثر على الرجل ، وإن كان حصيفاً حصافة أبي ، أن تبدل تفكيره كما تشاء ؟ . . أم أن السلطان كان لهذا الجمال الساحر الذي اختصت به زوج أبي ؟ . . أياً كان الأمر لقد أيقنت من اللهجة التي أبلغ بها هذا القرار إلى أنه قرار مبرم ، لا رجعة فيه .

وكان لهذا القرار أسوأ الأثر في حياتي ، فقد أنشأ عندي عقدة نفسية لازمتني ولم أنج قط منها . وقد كان الأثر الأول لقرار أبي أن بدأت أعرف ما كنت أجهل ، بدأت أعرف الكراهية وكان قلبي لا يعرف غير الحب ، كنت أحب الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكنت أحب الطبيعة وفتنة جمالها ، وكنت أحب الحيوان والطير ، وكنت أحب الحياة ونعمتها حباً جماً . ذلك بأنني لم أشعر منذ ولدت بما يزهديني في الحياة . بل كان المتاع بها وبكل ما فيها بعض حظي . لقد كنت وحيدة بين أمي وأبي . وكانا يفيضان عليّ من حنانهما وبرهما ، ما يجعل الهواء الذي أتنفسه كله الحنان والرحمة وكله المحبة والود . وكله نيمات السحر وبسات الزهر وأغاريد الطير والشذا المتصوّر بأرق العواطف وأحلاها . لكنني ما لبثت حين سمعت هذا القرار يبلغه إلى أبي أن شعرت بأن زوجة صاحبة الوحي به . وأن ما أسمعته عن زوج الأب وبرمها بأبناء زوجها صحيح . وشعرت لذلك بهذه العاطفة الكريهة عاطفة الكراهية تنلس إلى قلبي وتجعد منه مكاناً لم يكن لها من قبل فيه موضع .

وعجبت كيف يتطوى هذا الجمال الفاتن الذى صوره الله فى هيئة هذه المرأة على روح خبيثة كل هذا الخبث . وكيف تسر هذه النظرات البريئة قلباً آثماً كل هذا الإثم . وأيقنت فى قرارة نفسى أن برمها بتعليم البنات لم يكن رايًا تؤمن به وتبديه . بل كانت البنات أنا . وكانت برمة بتعليمي أنا ولهذا لجأت إلى كل وسائلها وكل حباثلها وكل شباكها فانتشرت بسلطان جمالها فى دخیلة أبى وحملته على أن يتخذ قراره فيحرمنى نعمة كانت للبنى وسلوى . وكانت صارقى عن أن أرى ما فى الحياة من قبح وسخف ! . .

وأخذت أفكر كيف أقاوم ما قررا ، ولم يكن الذهاب إلى المدرسة سبيل بطبيعة الحال إلى هذه المقاومة ، فأنا لم أكن أذهب إليها وحدى ، بل كان يصحبني فى ذهابي إليها وأوبى منها يوابنا العجوز ، كما أننى لم أستطيع أن أعلن هذا العصيان الصريح ، وأنا موقنة أن ثورتي لن تلبث أن تتحطم ، ولن يكون من أثرها إلا أن يغضب منى والدى وتشتت زوجه بى ، ولذلك قررت أن أقضى معظم وقتي فى قراءة ما أستطيع قراءته من كتب عربية وإنجليزية أستطيع الحصول عليها بوسائلى ، ولم أجرؤ يومئذ أن أشتير أحداً فيما أقرؤه ، فكنت أقرأ كل ما يقع فى يدي ، صالحاً كان أو طالحاً ، نافعاً كان أو ضاراً .

وبدأت زوج أبى تشغل نهارى بما سمته إعدادى لحياتى المقبلة ، فأخذت تعلمنى التطريز والخياطة والطهى وما إلى ذلك مما يتصل فى نظرها بتدبير المنزل . فهى لم تكن تعرف القراءة والكتابة ، لكنها كانت تجيد هذه الأعمال كما كانت تجيد العناية بجمالها كل الإجابة ، لذلك كان إشرافها على نظام

المتزل وحسن تدييره وعلى كل ما نأكل ونشرب بالغاً غاية الدقة ، صحيح أنها لم تكن تبأشر من ذلك شيئاً بنفسها ، لكن نظرتها إلى ما يجري في المطبخ أو في الكرار وإلى ترتيب الأثاث وحسن تنسيقه وما تبديه في هذه الشئون من نقد وما تصدره من أوامر ، ذلك كان كافياً لجعل عيون الخدم في رؤسهم فلا يملون شيئاً ولا يغلون واجباً . وهي لم تكن مسرفة ولم تكن مقترّة ، وكانت تعرف كيف تضع كل شيء في محله ، لذلك أسرع إلى كسب ثقة أبي كما كسب جمالها ناظره وقلبه وعواطفه منذ اللحظة الأولى .

أما أنا فلم أكن شديدة الإقبال على ما تعلمني من شئون المنزل ، أكان ذلك رغبة مني عن هذه الشئون ، أم كان لأنها هي التي تعلمني إياها ! . . . وقد خلق انقطاعي عن المدرسة جفوة بيني وبينها جعل كل ما تقوله لي أو تريدني أن أتعلمه موضع الريبة عندي ، وأقبل والدي يوماً يوجه إليّ لوماً رقيقاً على ما يبدو من عدم إقبالى ، وينصح لي في لطف أن أقدر عناية زوجة بي وحرصها على مستقبلى ، فازددت بسبب ملاحظته نفوراً من زوجة ، إذ شعرت أنها تريد أن تصرف عني محبته لتستأثر وحدها بكل قلبه ، وذكرت له أنني ربما ازدددت إقبالا على هذه الشئون ، لو تعلمتها في مدرسة ، فابتسم ابتسامة ذات معنى وتركني وشأني ، إذ أدرك أنني أريد أن أبتعد عن البيت وربته جهد المستطاع .

وخيل إليّ بعد زمن أنني وجدت الوسيلة لما أريد ، فذكرت لأبي بحضور زوجة أن المرحومة والدي ، كانت تود لو تعلمت البيانو ، ذكرت ذلك وكنت مقتنعة بأن امرأة والدي ستعارضه ، ولشد ما كانت دهشتي إذ رأيتها تقول :

كلامك هذا معقول يا عزيزي ، فكل فتاة مهذبة لا تعرف اليوم أن تلعب
بحدى آلات الطرب ينقصها شيء جوهرى لحياتها الزوجية ، ثم أشارت إلى
وندى قائلة :

ومن الخير أن تشتري لها البيانو ، منذ الآن فهو بعض جهازها ، ومتى جىء
به إلى البيت جاءت معلمته تدرسه إلى بيتنا .
ونظرت إلى أبي مبتسماً وهز رأسه كأنما يعاتبني على ما يدور بخاطري من
ظنون بزوجه . وكأنما يقول لي :

إن روحها جميلة جمال شخصها ، وإنها تحبني حباً لابنة أحشائها .
وجاوبت ابتسامته بابتسامة مثلها شكراً له على عطفه وانتظاراً للبيانو الذي
كنت أحلم به .

وكان حقاً على أن أشكر زوج أبي لتأييدها طلبي ، لكنني لم أفعل ،
فقد كنت أريد أن أتخذ من تعلم البيانو فرصة للفرار من جو المنزل ، أما أن
تجيء معلمة البيانو إليه فقد أصبحت دروسه تحت سمع امرأة أبي وبصرها ،
وهذا السمع والبصر يضيقان على الفرصة التي كنت أطمع في انتهازها ،
ولم أكن أستطيع أن أعبر عما يخالج خاطري من ذلك مخافة أن يساء تأويله ،
وما أغثنى عن سوء التأويل ، وحسبي أن صديقتي وزميلتي التي كانت تقيم
على مقربة منا كانت تكثر الردد على ، وكان يسمح لي برد بعض زيارتها .
واشتري والدي البيانو ، وجاءت معلمته فأكسبت على استذكار دروسه ،
إكبابي على قراءة كتيبي ، بذلك شغلت معظم وقتي ولم يبق فيه لتدبير المنزل
في صحبة زوج أبي ما يثقل على نفسي أو تنوء به روحي ، ومع ذلك بقيت

الحيرة تتولاني كلما خلوت هنية إلى نفسي ، وأشعر كآتي غريبة في هذا المنزل الذي ولدت به ، والذي أعيش فيه مع أبي ، وكأن روحاً آخر يرفرف من وراء الحجب ، يريد أن يطمئن عليّ ، وعلى أنني لا أنوء بألم الحياة .

وكان أبي يشاركني الحيرة ، وإن كانت حيرته من نوع آخر ! . . لقد كان يسبقني إلى رغباتي ، فلم أكن أطلب شيئاً إلا أجاوبني إليه ، وأضاف إلى ما طلبت ما يظنه يزيد في غبطتي ، وكان يرى زوجه تشاركه في العمل على إرضائي ، ثم يراني برغم ذلك قليلة الابتسام ميالة إلى العزلة ، يبدو عليّ دائماً أن شيئاً ينقصني ، وأنتي غير مستريحة لما أنا فيه ، وكان من حقه والأمر كذلك ألا يعبأ باعتزالي ، لكنه مع ذلك يحاول دائماً أن يبلغ مرضاتي ، على حين كانت زوجه ترى في تصرفه من المبالغة في تدليلي ما لا يتفق مع حسن تربيتي .

ولقد طالما ذكرت تلك الأيام ، بعد أن تزوجت وصرت أمّاً ، وطالما سألت نفسي : أكنت متعجبة في حيرتي وفي عزلي وفي عدم رضاي ، فلم يكن ينقصني يومذاك شيء ، ولم تكن زوج أبي تسيئني بكلمة ، وكان جوابي عن هذا التساؤل هو الجواب الطبيعي . فسعادتنا لا تتعلق بحاجتنا المادية بقدر ما تتعلق بحالتنا النفسية وبإحساسنا وعواطفنا ، ولئن جرت في شأن امرأة الأب الأقاويل ، لحق أن زوج أبي لم تتعمد يوماً أن تجرح عواطفني ، أو أن تمنع عني خيراً ، بل لقد كنت أرى والدتي قبل مرضها ووفاتها توجه إليّ من ألوان النقد ما لم توجهه إلى زوج أبي .

لكن النقد الذي كانت توجهه إليّ أُمّي ، والذي كان يغضبني أحياناً ،

كان صادراً من أمي . كان الدواء الذي لا نسيخ طعمه أحياناً ولكننا نرى فيه الشفاء ، فإذا لم تؤمن بأن فيه الشفاء فلا ريب عندنا في أنه صادر من قلب سليم . وإخلاص صادق لخيرنا ، بل لا ريب عندنا في أن الحنان المتفجر من أعماق القلب البر العطوف ، قلب الأم ، يحو كل ما في هذا الكلام من شائبة تكدر صفونا . وهل الأم كلها ؛ وكل ما يصدر عنها ؛ إلا حنان وبر وعطف وإيثار لبنيها على نفسها ؟ وهل الأم وما أنجبت إلا شجرة واحدة تشعب فروعها ؛ وكل ما ينمته الجذع من أسباب الحياة إنما ينمته لحساب هذه الفروع وليهاؤها ونعائها وحسن إثمارها ؟ ألا تدل قوانين الوراثة على أن الأسرة وحدة متصلة على الزمن ؛ وأن عصارة الحياة في عروق الأجداد تمتد إلى أحفاد الأحفاد ، وقلب الأم يعرف نفسه ولا يفرح لصاحبه أو يأسى لما يصيبها وإنما فرحه لابنها أولادها وأساه لما يصيبهم . والأم تجمع إلى قلبها قلب الأب لتسكبه حناناً ومحبة وبراً في روح ذريتها ، هذا كله تراث معنوي ضخم هو مصدر طماننتنا للحياة وسعادتنا فيها . . .

أما زوج الأب فشخص مستقل عنا كاستقلالنا عنه . تتضارب مصالحه مع مصالحنا ، ويموله مع ميولنا . وهي تنافسنا في كسب قلب أبنائنا زوجها . قد تنشأ بيننا وبينها صداقة . ولكن محال أن يربط الحب الصادق بين قلبها وقلبتنا . وأنى لها حب الوالدين لأبنائهما وإن بلغت من طيبة القلب وصفاء النفس أعظم مبلغ ؟ . أذكر قصة طريفة تصور في سخرية عاطفة الأمومة وكيف تسمو بفطرتها على العقل ومنطقه . فقد كان لواحد من أقارب أبي زوجتان أنجبنا في عام واحد ولداً وبتناً ، وكبر الطفلان ، وكان للولد غرام بأن بعض

بأسنانه من يناوشه ، وتأتصلت هذه العادة فيه ، فكان يلجأ إليها من غير أن يناوشه أحد . وإن أخته لتجلس إلى جانبه يوماً إذ بدا له أن يعضها ففرت منه إلى أمها . وحمّتها أمها من أخيها فبكى وأمعن في البكاء ، وعرفت أمه سبب بكائه فصاحت بضرتها : « ألا تشفقين على هذا الطفل ؟ . وما ضر أخته إذا هو عضها واستراح وانصرف عن البكاء ؟ . . » .

فأجابت أم الطفلة :

« أتريدين أن يسيّرح هو ، وأن تبكى أخته لغير ذنب جنت ؟ . فليكن وليتفلق من البكاء فلن أريح شذوذه . ! »

وتبادلت الضرتان ما شاءت الشحنة أن تتبادلاه من عبارات أوحى بها لكل واحدة منهما أومئها ، ألا يدل ما في هذا الحادث من سخرية وسخف على احتقار نظرة الأمومة لكل منطلق ؟ . . أولو كان الطفلان توأمين لأم واحدة ، أفكانت تحاول أن تريح شهوة الولد على حساب البنت ، أو أن تدع الولد يمعن في بكائه ولو انفلق ؟ . . أم كانت تجد في حنان أومئها ما يسكن الطفل عن غضبه وما يصلح بينه وبين أخته من غير أن يعضها ؟ . ! .

ولا ذنب على زوج الأب فيما تهمها به الأقاويل ، فالأقاويل تريدنا أن تكون لغير بنينا ، وهي لا تستطيع ذلك وإن حاولته ولا وزر في ذلك عليها ، إنما الوزر على الرجل الذي تزوج بعدما أُنجب بنين ، سواء تزوج في حياة زوجه الأولى أو بعد وفاتها . وما حاجة الرجال إلى الزواج بعد أن يصبحو آباء ؟ ! إن نساء كثيرات يكرسن حياتهن لتربية ذريتين . وحق على كل امرأة وكل رجل أن يكون ذلك شأنه .

لست أدري لم أنزع الساعة للدفاع عن امرأة الأب بعد الذى كنت فيه من حيرة وعزلة وعدم رضا منذ تزوج أبى إثر وفاة أمى ، فلأدع هذا ولأعد إلى قصتى . لقد انقضت الشهور منذ اشترى والدى لى البيانومند عكفت نهارى على استذكار دروسه عكوفاً أنسانى شئون المنزل ، وكيف تكون العناية بتدبيره ، مع ذلك بقيت أشعر بالوحدة والعزلة برغم عطف أبى وحنانه ، ولقد زاد فى شعورى هذا حادث لم أكن أحسب أنه سيرتك فى نفسى أثراً ، فقد كان طبيب من كبار الأطباء المتخصصين فى أمراض النساء يتردد على المنزل ويعود زوج أبى ، وقد كان أول أمره لا يبدو عليه حين انصرافه ما يدل على جديد ، واستمر كذلك شهوراً حتى رأيت يوماً متهللاً ، ورأيت والدى يودعه إلى الباب الخارجى وعلى ثغره ابتسامة عريضة تم عن مسرته واغتيابه . وسرعان ما علمت أن زوج أبى حامل ، وذكرت لسماع هذا التبا حديث عمتى لأبى بعد قليل من وفاة أمى تحرضه على الزواج ، لينجب الخلف الصالح ، وليكون له بنون يحفظون له اسمه وذكره . عما قريب إذن سيشركنى فى عطف أبى طفل يستأثر بقلب أمه وبكل روحها وجودها .

أتراى يومئذ أحب هذا الطفل كما لو كان ابن أبى وأمى ؟ . . وماذا يكون موقف أمه منى ؟ . . لعل لم أبلغ من تحليل الموقف ما يحول الآن بخاطرى ! . . ولكنى ازدددت إكباباً على البيانونهاراً ، وعلى القراءة ليلاً ، ولم ألتى بالا لما بدا على زوج أبى من أعراض كانت تلزمها سريرها أحياناً ، وتدعوها لتكليف بمراقبة ما يدور فى المنزل . أما أبى فقد ازداد حديقاً على زوجه ورعاية لها ، وجعل يدعو الطبيب ليراها كل أسبوع أو أسبوعين مبالغة فى العناية بها ،

وبالطفل المستكن في أحشائها ، وكان الطبيب يستصحب في بعض زيارته طبيباً شاباً يعاونه في قياس الضغط ، أو في إجراء بعض تحاليل سريعة يرى الطبيب المباشر أنه في حاجة للوقوف على نتائجها لوقته .

وكان هذا الطبيب الشاب وسماً دقيق العناية . بهندامه ، وفي عينيه بريق خاص ينم عن الذكاء والطبية مجتمعين . وقد كان يسرع بالدخول مع الطبيب الكبير إلى غرفة الحامل ، فكان قصاراي أن ألمح من وراء حجاب ساعة دخوله وخروجه . وكانت نظراته وحركاته تجعلني أغتبط بما أرى منه ، وأود لو أستطيع التعرف إليه . أما هو فكان في شغل عني بما يوكل إليه إجراؤه في أثناء الزيارة ، فإذا انصرف مع الطبيب الكبير المتخصص في أمراض النساء تابعته بنظري من نافذة عرقى .

ولم يكن لي سبيل إلى التعرف إليه ، والحجاب المضروب على النساء كان يومئذ على أشده ، فلم يكن يتاح لواحدة من بنات طبقتنا أن تقف مع رجل أو تتحدث إليه أبداً كانت سنه . بل لقد كانت الفتاة تخطب إلى شاب لم تعرفه ولم تره ، ويكون القول الفصل في زواجها منه لأنها ولأبيها ، وكان العار أكبر العار أن يكون لها في الأمر رأي ، أو تكون لها فيه كلمة .

واقضت مدة الحمل ، ووضعت زوج أبى غلاماً جميلاً ابتهج والذي بمولده ، وفاض عنه السرور به ، وجاءت أخت زوج أبى وأقامت لها حفل « سبوع » منقطع النظير ، بدأت أشعر نحو هذا الطفل البريء بعاطفة الأخوة التي لم أعرفها من قبل . فلما صلب عوده وأصبح مستطاعاً حملة كنت آخذة من مربيته وأضعه في العربة في بهو الطابق الأول ، كما كنت

أجد في الترويل به إلى الحديقة خير تسليية ، حتى لقد كانت هذه التسليية تصرفني إلى حد كبير عن استذكار دروس البيانو.

وتوكل الطفل فجن جنون أمه ، وأسرعت إلى استدعاء الطبيب الشاب الذي عرفته أيام حملها . وفحص الطبيب الطفل وطمأن أمه وأباه وأخذ يحدثهما عما يجب من رعاية « لولي العهد » ، ورغبت الأم أن أسمع كلام الطبيب اقتناعاً منها بأنني أقدر من المربية على العناية بالطفل . ولم يجد أبي بأساً بدعوى ، فلو أنني مرضت لعادني هذا الطبيب وأنا في فراشي ، فلما ناداني وعرفت أن الطبيب لا يزال في غرفة الطفل شعرت بقلبي يخفق ، ثم هدأت نفسي إذ وجدت القرصة سائحة لما كنت أطمع فيه من التعرف إلى هذا الشاب الذي كان يكبرني بعشر سنوات أو نحوها ومن محادثته ، واستمعت إليه يصف الدواء ، فأخذت أسأله عن تفاصيل طعام الطفل وشرابه ونومه واستحمامه ، وسرت زوج أبي بما بدا من عنايتي بابننا فنظرت إلى الطبيب نظرة استعطاف وقالت :

لا تؤاخذها يادكتور ، فهي تحب أختها أصدق الحب ، وهي تتولى الكثير من شؤنه .

وودع الطبيب دواء بسيطاً وقال إنه سيعود بعد ثلاثة أيام ليطمئن على صحة الطفل وعلى أثر الدواء . وعينت أنا خلال هذه الأيام الثلاثة بتنفيذ أوامره في شأن الطفل بدقة أثارت إعجاب أمه ، ومسرة أبي ، وكنت أنتظر اليوم الثالث بصبر نافذ ، وبخاصة لأنني رأيت الطفل قد زالت وعكته وعادوته الانسامة البريئة الملائكية التي تجعل الأطفال جميعاً أحباب الله ، وتجعل

هذا الطفل الجميل ملاكاً يشع منه نور يسعد كل من حوله .

وجاء اليوم الثالث وجاء الطبيب ورأى الطفل وأبدى اغتباطه بشافته .
ولم ترض على زوج أبى بشهادة طيبة ، إذ قالت إبنى أنا التى بذلت كل
العناية فى تنفيذ العلاج ، وأدار الطبيب الشاب نظره إلى وقال : يظهر أن
للآنسة غراماً بالطب ، أم أن حبها لأخيها وعاطفتها الرقيقة نحوه كانا أشد
أثراً من الدواء فى سرعة برئه . وأنا مع ذلك سأعود بعد أسبوع لأزداد
اطمئناناً على صحته ، فالأطفال فى سن التسنين معرضون لوعكات لا خطر
منها ولكنها تزعجهم وتزعج أمهاتهم أحياناً ! . .

وجعل الطبيب يعود الطفل بعد ذلك كل أسبوع ، وجعلت أنا أزداد
بهذا الأخ الصغير الجميل عناية وله حباً . أفكانت عاطفة الأخوة وحدها
مبعث هذه العناية ؟ . . أم كان مبعثها فطرة الأمومة التى تتحرك فى أحشاء كل
شابة لمراى طفل جميل ولاجتلاء ابتسامته ولا اتصال جسمه بجسمها ؟ . .
أم ترى كان لهذا الطبيب وزياراته المتعاقبة أثر فى هذه العناية ؟ . . يصعب
على أن أبدى حتى اليوم رأياً فى الأمر ، ولعل هذه الدوافع جميعاً كانت ذات
أثر فيه ، ولكن الذى أذكره أدق الذكر أننى برغم ما شعرت به نحو هذا
الطبيب من جاذبية ، وما كنت أجده فى حديثه من متعة ، كنت شديدة
الحرص على أن لا تبدر منى بادرة تكشف عما فى نفسى ، بل كنت أبلو أشد
حرصاً على أن أثير إعجابه وتقديره لعنايتى بأخى منى على أن أكشف له عن
عواطفى ! . .

فقد سمعت أن إحدى زميلاتي فى المدرسة أحبت شاباً نابهاً وعرضت نفسها

عليه ليتزوجها فرغب عنها وخطب غيرها ، فلما تمت الخطبة حاولت هذه الزمينة الانتحار ، وإن كبرياتي لتسموين عن أن أعرض نفسي على كائن من كان . بل إنني لأشعر بأن الحب إذا انحدر بصاحبه ، رجلاً كان أو امرأة ، إلى هذه الميزة كان ضعفاً يجب أن تنتزه عنه كل نفس مهذبة .

وقد استأثر أخي الطفل بقلب أمه وب عقلها وبكل وجودها ، فلم تكن ترى في محيطها غيره ولم تكن تسمع غير صوته . لقد كنت أراها جالسة إلى أبي يتحدث إليها وتسمع هي إليه ، ثم أراها تندفع قائمة نحو غرفة الطفل تقول :

إنه يبكي ! . . .

هذا ولم يكن أيتا سمع بكاءه ، ونجى به وقد حملته إلى صدرها وقلبها فإذا الدموع بالفعل في عينيه ، وإذا هوحاً كان يبكي في صمت لا يسمعه إلا قلب الأم ، ولم يكن أبي يسمع هذا البكاء الصامت ، ولكنه لم يكن لذلك أقل إقبالا على الطفل وإعزازاً له من أمه ، كنت أرى هذا الرجل الرزين الحصيف يدخل إلى البيت وفي يده غير مرة في الأسبوع لعبة من لعب الأطفال ممن هم في مثل سن أخي ، وكان يجد متاعاً بل سعادة كلما رأى الطفل يتسم أو سمعه يضحك ، وكان الوالدان يزدادان للطفل حباً كلما تقدم نموه . فلما استطاع أن يقف على قدميه ليمشي كانت حركاتها لتشجيعه تثير الضحك ، لكنني لم أضحك لأتني كنت أحب أخي كما كانا يحبان ، وكنت سعيدة كسعادتهما ! . . .

وشغل « ولي العهد » خدم البيت كما شغل سادته ، فلم تكن مريته

وحدها تلحظ حركاته وسكناته بعطف وعناية ، بل كانت كل واحدة من الخدم تود لو استطاعت أن تخدم سيدها « اليه الصغير » ، لتسعد بهذه الخدمة ، ولتنال بها حظوة عند أمه وأبيه وأخته ، ولست أبالغ حين أذكر أن الكل كانوا يسعدون لعنايتهم بهذا الطفل البريء الذكي الجميل ، وكانت أمه مع ذلك تخاف عليه من خياله ، فإذا سقط على الأرض وهو يمشي أقامت الدنيا وأقعدتها ، وإذا صاح لأن أحداً أخذ منه شيئاً مخافة تلفه صاحت لصياحه وأثارت في البيت ضجة كأن حادثاً خطيراً حدث ، ولم يكن أبى يلومها على شيء من ذلك أو يسدى إليها النصيحة لخير الطفل ، بل كان يماريها في غضبها ورضائها ، لأنه كان لا يرى إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها ، ولا يعرف في الحياة منطقاً غير منطقها .

بدأت برغم حبي لأخي أضيّق ذرعاً بهذه المبالغات وأشعر أني أصبحت من رعاية أبى في المحل الثالث لا في المحل الثاني ، وأن أخي وأمه مفضلان عليّ عنده ، فازداد برمي بزواج أبى ، وأحسست أن البيت على سعته يضيق بي ، وكنت قد تجاوزت إذ ذاك السابعة عشرة من سنّ حياتي ، وكانت صديقتي التي تعيش مع أبيها على مقربة من بيتنا قد خطبت إلى شاب موظف في الحكومة أثني عليه أبى غير مرة أمامي .

قلت في نفسي : أولاً يكتب لي الحظ ما كتب لها فأنقل إلى بيتي أنا بدل أن أبني حبيسة مع امرأة أبى !؟ وتصورت يوماً قريباً يكون لي فيه طفل كأخي أسبغ عليه من حبي ومن قلبي ومن عنايتي ورعايتي كل ما يحتويه قلب الأم من بر وحنان .

ساورتني هذه الأحلام واشتد أخذها بخناق حين اشتدت لطفة زوج أبي على ابنها الطفل حتى جعلت تلومني على ما سمتة عدم عنايتي به . وهي قد زادت في التريب على منذ رأيتي عدت أستاذة دروسي على اليانو وأقضى وقتاً غير قليل أمامه ، فقد كنت أهملت هذه المذاكرة شهوراً عدة لفرط اشتغالي بأخي ، فلما رأيت مخاوف أمه ولطفها عليه وتعلق أبيه به أخذت أعود إلى دروسي أتسلى بها عن هذا الشعور الذي استبد بي ، وجعلني أشعر أنني صرت من رعاية أبي في المحل الثالث . ولئن حرّ هذا الشعور في نفسي لقد دعاني من بعد إلى أن أتساءل :

تري لو أن أمي لم تمت وأنجبت غلاماً كما أنجبت زوج أبي ، أكانت الرعاية الأبوية تنصرف إليه عني ، كما انصرفت إلى أخي من غير أمي ؟ . أم كنا نعيش أسرة واحدة يجرى في عروقها دم واحد هو ماء الحياة الذي يمتصه جذع الشجرة ليبعث منه إلى فروعها البهاء والنماء والحيوية المترعة بمعاني النعمة والسعادة ؟ فأين نحن الآن من هذا الوضع ؟ إن الفرنسيين يعبرون عن الأخ أو الأخت لأب ، وعن الأخ والأخت لأم أنه نصف أخ ، أو أنها نصف أخت ، وقد يكون لهذا التصنيف المادى ما يسوغه ، ولكني أحسب أن للتعبير الفرنسي معنى أعمق من ذلك بكثير ، معنى يتناول الجانب العاطفى في صلات الأسرة وأفرادها بعضهم ببعض ، فصلة الأم بأبنائها صلة مباشرة ، هم من دمها ولحمها ، ومن قلبها وروحها ، ومن أعماق وجودها . أما صلة الأب بالأبناء فصلة بالواسطة . والأم هي هذه الواسطة ، فإذا كان له أبناء لأكثر من أم تأثرت عواطفه لأبناء كل أم بمبلغ ما بينه وبين الأم من مودة ،

وإن اختلف هذا الأثر في نفس أب عنه في نفس أب آخر ، هذا إذا كانت الأمهات جميعاً أحياء .

أما في مثل حالنا حين تكون أم حية وأخرى قد انتقلت إلى جوار الله ، فذكرى المتوفاة تقوم في نفس الأب مقامها ، وإن كان الحاضر أفعالاً أثراً من الغائب . وأبى كان يحب أمى أشد الحب ، وهو اليوم يحب زوجه أشد الحب . ولا يستطيع الحاضر أن يحجب الماضي وإن استطاع أن يتغلب عليه ، ولطفولة أخى ولجمال أمه أثر في هذا الغلب .

ولعل لو أتيت لي من الحظ ما أتيت لصديقتى التى تقيم مع أبويها قريباً منا فخطبت ثم تزوجت لاسرردت رعاية أبى كاملة ، ولتخلصت من لوم زوجه إياى وثريها على .

وفيا تساورنى أحلامى عاودت الوعكة أخى ودعى الطبيب الشاب لعيادته ، فلما رآنى أخذ يسألنى عنه ثم يسألنى عن نفسى ، وكان هذا الطبيب هو الشاب الوحيد المثقف الذى أتيت لي أن أتحدث إليه غير الشباب من ذوى قرباى وأبناء أسرئى ، ولم يكن واحد من هؤلاء يطمع في يدى لأنهم كانوا ينظرون لأبى على أنه أكبر مقاماً وأوسع ثروة وأعرض جاهاً من آبائهم جميعاً ، ولم أكن أشعر نحو أحد منهم بمحبة ولا بمجاذبية خاصة ، ولذلك كنت أتمنى لو أن هذا الطبيب خطبني إلى أبى ، ولو أن أبى قبل هذه الخطبة وبشرنى بها ! .. ومن يومئذ جعلت أخلق لنفسى منه تمثال المحبوب العزيز الذى أتمناه لنفسى .

وكان أشد ما جذبني إليه ما تم عنه نظراته من طيبة قلبه ورقة شعوره ، وهو قد بلغ من ذلك مبلغاً غير مألوف ، كان برغم أنه طبيب ، يتحدث عن

مرض أخى وندمعة تفرق في عينيه . وكان إذا قص على والدى نبأ من الأبناء بدا عليه التأثير لكل مصاب أو محزون . وكان إلى ذلك مجباً للحياة ومتاعها . تبدو عليه آثار اليسار والنعمة . كانت السيارات في ذلك العهد مركباً نادراً . وكانت له مع ذلك سيارة أنيقة بسر العین مرآها ، أما وذلك شأنه فلا بد أن يكون خلقه وضياً وأن تكون الحياة معه حياة طمأنينة ونعمة وسعادة ! . .

وجاء يوماً يعود أخى . وكان والدی قد استدعى إلى العزبة على عجل . فلما أتم فحصه . وبدأ يكسب تذكرة الدواء أخذ يتحدث إلى فيما يجب للعناية به . وقبل أن يتم حديثه نهض فنهضت معه وسرت إلى جانبه وأخذ يكمل حديثه ونحن على السلم في طريقنا إلى الطابق الأرضى . وبعد عدة درجات هبطناها على السلم قال :

- اسمعى يا آمنة ! . . إننى فكرت أن أخطبك إلى أبيك ، لكننى رأيت ألا أفعل ما لم تكونى أنت موافقة على ذلك .

فألقيت ببصرى إلى الأرض ، واحمرت وجنتاى خجلاً ، وقلت فى شيء من الكبرياء :

ليس ذلك شأنى ولكنه شأن أبى .

وكان تعليقه على عبارتى : يكفينى هذا منك ، وأنا أشكرك أجزل

الشكر .

وعدت مسرعة إلى غرفة أخى مخافة أن تظن أمه بى الفنون ، وأخبرتها أن الطبيب ذكر أن ما به ليس إلا سوء هضم بسيط سرعان ما يزول أثره ،

وبعد أن طمأنها أويت إلى غرقى وجعلت أركز في ذهني ما سمعته عن خطبتي من أبي ، وأخذت أسائل نفسي أحسنت أم أسأت في إجابتي . وأمنى نفسي الأمانى للمستقبل ، وأرقب عود أبي من العزبة بصبر نافذ ، أفلا يجب أن أذكر له ما حدث أول ما أراه ؟ ! . . . وهب الطيب عدل فلم يخطبني إليه ولم يذكر شيئاً ! . . . وأقمت زمناً أضرب أحساساً لأسداس وأبنى قصوراً في الهواء . . . ولا جن الليل جفا النوم عني وأنا بين الأمل الواسع الفسح أقيم في قصوره بعد أن أنظمتها على هواي ، وبين الخوف أن يفلت مني هذا الأمل فلا أفوز منه بسراب .

وارتسمت أمامي صورة الطيب الشاب كما أرادها خيالي ، وشعرت لمأها بأن قلبي ينبض بعاطفة كانت مستكنة فيه ، وكان الحياء والكبرياء يأيان عليها أن تبرز إلى الوجود ، أما الآن وأنا في دثار من جنة الليل وحمائنه فقد تجسم الحب في قلبي وانتقل منه إلى وجداني بل إلى حسي المادى ، فشعرت كأنى أضم هذه الصورة إلى صدرى وأرى في صاحبها ملاكى الحارس وحصى الأمين .

وعاد أبي من العزبة بعد أيام عاد الطيب خلالها أنخى ثم انصرف ولم يذكر لى شيئاً عن اعتزامه خطبتي إلى نفسه ، وإن حدثنى في حضرة زوج أبي عما يجب للطفل - وقد زالت وعكته - من احتياط حتى لا تعاوده ، وبعد أيام جاءت زوج أبي إلى غرقى تقبلنى وتهشنى بمفاتحة الطيب أبي في أمر خطبتي ، وتسألنى عن رأى ، فألقيت بصرى إلى الأرض واحمرت وجنتاى خجلاً وقلت :

لا رأى إلا ما يراه أبى .

فقببني مرة أخرى وقالت :

نعم الجواب يا حبيبتي . فهكذا يكون الأدب . وهذا ما كان ينتظره
بوك وما كنت أنتظره منك .

وفي الغد جاء الطبيب ومعه صديق له وقابلا والدى فى السلامك ، فلما
انصرفا جاء والدى قبلى وأخبرنى أنهم سيقرون فاتحتى بعد غد .

وبعد غد جاء الطبيب ومعه أهله . واستقروا مع والدى فى السلامك
وقرءوا الفتاة وأديرى عليهم المربطات . هنالك انطلقت ألسن الخدم
بالزغاريد . وهنالك شعرت بأنى خطوات خطوة واسعة ، نحو آمالى فى حياة
جديدة .

وأصبح خطيبى أكثر حرية فى التحدث إلى حين زيارته إيانا ، وشعرت
بأن الحظ أسعدنى بما لم أكن أسعد به لو أن أحداً غير هذا الطبيب قد
خطبنى . فلو أن ذلك حدث لما رأيت خطيبى إلا من فرجات النوافذ ولما استمعت
إلى صوته إلا إذا سمعت من وراء الأبواب حين حديثه مع أبى . كان ذلك
حكم الوقت على كل فتاة تخطب ، أما وقد سعدت بما لم تسعد به غيرى فقد
أيقنت أن الحظ يسم لى ، وأن القدر سيعوضنى عن فقد أسمى عاطفة جديدة ،
تلك عاطفة الحب المتبادل .

وشغل أبى وشغلت معه بمجهازى . وكانت زوج أبى تشاركنا الرأى فى
بعضه ، وتكون صاحبة الرأى الأخير فى أمر الحل والثياب ، وكانت فيما
تقوم به من ذلك غير ضئيلة ولا متلكئة ، فلما أتممتنا المجهاز أقيمت حفلة

الزفاف . حفلة نادرة باهرة ، وبدت زوج أبي ليلتها في أبهى حللها وأبدع زينتها ، وقد تلاً جملها حتى كانت كأنها عروس الحفل ، أما أنا فكنت أنتظر بصبر ذاهب نهاية الاحتفال ، لأذهب مع زوجي إلى بيتي ، ولأنسى في أحضانها متاعب الحياة .

وانتقلت معي إلى بيتي خادماً كانت عندنا من عهد أمي ، وكانت أمي قد وعدتها بأن تكون في خدمتي حين أتزوج . فلما اطمأننت في غرفة نومى وأن لى أن أخلع ثيابي وجاءت هذه الخادمة تعاونني قالت في ابتسام :
أسمعت يا سيدتي كلام السيدات في الفرح ؟ ! . . أحسبك كنت مشغولة عن كل شيء بانتظار المجيء إلى هنا .
قلت :

هذا صحيح . وماذا قلن ؟

وأتمت الحديث بقولها :

لقد أدهشتم زينة سيدتي زوج أليك حتى قالت إحداهن :

لن الفرح ؟ أهو للبت أم للست ؟ . .

وأجابت الأخرى :

هو للبت اغتباطاً بذهابها إلى بيتها . وهو للست اغتباطاً بتخلصها من

بنت ضررتها واستقلالها بالبيت وسيدة فلا يكون لها فيها شريك ! . .

وابتسمت لحديثها ، ولم تلبث حين رأيته خلعت ثيابي أن غادرت الغرفة ،

ليجيء إليها رب البيت ، ليجيء إليها زوجي العزيز الحبيب الطيب الشاب ! ..

ويدخله الغرفة بدأت سنوات هائلة سعيدة ليبتها دامت .

الفصل الثالث

قضينا بدء حياتنا الزوجية سنوات هائلة سعيدة ليها دامت . ولقد طالما بحثت عن السبب فيما طرأ عليها من بعد . أنا أعلم أن كثيرين يهتمون بالسبب ، وأنه لولاي لبقينا فيما كنا فيه من نعمة وطمأنينة ، ولكني لا أقر هذا القول ولا أرضاه ، بل أحسبني كنت ضحية أكثر مما كنت مشولة عما حدث ، ولست أريد بتدوين هذه القصة أن أدافع عن نفسي ، وحسبي أن أسوق الحوادث كما وقعت ، وأدع من تقع عينه يوماً على هذه القصة أن يحكم لي أو علي ! . . .

ولا أريد بتبرئة نفسي أن أتهم زوجي بأنه هو وحده سبب ما أصابنا . ولو أنني فعلت لكنك ظالمة ، وإن كنت لا أستطيع أن أبرئه براءة كاملة ، مع الاعتراف من جانبي بأنه لم يقصد إلى غرض سيئ ، بل لعل طبيته وبالغ عطفه يحملانه من التبعة أكثر مما كان يحمل لو أنه كان أكثر قصداً فيهما . لقد بدأنا حياتنا الزوجية حبيين سعيدين . . كان كل ما حولنا يسم لنا ، ونشلولنا بأنغام السعادة . كنا نخرج تحت جناح الظلام في سيارته وكان هو يقودها ، مرة إلى سفح الهرم ، وأخرى إلى القناطر الخيرية ، وثالثة إلى المعادي ، ورابعة إلى عزبة والدي ، فلم أكن أرى في الطريق - إلى أي من هذه الأماكن الخلوية - إلا السعادة يحملها الهواء معه إلى قلبي وروحي .

وكننت لا أشعر حين عودتنا من هذه الجولات بشيء غير عير الحب يحمله
النسم على أجنحته ويدخل به وإيانا إلى عشنا الصغير الجميل ، وكان زوجي
الشاب الرقيق العزيز يمني لو استطعنا أن نساfer إلى أوروبا نمضي في ربوع
سويسرا أو النمسا شهر العسل ، لولا أن كانت الحرب العالمية الأولى تحول
بيننا وبين تحقيق هذه الأمنية الساحرة البديعة ، وقد استعصنا عن هذا السفر
بالمقام زمناً في ذهنية لأحد أصدقاء أبي ، فكنت أحس إذ أنظر إلى ماء النيل
من نوافذها وكأنه يحمل في تياره أريج الصبا ونسيمه العليل .

وكان زوجي يغيب عني ساعات كل يوم في عمله فكنت أشعر بأنني من
انتظاره على لظى . لا يبرد سعيها إلا أريج يحمل الحب شذاه آتياً من
ناحية عبادته ، فإذا عاد إلى عشنا وتعاقتنا شعرت ، كأنني ذبت في هذا
العناق خلالة ، وأصبحت حبة قلبه . وكان هو من جانبه يبادلني حباً بحب
وهيأاً بهيام . كان كل تفكيره متى فرغ من عمله كيف يزيدي سعادة وهناءة ،
فإذا جلس إلى جانبي ، وألقيت برأسي على صدره شعرت من نبضات قلبه
بطمأنينة إلى الحياة تنقلني من هذا العالم الذي يضطرب فيه الناس ، جرباً
وراء أهوائهم ومناقضهم إلى عالم من الأحلام مفروشة أرضه بالورد ، معطر
هواؤه بشذا الحب وأنعام الهوى والغرام . . أين أنا الآن مما كنت فيه منذ
توفيت أمي .

بل أين أنا الآن مما كنت منذ ولدت ، إنني سعيدة سعيدة سعيدة .
سعيدة بما لا تعبر عنه الألفاظ بل لا تعبر عنه الموسيقى ، وكأنني أنقلب
من عالم الناس في نعيم جنة الخلد ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين

وما يحملني على أجنحة من الخيال إلى عالم السعداء والراضين ، عالم المحبين الذين يستمتعون بنعمة الحب إلى غاية حدود المتاع .

انقضى العام الأول من حياتنا الزوجية وأنا في هذا البحر اللجى من فيض السعادة ، وكنت في أثناء ذلك لا أنخالط غير زوجي من الرجال إلا أبي والأقربين من محاربي ، فلم يكن يباح للمرأة من طبقتنا يومئذ أن تتحدث إلى غير هؤلاء من الرجال ، أما النساء فكانت تزورن منهن بعض زميلاتى وصديقات صباى وحبيبات أمى . وكانت زوج أبى تزورن أحياناً بطبيعة الحال ، وكنت أنقل كل حديث يجري بينى وبينهن ، أو بينى وبين أبى ومحاربي ، إلى زوجى العزيز ، وكنت أشعر بالغبطة حين أراه مسروراً لسماع هذا القصص الساذج ، لأنى كنت مصدره ، ولم يكن يخفى ذلك على ، بل كثيراً ما كان يقول لى إذا أنا فرغت من رواية أقاصيصى :

تحدثنى ، تحدثنى ، إن نعمات صوتك تشجئنى ، ونظراتك إلى فى أثناء الحديث تنفذ إلى قلبى ، وتبعث إلى وجودى كله النشوة والطرب .

وكنت أعلم أن فى نظراتى جاذبية طالما سحرت بها وأنا أنظر إلى نفسى فى المرآة ، جاذبية لا ترجع إلى جمال عيني ، بل إلى قوة التعبير التى تنبعث من هذه النظرات ، ولم أكن أحسب أن هذه الجاذبية قديرة على أن تسحر غيرى كما كانت تسحرنى ، وكنت أشعر كذلك أن لصوتى حين أتحدث سلطاناً لا يقل عن سلطان نظراتى . وكنت قد ورثت نعمة صوتى عن المرحومة أمى ، كما ورثت لباقة حديثى وقوة تعبيره عن عواطفى ومقاصدى عن أبى . ولا شك فى أن قراءاتى الكثيرة فى الكتب العربية والأجنبية قد أعانت هذه

لورثة وبلغت بي إلى هذه المقدرة التي كان يعجب بها زوجي . على أنني لم أقدر سلطان هذه الملكات على غيري لأول ما حدثني زوجي عنها ، بل حسب أن حبنا المتبادل هو الذي يوحى إليه إطراره . فلما رأيته يكرر الإطراء في مناسبات شتى أخذت أعتد بهذه الملكات ، وأعني بتنمية غراسها ، فعدت إلى مرآتي أدرس فيها سلطان نظراتي ، وعدت إلى كسبي أقرأها حين غياب زوجي في عمله وفراغي من تدبير المنزل . وكنت أقرأ بصوت مسموع ما يعجبني ، وما يزيده حسن الإلقاء أثراً في النفس . فإذا جاءت صديقاتي والأقربون من ذوي رحمي ، لزيارتي أخذت أتحدث أثر مواهي فيهم ، وسلطان نظراتي وعباراتي عليهم .

ومن يومئذ آمنت حقاً بأن من البيان لسحراً ، فقد كان الذين يزوروني يبالغون في إعجابهم ، بحسن إنصاتهم لحديثي ، واستراحتهم منه ، مما جعلني أنا كذلك ألد بالإصغاء لصوتي والاستماع لحديثي حين متاع الآخرين به ، وكنت أحرص على ملاحظة أثره في نفوسهم ، وبخاصة حين كنت أصور لهم ما تركه حادث في نفسي من مسرة أو ألم ، من رضا أو غضب ، من غبطة بالجمال أو تنزز من القبح ، فإذا شاركوني في إحساسي ، ولحت على وجوههم أمارات هذه المشاركة ، اطمأننت وزددت رضاء عن نفسي وإيماناً بسلطاني . انتهت الحرب العالمية الأولى في منتصف الخريف ونحيل إلى عند ذلك أن الجو أصبح مهيباً لأسافر مع زوجي إلى أوروبا ننشر في ربوعها الجميلة عبر حبنا ، ونستشق مع نسبات جبالها الرفيعة الذرى أريجاً منعشاً يضاعف متاعنا بالحياة ، ونجئ في أم اللدائن باريس ما تهوى إليه كل أنثى ، وما يفتح له

قلب كل مشغوف بالفن وكل مولع بالجمال . وأشرت في حديثي مع زوجي إلى رغبتي هذه ، فلم يلبث أن ذهب من بكرة غده إلى مكاتب السباحة بعد لسفرنا العلف . فلما عاد لموعد الغداء أخبرني في أسف أن السفر فيما وراء حدود مصر لا يزال محظوراً بأمر السلطة العسكرية البريطانية ، وأنها تأتي إياه تآمراً أن ترخص به لأحد . وأنه يؤثر إذا رغبت وجاء الشتاء أن نقضى أسبوعين أو ثلاثة بمشاتي الأقصر نزور هناك آثار القراعة . وأحسست أنه يريد إرضائي ولو على حساب عمله ، وقدرت ما لعل زوج أبي أو بعض صديقائي يقولنه على . فلم يكن سائغاً إلى يومئذ أن تنزل مصرية فندقاً في بلد مصري ، لهذا وذلك أبدت الرغبة عن مغادرة العاصمة وقبّلت زوجي شاكرة إياه من كل قلبي .

ولم يكن حديثي مع زوجي يتعدى حياتنا الخاصة . وكان هو يذكّر لي مشاهدته في عمله ، وأحاديثه مع أصدقائه ، وقلما يجري على لسانه شأن من الشؤون العامة ، وكنت أقص عليه ما أراه في زيارتي لصديقائي وما يجري في زيارتهم لي ، ثم يتقضى الوقت بعد ذلك ولا نحس كيف انقضى ولا نشعر بمروره . وكانت رغبة زوجي عن الخوض في الشؤون العامة طبيعية بحكم عمله ، وبحكم الظروف المحيطة به . فهو طبيب متصل بالناس على اختلاف ميولهم وألوانهم ، فلا بد له أن يحتفظ بحسن صلاته بهم جميعاً ، والجو الذي كان مخبئاً على مصر يومئذ كان الحكم العرفي البريطاني ، وكان ما حدث إبان الحرب من اعتقالات يشيع في النفوس الحذر والخوف .

على أن انتهاء الحرب آذن بنشاط سياسي عام أخذ زوجي يحدثني عنه كل يوم ، ويروي لي طرفاً من أخباره . وبعد أشهر قبضت السلطة البريطانية

على الزعماء المصريين المطالبين باستقلال وطنهم وفتحهم إلى جزيرة مالطة .
هناك قامت في البلاد كلها . من أقصاها إلى أقصاها ، ثورة كانت العاصمة
روحها ومصدر الوحي بها ، وخاف أبي أن تتطور الثورة إلى عنف قد يصيبنا
شره . فاقترح أن تذهب السيدات إلى العزبة ، فراراً بهن من مصير
لا يعرفه أحد .

وسافرت مع زوجي وزوج أبي وأخى الطفل في سيارة زوجي ، ولشد
ما كان عجيبي حين رأيت مظاهر هذه الثورة منتشرة في كل مكان ، ورأيت
الفلاحين والفلاحات فرادى وزرافات لا يكادون يروننا حتى يهتفوا بحياة
مصر واستقلالها . هي ثورة شاملة إذن . أترانا نكون أكثر أماناً في العزبة منا في
العاصمة ؟ . . لكننا ما لبثنا حين نخطينا أسوار المنزل إلى الحديقة واجترأنا
إلى داخل البناء أن رأينا فيه حصناً آمناً ، يبعدنا عن مظنة العدوان ، ثم مالبتنا
أن رأينا أهلنا وذري رحمتنا أقبلوا علينا ، يهتفوننا بسلامة الوصول وبالنجاة مما
علموا أن القاهرة تعج به من أسباب الاضطراب . عند ذلك سكنت نفوسنا
جميعاً . واطمأننا إلى حكمة والدي في مشورته علينا .

وأقمنا أسابيع عدة بالريف ، وكان زوجي يذهب إلى القاهرة في أثناء
الأسبوع ثم يجيء إلينا في نهايته ، يقص علينا ما يجري هناك . ولم يكن يجد
في الانتقال مشقة ، لأن الأطباء كانت لهم حرية التنقل بتصريح عام خاص
بهم . وقد قص علينا يوماً في حماسة أن سيدات القاهرة خرجن في مظاهرة ،
مرتديات براقعهن وحبرتهن ، وأن الجيش البريطاني لم يجرؤ على التعرض لهن
بأذى ، وأن هذه المظاهرات أثارت العاصمة كلها ، وتركت في النفوس أثراً

أعظم من كل ما سبقه .

وتولاني لسباع هذا النبا ألم وأسف أن لم أكن هناك لأشارك المتظاهرات ،
ولابدو أمام سيدات العاصمة في مظهرى الحق ، ولم أستطع أن أكم ما دار
بفسى عن زوجى ، فلما سمعه نظري إلى ابتسام وقال :

أو كنت تستطيعين ؟؟ . . لا تنسى أنك حامل ، وهذا الحمل هو
الذى دفعنى للموافقة على مجيئك إلى هنا إشفافاً عليك من أن يصيبك اضطراب
العاصمة العصبي بأذى .

ولكن هذه العبارات لم تشف غلتى ، فقد تصورت السيدات ساترات
في مظاهرتن ، ورأيت صديقتى في مقلمتن ، وشعرت بمكانى خالياً بينهن ،
ونخيل إلى لو أننى كنت معهن أشغل هذا المكان لكانت المظاهرة أتم روعة
وأشد لفتاً للأنظار . أترى تعود السيدات إلى تنظيم مظاهرة أخرى ، بعد عودتى
إلى القاهرة ، فأشرك فيها !! . . ولكن هبى علت ، وهب السيدات فكن
في تنظيم مظاهرة أخرى ، فاعساى أستطيع أن أفعل وأنا حامل !! . .

ولمح زوجى ما يدور بخاطرى وخشى أن يطول تفكيرى فيه فرأى أن
يصرفنى عنه بالحديث فيما هو أحب إلى نفسى ونفسه . ولهذا سألتى : أترأك
فكرت في اسم طفلنا العزيز ولداً كان أوبتاً ؟ . . وحرك سؤاله غريزة الأمومة في
دخيلة كيانى ، وحرك الطفل الجنين أحشائى ، وابتمت كأنتى في حلم سعيد ،
ونسيت المظاهرة والمتظاهرات ، وارتسم في خيالى هذا الطفل العزيز حين مولده .
وبعد لحظة نسيت الطفل واسمه كما نسيت المظاهرة والمتظاهرات ، وتعلقت
بعنى زوجى وقبلته بكل ما فى من حرارة الأنوثة والشباب والأمومة المرجوة

وقلت : أحبك .

ولم تنطق شفتاي بهذه الكلمة عن إرادة مني ، بل دفعها إليهما قلبي دفعا . لم يكن هما من الاستجابة إليه بد . فهذا الزوج العزيز هو مصدر هذه الأمومة التي أنخصب أحشائي وجعلتني أسعد في يقظتي وفي نومي ، بانتظار ثمرتها . وهل تراني أوترى كل امرأة تبغني في الحياة أشهى من هذه الثمرة ؟ . . ولم أكن أعلم إلى يومئذ ما تحمل الأمومة معها من تضحيات وآلام . ولم أكن إلى يومئذ أقدر الأعباء التي يحتملها الآباء والأمهات ، في صمت وإذعان ، ولم أكن أستشف الغيب فأرى خلاله ما سأجشمه ، وما سيتجشمه زوجي العزيز اليوم ، الشقى غداً ، بسبب هذه الأمومة وهذه الأبوة . لم يكشف لي في تلك اللحظة عن شيء من هذا ، بل صور لي الشباب والحب حياة معطرة بشذا الورد والرياحين وبمنظرها البديع البهيج ، وممت غريزة الأمومة فوق التفكير في متاعها ، وزينت لي أحلامي أن الحياة طريق معبد وثير تتلى على جوانبه الأغصان الخضراء تكسوها الأزهار العطرة ، وفاضت عني السعادة بهذا كله ، فازددت حبا لمن آمنت بأنه مصدر هذه السعادة . ودفع قلبي إلى شفتي كلمة : أحبك .

انقضت على مقامي بالعزبة أسابيع أفرجت السلطات البريطانية في أثناءها عن الزعماء المطالبين بالاستقلال الذين نفيهم إلى مالطة . بذلك هدأت النفوس الثائرة وإن لم تنطق ثورتها ، وأتاح لنا هذا الهدوء أن نعود إلى العاصمة وأن أستر فيها . وهناك انقضت أشهر الحمل ، وأتمرت أمومتى طفلة أنساني بكأوها ساعة مولدها ما تجشمت في حملها تسعة أشهر من مشقة ، وشغلت بهذه

الطفلة عن كل شيء آخر ، حتى عن أبيها الذي كان يحبها من أجل كما أخذت أحبه من أجلها .

وعجيب حقاً ما طرأ بعد أمومتى على حبي زوجي . . لقد بقي هذا الحب قوياً كما كان ، لكن لونه تغير . . لقد كنت أحب هذا الرجل الشاب لذاته ، فكنت كلي له . . كنت أشعر بالسعادة إذا استطعت أن أزيده رضاء بالحياة وسعادة فيها . . كنت أشعر بأنني قديرة على أن أهبه كل نفسي ، وأن أضحى من أجله بحياتي . . كنت أشعر أنني بضعة منه لا غنى لي عن حبه ، ولا غنى له عن حبي ، وكنت كثيراً ما أذكر قول الشاعر :

كان حبيباً في خلال حبيبه تسرب أثناء العناق فذابا

لأن قوله هذا كان يصور لنا حالنا في كثير من الأحيان : كان ذلك شأننا قبل أمومتى ، أما بعد أمومتى فلم أصبح قادرة على التضحية بحياتي من أجل زوجي ، لأن حياتي أصبحت ملكاً لهذه الطفلة التي تطلبني بكل أسباب الحياة ؛ وكنت أرى زوجي يخنو على هذه الطفلة التي انفجرت أحشائي عنها ، ويلمع في عينيه حب أبوي ، ندى بمعاني العطف والرحمة ، فكنت أحبه لذلك ، وكنت أزداد حباً له كلما ازداد حنوه على الطفلة وحبها لها ، وكنت أحس بأنه مطالب وإياي بتهيئة أسباب الحياة الناعمة لابنتنا ، وأني مطالب لذلك بتشجيعه على أداء هذا الواجب المشترك ، وأنا لا أملك من أسباب هذا التشجيع إلا الحب ، بهذا تغير لون حبي لزوجي وإن بقي قوياً كما كان ، وبهذا صهرت الأمومة عاطفة الحب كما تصهر النار الذهب وشكلته بالصورة التي نرضاها .

وللأمومة سلطان قوى قاهر لا يقف عند اختلاف التلوين لحب متبادل .
قصت على إحدى زميلاتي ، وكانت قد سبقني إلى الأمومة ، وكانت متروجة
رجلاً يكبرها بخمس وعشرين سنة ، وكانت لذلك تحس نحوه الهيبة أكثر
مما تحس الحب ، إنها حاولت المواءمة بين شبابها وكهولته ، وأنفقت في ذلك
جهداً كاد ينتهي إلى اليأس . ثم إنها حملت ورزقت طفلة كطفلي فإذا
لون الحياة كله يتغير أمامها ، وإذا هذه البضعة من وجودها والحشاشة من
قلبها تحيل القتام المخيم عليها ضياء وضاء يكشف أمامها طريق السعادة في
الحياة ، وإذا هيبتها زوجها تنقلب تعلقاً به لتعلقه بهذه الطفلة ، وإذا هي
تجد في العناية بالطفلة ونظافتها ورعايتها ما يسعدها ويشغل كل وقتها ، وإذا
هي تنعم من أمومتها بكل ما نطمع فيه المرأة من نعمة الحياة .

وانقضت عشرون سنة أو تزيد على حديث زميلتي ثم جمعتني مجلس
بشيخ من كبار مفكرينا قصصت عليه في أثنائه طرفاً من شئوني وشجونى ،
وبعد أن أنصت إلى طويلاً في إصغاء زادني إمعاناً في حديثي ومجبة لهذا
الشيخ الجليل قال : إن حديثك لساحر ، وما ذكرته عن أمومتك الأولى يعيد
إلى ذاكرتي قصة المرحومة زوجتي - وكانت زوجه قد توفيت منذ أكثر من
أربعين عاماً - لقد تزوجتها ولما أبلغ الثلاثين . وكانت هي طفلة رقيقة متعلمة
كأحسن ما تعلم الفتاة في ذلك الجيل . وكنت أترجم إذ ذاك كتاباً في الفلسفة
السياسية . وكنت أملئ عليها في الصباح ما ترجمته العشية لتكتبه بخطها
الجميل .

وانقضت بعد ذلك أشهر رزقنا بعدها ابناً . فلما استعادت صحتها

ونشاطها خيل إلى أنا قادران على العود إلى ما كنا فيه ، فأملينا وتكتب ، ولم يد
من جانبها على ذلك أى اعتراض . لكنى أدركت بعد قليل أننى أطلب المحال .
فقد كنت أبداً الإملاء . وتبدأ الكتابة ، ثم سرعان ما تعتذر بأن الطفل يبكى .
وتنقلت لرى سبب بكائه . وكثيراً ما كنت أتبعها لعل أستطيع معاوتها فى
شأنها كما كانت تعاوننى فى شأنى . وكثيراً ما كنت أحمل الطفل عنها لتهىء له
ما ترى أن تهبه . وكانت تعتذرلى أحياناً وتحاول أن تدعو الخادم لتبولى معوتها
فكنت أرجوها ألا تفعل . وكنت أجد فى صحبتها وفى معاوتى لها ، وفى تدليل
الطفل مكانها - على ما فى هذا التدليل من سخف لم أكن أسيغه - لذة
أكبر اللذة . لأنها كانت تسرّبه وتجزئني عنه مزيداً من العطف والحب .

سمعت حديث جليسى الشيخ المفكر وهو يسوقه فى طلاوة تسحر الأذن
وتدفعه إلى القلب . فلما أعمه قلت فيما بينى وبين نفسى :

ما أشبه حال هذا الرجل العظيم وزوجه بحالى أنا وزوجى ! . . لقد
كانت زوجه تحبه من أجل طفلها . وكان هو يحب طفلها من أجلها ،
وكانت الأمومة سرّ هذا وذاك ، كما كانت السر فى إنقاذ زميلتى من يأس
يهددها ، حتى أضاعت الأمومة قلبها بنور الحياة ونعمائها .

كان من بين صديقاتى اللاتى جثن يهتئى بمولد طفلى ثم استمر تزاورنا ،
من اشتركن فى مظاهرة السيدات السياسية التى أشرت إليها من قبل ، وكانت
كل واحدة منهن تتحدث عن مكانها فى هذه المظاهرة وعن المجهود الذى
بذلته قبلها وفى أثناءها بإفاضة وحماسة ، يشهدان بأنها تركت فى نفوسهن
أثراً عميقاً ، ولم يقف حديث بعضهن عن المظاهرة وعن الأثر السياسى العميق

لدى كنّ خا . بل أخذت يتحدث عما تستطيع المرأة في ميادين الحياة
 نعمة سياسية واجتماعية . ويذكر أن حجاب المرأة الذي حال إلى يومئذ
 بينها وبين اقتحام هذه الميادين يجب أن يزول . ولقد ذهبن إلى أن هذا الحجاب
 سبة يجب التخلص منها . لأنه يتزل بكرامة المرأة إلى مكان وضع يهين
 بقيمتها الإنسانية إلى حيث تصبح عبداً ومتاعاً للرجل لا أكثر . وشعرت في هذا
 الحديث بمقدمة ثورة اجتماعية رجوت - إن قدرها التمام - أن تتم في هدوء
 وطمأنينة . على أنني لم أكن أستطيع الاشتراك في هذه الثورة الاجتماعية على شدة
 اقتناعي بضرورتها . لأن أمومي كانت تشغل كل وقتي وكل جهدي .
 ولأنني خشيت أن أثير بيني وبين زوجي زوبعة لا خير في إثارتها . لهذا بقيت
 راضية بما أنا فيه لأنعم بأمومي . وبحب زوجي ، وتركت لخاتيك التاثرات
 أن يقتحن الطريق إن وجدن إلى فتحه الوسيلة .

وأستطيع اليوم أن أقول إنهن نجحن في ثورتهن إلى حد بعيد ، ويرجع
 نجاحهن إلى أنهن سلكن في هذه الثورة سبيل الحكمة والتصون عن كل
 عنف . فقد بدأن جهادهن في سبيل حريتهن بالتهوض بأعمال الخير .
 عناية بالمرضى . وبراً بالفقراء . وعطفاً على الطفولة المشردة ، وما إلى ذلك من
 أعمال إنسانية تتفق مع فطرتهم ، ومع ما جبلت المرأة عليه من بر وحنان .
 وما كان للرجال أن يعترضوا طريقهن في هذا السبيل ، بل أعانوهن وشجعوهن ،
 وكان طبعاً بعد ذلك أن تخلع المرأة حجابها وأن تلتق جانباً هذا البرقع ،
 ثم هذه « البيشة » التي كانت تسرّبها وجهها ، لأن فاعل الخير والقائم بالعمل
 الإنسان لا يستخفي ولا يتستر . وإنما يستخفي المريب وذو النية المتهمة .

وطالب النساء بعد ذلك بألوان من الإصلاح الاجتماعي أقرهم الرجال عليها ،
ورأوا فيها للمجتمع صلاحاً وخيراً . . وهذه الحكمة وهذا الاعتدال استطاعت
الثورة الاجتماعية التي تمخضت عنها تلك المظاهرة السياسية الأولى أن تحطم
الحجاب ، وأن تفتح أمام الفتاة وأمام المرأة أبواباً كريمة ، كانت من قبل
موصدة في وجهها . ولعلنا - نحن النساء - نستطيع بهذه الحكمة أن نحقق
لأنفسنا وللرجال وللمجتمع المصري كله غاية ما تصبو الشعوب المتحضرة
إليه من رفق وتقدم .

استدار العام منذ مولد طفلي ، فإذا أحشائي تتحرك بأمومة جديدة .
ورزقت هذه المرة غلاماً كان قرة عين لي ولوالده ، برغم وضع متعسر ،
أشرف بي على الموت. ولهذا شعرت بأنني أدبت للإنسانية وللجماعة المصرية
ما لهما على وعلى زوجي من حق ، بعد أن أتجبت هذين الطفلين ، وعاهدت
نفسى أن أقف بأمومتي عند هذا الحد ! . .

وقد وفيت بالعهد وإن كنت أعترف بأن نفسي نازعتني غير مرة إلى نقضه .
وفى كل واحدة من هذه المرات كنت أقاوم غريزة ليست مقاومتها أمراً يسيراً ،
ولست أدري أكان ما قاسيت حين مولد غلامى هو الذى شجعنى على هذا
المقاومة ، أم شجعنى عليها اعتبارات أخرى كنت أراها رأى العين ، ولا يحسب
كثيرات من النساء لها حساباً . بل إنى لأعرف من هاتيك الكثيرات من
لا تكاد تضع حملها وتتخلص من آلام ولادتها حتى تبسم رجاء أمومة
جديدة ، وكأنها تجد في ألم الوضع لذة ، أو كأنها يعوضها الطفل الذى تنفج
عنه أحشاؤها عن كل ألم ، وكأن ما يحشمها هذا الطفل من مشقة هو لذة

حياتها وكما سعادتها .

والعجب أن النسوة اللاتي يتولين بأنفسهن شئون أطفالهن ولا تسمح
وسائلهن بالاستعانة بمرية أو خادم هن اللواتي تتحكم فيهن غريزة الأمومة
ولا يفكرن في مقاومة سلطانها القاهر . مؤنات بأن ذلك من أمر الله . وأن
الأطفال عطاؤه المحبب . وقد يكون لماتيك المؤمنات عندهن إيمانهن .
أما بنات طبقتي المستلمات لغريزة الأمومة . العاجزات عن مقاومتها بعد
أن يرزقن طفلين أو ثلاثة . فهن في نظري أعجب وأغرب ، لأنهن لا يدعن
أطفالهن للطبيعة كما تفعل الأوليات . وتربية الطفل أشد عسراً من حمله
وميلاده ألف مرة .

وكان حرصى على عهدي أول ما اشتد الخلاف عليه بينى وبين زوجى .
فقد كان يؤمن إيمان العجائز بأن كل طفل يأتى ورزقه معه ، وبأنه هو الذى
يكذل حياة الأسرة . وبأننا يجب ألا نعرض إرادة الله ! . . . وكنت أجييه بأن
السعى للرزق لن يزيده إرهاقاً ، وبأنى أنا التى أحمل مشقة الأطفال ، حملاً
ورضاعة وتربية ، لأننى لا أستطيع أن أدع طفلى لمرضع ، ولا أن أعتمد الاعتماد
التام على المربية التى عندنا ، برغم ثقى التامة بها .

وقد تكرر اختلافى مع زوجى في هذا الأمر غير مرة في فترات متباعدة
امتدت بضع سنوات . وكان كل منا يسوق خلال جدله ألواناً من الحجج
لا تخلو من طرافة . . كان زوجى يقول لى أحياناً :

أو تأمنين غدرات القدر بأحد هذين الطفلين أو بهما جميعاً ؟ . . . وكنت
أجييه :

وهل تأمن غدر القدر بك أوي أوبنا معاً فيتم أطفالنا ؟ . . أولاً ترى
أنهم كلما كانوا أقل عدداً كان رزؤهم فينا أخف حملاً ؟ . .
وكان يقول لي :

لقد نشرت الصحف اليوم أن فرنسا قررت للأسر التي يزيد أبنائها
على طفلين مكافأة يرتفع قدرها كلما زاد عدد الأطفال .
وكننت أجييه :

إنما تريد فرنسا زيادة سكانها لتريد في الجيش ولتزداد الأيدي العاملة
عندها ! . . ولا أحسبنا أنا وأنت ، نريد أن يكون أبنائنا جنوداً أو عمالاً ! . .
فلندع هذه المكافأة وهذا الفخر للمؤمنات بأمومتهم ، واللاتي جعل القدر
من حظهن وحظ ذريتهن أن يكونوا جنوداً أو عمالاً ، أو ممرضات أو عاملات .
وكان إذا مرض أحد طفلينا ورأى نازعتني غريزة الأمومة وطمع في أن أضعف
أمامها أظهر لي من الحب والحنان ما أكاد أنهم دونه ، ولكنني سرعان
ما كنت أستجمع قوة المقاومة وأسمو بها فوق ضعفي ونوازعي وأقف بها إلى
جانب عهدي .

وكثيراً ما كان يبدى دهشته ويقول :

هذا أعجب ما رأيت ! . . امرأة تقاوم سلطان الأمومة ، وتبني أن
تحمل وتلد ، وأب يريد لها أن تنجب فتقاوم إرادته . . لقد رأيت عكس ذلك
غير مرة إشفافاً من الآباء على أولادهم في مستقبل حياتهم وعيشتهم ، أما أن
تقف امرأة هذا الموقف ، فلا تفسير له عندي إلا من أنانيتها وحرصها على
شبابها وحريتها .

ولم يكن هذا الهجوم يزعجني . بل كنت أقاومه بسلاح المرأة . . كنت أبتسم وأعاقق زوجي وأقول له :

هـب هذا الاتهام الذي توجهه إليّ صحيحاً . فلمن أحتفظ بهذا الشباب ؟! . . أأست أحتفظ به لك ؟ . . وأنت تعلم أن حريتي كقلبي في ملكك . وكنت أسوق إليه من معسول القول ما يذيب اعتراضه وغضبه ، ومن يردد إلى حال من الرضا لا سبيل له إلى مقاومتها . لأنه يحني بقلبه وعقله وكل وجوده .

على أن ذوبان غضبه لم يكن ينقله إلى معسرى . فقد كان عنيداً في إصراره على رأيه . لا ترحضه عنه حجة ولا يصرفه عنه برهان ، وكان برغم ذلك ضعيفاً أمامي كل الضعف . ضعف الأم لابنها : فكنت أنا طفله المدلل ، يعمل جهده إلى إجابة رغباتي وإن لم تعجبه . ما دام لا يرى فيها مضرة ولا شناعة . وقد انتهى بعد المناقشات التي دارت بيننا إلى الاقتناع بأن أمومي من شأني ، وأنه لا يستطيع أن يرغمني فيها على شيء لا أريده .

وشارت الأقدار أن تعاونني على التثبت بعزمي والوفاء بعهدي ، فقد كان في مقدمة ما أدت إليه مظاهرة السيدات السياسية من تطور اجتماعي أن رفعت الحجاب ، وأباحت للمرأة أن تخرج مع زوجها أو أبيها أو أخيها أو الأقربين من محارمها ، وأن تتحدث إلى من يلقونهم في هذه الحال من الرجال . وكانت المرأة من طبقتنا لا تملك إلى ذلك العهد أن تتحدث رجلاً غير محرم ، فإذا خرجت إلى الطريق مع زوجها ، وصادفاً رجلاً يعرف الزوج . وأراد أن يتبادل معه مجرد التحية ، انتحلت المرأة جانباً ، وأدارت

وجهها . حتى لا يراه هذا الأجنبي . لأن وجهها كصورتها كانت عورة لا يجوز أن يطلع عليها الرجال . وكان لزوجي أصدقاء من رجال السلك السياسي الأجانب لا أدرى كيف ولا متى عرفهم . فلما حدث ذلك التطور بدأ زوجي يدعوم وقريناتهم لتناول الشاي عندنا . وكان طبعاً أن أقابلهم وأن أتحدث إليهم كما كان هو يقابل زوجاتهم ويتحدث إليهن .

وصادف ذلك التطور الاجتماعي تطور سياسي يقابله . ذلك أن اعترفت إنجلترا باستقلال مصر ، وأن أعيدت وزارة الخارجية المصرية . وكانت قد ألغيت منذ بداية الحرب العالمية الأولى ، وترتب على عود وزارة الخارجية للدولة مستقلة أن بدأت تلك الوزارة تنظم التمثيل السياسي والقنصلي للبلاد في الخارج . وبدأت أسمع أنهم يرشحون لهذه المناصب من فئات مختلفة كانت فئة الأطباء من بينهم ، ثم علمت أن أطباء من معارفنا وشعروا بالفعل لهذه المناصب .

قلت فيما بيني وبين نفسي :

ولم لا يعين زوجي في لندن أو باريس أو روما فنستمع بالحياة في هذه العواصم الكبرى بما فيها من آثار الفن والجمال ، ويكون بيننا وبين الدبلوماسيين والقنصلين من كل الأمم علاقات طيبة نسريح إليها ونفيد مصر منها ؟ ! . . فإذا تحقق هذا الأمل كان أوجب على أن أستمسك بعهدى وأن أقف بأموئى عند ابني وابنتي ! . .

وداعبني الأمل ، ثم تحكت في رغبة الالتحاق بالسلك الدبلوماسي ، فأفضيت لزوجي بخلجات نفسي ، وذكرت له أسماء الأطباء المرشحين لهذا

السلك . وطلبت إليه أن يعمل جهده ليرشح كما رشحوا ، وكنت أظن أنه سيرحب بهذه الرغبة ويطير لتحقيقها . ولشد ما كانت دهشتي عندما أبدى لي الرغبة عن كل تفكير في هذا الأمر . وكانت حجته أن الأطباء الذين رشحوا للسلك ليست لهم في عالم الطب مكانة . وليس لهم بين الأطباء مثل اعتباره . فإذا هو بذل من جانبه أي مسعى لتحقيق رغبتي جنى ذلك على مركزه وعلى عمله . . . وهو ، بعد : طيب ناشئ استطاع أن يبلغ في فنه بمجهوده مقاماً محموداً . فمن سوء الرأي صرفه عن الطب إلى غيره إرضاء لثروة طارئة .

وعيناً حاولت أن أعدل به عن رأيه . فقد بلغ من تشبهه به أن طلب إلى ألا أعود إلى مخاطبته في الأمر ، أو إظهار الأسف على رغبته عنه ، وزاويتي والدي يوماً فأبديت له رغبتي وذكرت له عناد زوجي ، فابتسم وقال :

إن زوجك رجل عاقل . وهو يعلم كما يعلم كثيرون أن هذه المناصب لا تعطى اليوم للشبان المتزوجين مجاناً ، فهل أنت مستعدة لدفع الثمن ؟ . . وأجفت فزعة لسامع هذه العبارة ولم أجرب جواباً ، ولم أعاود الحديث مع زوجي في هذا الموضوع من بعد ! . . .

ثم إنتى قدرت بعد أن رويت في هذا الأمر أن أبي أراد بعبارة المزعجة أن يصدمني ، ليصرفني عن التفكير في أمر لا يرغب فيه زوجي ، وذلك إبقاء على مودتنا . وما يعرف من حبنا المتبادل .

ويمكن هذا التفكير من نفسي ، ودس إلى قلبي جرثومة أخذت تبث بعاطفتي نحو زوجي وعملت هذه الجرثومة عملها بتوالي الأيام ، حتى توهمت

أن ما يقوله زوجي عن مكانته في الطب لا حقيقة له . وأنه من قبيل الخداع النفسي ، اعتذاراً عن عجزه عن أن يسعى لينال المنصب الذي أصبو إليه وأن هذا العجز ضعف غير لائق بالرجال .

كان لاختلافنا هذه المرة من الأثر في نفسي ما لم أشعر بمثله حين اختلفنا على تحديد النسل ، ففي هذه المرة الأولى كان الأمر كله بيدي ، وكان النصر لذلك حليتي ، من غير أن أتحمّل في سبيله أية تضحية . ونحن في هذه الحال أشد عطفاً على الهزيم وإشفاقاً من أن يناله بسبب انتصارنا ما يسوءه ، لذلك كنت أقبل زوجي إثر كل مناقشة بيننا ، في أمر نسلنا لأهون عليه هزيمته . أما بعد اختلافنا الأخير ورفضه أن يبدل أى مسعى لانتقالنا إلى السلك الدبلوماسي ، فقد شعرت بأنني انتهزت ، وبأن هذه الهزيمة آذت كرامتي ، وخيل إليّ أن زوجي قصد إلى هذا الإيذاء متعمداً ، ولم يكن يضيره أن يسعى ، فإن وفق فقد بلغت ما أردت ، وإن لم يوفق فلا ذنب عليه ، ولن يصيبه من جراء ذلك في عمله أى ضرر .

وحزّت هذه الكرامة المهينة في نفسي : أأجزي بكل ما بذلته لإرضاء زوجي بالألّا يعبأ بالسعى لمطلب يناله من هو أقل منه وتناله من هي أقل مني ؟! . .

وبلغ من حزني أن خيل إليّ أن زوجي ذهب إلى والدي وطلب إليه أن يردني عن الإلحاح في أمر لا يرضاه ، وأن ذلك كان السبب في قسوة الجواب الذي واجهني به والدي ، حين أفضيت إليه برغبتي . ولو أن زوجي لم يفعل من ذلك ما فعل ؛ ولم يظهر لوالدي معارضته ورغبتي لاستطعت أن أستعين بوالدي

في السعي لتحقيق غرضي . فله كلمة مسموعة في دوائر رسمية كثيرة . وصلاته بأولي الأمر تدعوهم لمجاملته ! . .

وجعلت أشكو حالي لبعض صديقاتي اللواتي هن في مثل سني . فإذا كل واحدة منهن تشكو حالها . وتكاد تعلن الثورة على زوجها . وجمعت هذه الحال بين خمس منا . فكثرت زوارنا وكثرت ترديدنا الشكوى من حالنا . نقول إحداهن إنها رغبت إلى زوجها في تغيير مسكنها فأبى . ونقول ثانية إنها لا تكاد ترى زوجها الطيب إلا ساعات الطعام . فإذا حدثته في ذلك اعتذر بكثرة عمله . وتسوق الباقيات أمثال هذه الأقاويل . ويتكرر ذلك في كل زيارتنا ثم لا تزيد على الشكوى لأننا لم نكن نستطيع أكثر منها .

وقت في عضدنا أن إحدانا غضبت من زوجها ولحأت إلى بيت أهلها فتلقاها أبوها عابس الوجه مقطب الجبين ، وقال لها في صرامة وحدة :
الواجب عليك أن تحمدى الله على ما أنت فيه ، وأن تقبلي يد زوجك صباح مساء . فكم من مثيلائك تعيش مثل عيشك في بحبوحة ونعمة ؟ ! . .
وزوجك رجل رقيق مهذب رضى الخلق ، وأنا لا أشك من غير تحقيق في أن الحق عليك من رأسك إلى رجلك . فارجعي إلى بيت زوجك واعتنري إليه . وإلا ذهبت أنا بنفسى ، واعتلرت إليه .

والعجب أن زوجي لم يتغير على في هذا الظرف برغم ما بدا من نفورى ، بل لقد ازداد لطفاً بي وعطفاً على . وقد بلغ من ذلك أن زال من نفسى كل شك في أنه يحبنى من أعماق قلبه . . مع ذلك بقيت الرغبة الدفينة في الانتقال من الطب إلى السلك الدبلوماسى تساورنى . وكان اعتدادى بنفسى وبسحر حديثى

مصدر هذه الرغبة وإلحاحها على فكتت أقدر أنتى سابلغ فى محيط هذا السلك مالا تبلغه امرأة غيرى . وقد بى هذا الاعتقاد متشبهاً بنفسى إلى عدة سنوات من بعد . وإنى لأذكر يوماً بعد هذه السنوات دخلت فيه إلى اجتماع للسيدات ، مصريات وأجنيبات ، فلقينى بما تعودت من ترحيب . إلا زوج وزير ألمانيا المفوض ، وكانت متعالية تعدد يحمالها . ويحنسها ، وبمركز زوجها ، وبواسع ثقافتها ، فلم يسعنى إلا أن وجهت إليها نظرة ازدراء زلزلت كبرياءها ، ثم آليت على نفسى أن أتقن الألمانية ، وأن أقرأ خير مؤلفاتها بلغة العظماء من كتابها ، وعرفت السيدة المتعالية من بعض صديقاتى ما أقدمت عليه فاتهزت أول فرصة تلاقينا فيها لتقدم لى معاذيرها . بذلك تصافينا واتصلت مودتنا ، ولم يلفتنى ذلك عما أخذت به نفسى فأثقت الألمانية، وقرأت بها « جيتى » و « هينى » و « نيتشه » ، وتأثرت إلى حد كبير بأراء « نيتشه » من أن القوة، والقوة وحدها ، هى مصدر كل سلطان فى الحياة . وللمرأة من أسباب القوة ووسائلها الكثير مما لا سبيل للرجل إليه . لها الذكاء ، ولها الحيلة ، ولها الرقة ، ولها سحر النظرات والحديث ، ولها الصبر . . الصبر الذى يمكنها من أن تحمل الجنين تسعة أشهر ، وترضعه عاماً أو أكثر من عام ، وتتولى بعد ذلك تربيته والعناية به . . أين للرجل هذه الوسائل التى تجمعها كلمة الأنوثة ؟ . . وهل تستطيع قوته المادية أن تغلب عليها ؟! . .

وقد استطاع زوجى بعد اختلافنا على الانتقال إلى السلك الدبلوماسى ، أن يتغلب على نفورى بحنانه ولطفه ، ويحبه إياى حباً كان يحرك كل قلبه

وكل حوسه وكل رجولته . ثم إنه كان يحدثني كل يوم عن عمله في الطب . وعن اضراد مكانته في السمويين زملائه ، وعن كسبه الوفير منه . كما أخذ يغدق على من صنوف الهدايا ما يهواه قلب المرأة من حلل ومجوهرات . ومن تحف زخرفية بديعة تزدان بها حجرات المنزل وتتمتع العين بدقة صنعها وبارع جماعها . وكم أغرائي للذهاب بنفسى أختار من الثياب وأدوات الزينة ومن هذه التحف الزخرفية ما أشاء ، وانتهى في لطفه إلى أن سكن نفورى فعدنا إلى سابق مودتنا .

ولكن حي إياه كان قد خدش . ولم يكن لي مع ذلك بد من التظاهر بأن شيئاً لم يحدث . وبأننا ما زلنا تبادل الحب صفواً كاملاً . وماذا عساي كنت قادرة أن أصنع وبين يدي هذان الطفلان لا يزالان في غرارة طفولتهما بحاجة إلى عناية أبيهما وعطفه . ولن يدور بخاطري أن أُلجأ إلى بيت أبي فتشمت في زوجه . ويلقائي هو بوجه عابس أن ليس لي فيه أم يغفر حنانها ما لا يرضاه الأب الغضوب . لا مفر إذن من الصبر من أجل هذين الطفلين ، ومن أن أعمل على مداراة ذلك الخدش إن استطعت إلى مداراته سيلاً .

وبالغ زوجي في العمل على مرضاتي . فلما كان الصيف سافرنا جميعاً إلى أوروبا . وسافرت معنا مربية أولادنا ، وقضينا في هذه السفرة زمناً سعدت به وبرت نفسي في أثنائه حتى خيل إليّ أني كنت متجنية على هذا الزوج العزيز الكريم . كم من مرة وقفت إلى جانبه على سطح الباخرة التي تجري فوق لجة بحيرة « ليمان » واستمتعت معه بمغرب الشمس فوق قن الجبال المحيطة بها وبالهواء العذب الساحر ، الذي ينساب مع أشعتها الذهبية إلى



خادم الفندق تستأذن على وتدخل إلى طاعة كبيرة من أزهار شتى

نصودور - ينعش وينعش القلوب معها .

وكم من مرة درت معه في أنحاء باريس في الليل أوفى النهار - وكم نعمنا بمشاهدتها ومسارحها وبمظاهر الفتنة التي لاحصر لها فيها . . . وكم . . . وقد بلغ من إعجابي بهذا الرجل في هذه الفترة أنني كنت أنظر إليه في بعض الأحيان لا على أنه زوجي ، بل على أنه حبيبي . حبيب قلبي وروحي : فقد وهبني كل نفسه ليلى ونهاره ، فلم يكن لي بد من أن أحبه كل نفسي وكل حياتي .

فلما عدنا إلى مصر ، وعاد زوجي إلى عمله ، وعدت إلى حياة المنزل الرتيبة ، وانقضت من حول هذه الغمامة الشعرية التي أحاطت بي في أوروبا ، فلم يبق لي إلا ذكرها والتحدث لصديقاتي عنها ، عاودني الأسف أنا لم نتقل إلى السلك السياسي ، ونحيل إلى أن أهل هذا السلك يقضون حياتهم كما يقضى المصطافون حياتهم ، يتقنون حيث يشاءون ، وينعمون بحمال الطيعة وبجمال الحضارة أينما يريدون .

وجلس ذات مساء بعد أسابيع من عودتنا إلى مصر أتحدث إلى زوجي ، وكان قد عاد من عمله وعليه آثار الغبطة ، فذكرت له رحلتنا وأثرها الجميل في نفسي ، فقال :

أرجو يا عزيزتي أن تتمكن من قضاء الصيف كل عام في بعض ربوع أوروبا الجميلة ، وما دام هذا يرضيك فإنه يسعدني ، وهل لي من سعادة إلا في رضاك وغبطة طفليتنا وراحتهما ؟ ! . .

ولم أملك نفسي وقد سمعت عبارته ، فعاقته وقبلته شاكرة أجزل الشكر ، إذ رأيت في وعده هذا بعض العوض ، إن لم يكن كل العوض ، عن السلك السياسي . وقد كنت راغبة في الانتقال إليه أشد الرغبة ! . .

الفصل الرابع

في الأيام الأخيرة من شهر « نوفمبر » من تلك السنة : أصيبت طفلتنا بترلة شعية حادة أرقنتى وأرقت والدها ، فلما برئت رأى زوجي أن أسافر بها وبأخيها والمريية ، إلى الأقصر ، ليقضى دفء جوها على كل أثر للمرض . وحجزنا أماكتنا بفندق الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل ، وصحبنا زوجي إلى محطة العاصمة ثم ودعنا ساعة تحرك القطار وعاد توا إلى عيادته يزاول عمله .

وقد شعرت ساعة وجدتنى وحيدة مع الطفلين بديوان سكة الحديد بشيء من الرهبة . . إن الديوان مخصص للسيدات ويغلب ألا يشاركنا فيه أحد طول الطريق ، فالأوريات يجلسن مع أزواجهن إلا أن يكن مسافرات وحدهن . . أما ولم تشاركنا مصرية ولا أوربية حين سفر القطار من القاهرة ومن الجزيرة فلا خوف من أن تصعد مسافرة بعد ذلك من محطة أخرى . وزايلتنى الرهبة بعض الشيء بعد ساعة أو نحوها من انطلاق القطار ، وإن بقيت أحسب ألف حساب لطارئ من الرجال يفتح الباب علينا ويحاول الجلوس معنا . ماذا عساي أن أصنع لو أن ذلك حدث ؟ . . فليس في الديوان جرس أستطيع أن أدعوه من يتقلبنى من مثل هذا الموقف ! . .

وصلنا إلى الأقصر ولم يحدث ما توهمته مخاوفي ، فلما بلغت الفندق وصعدت إلى غرفتنا عاودتني المخاوف . لقد نزلت في أوروبا فنادق كبيرة شتى ، ولم يخامرني مثل هذا الشعور ، أتراني هناك كنت أكثر شجاعة ، أم تراني كنت أكثر اطمئناناً إلى الناس ! . . لا هذا ولا ذاك ، لكنني كنت في حماية زوجي وكنت مطمئنة في جواره . . أما الآن وليس معي إلا المربية والطفلان فقد ألفتني عزلاء مجردة من كل دفاع . . على أن مدير الفندق - وكان سويسرياً - أبدى لي من اللطف ما يبدد الكثير من مخاوفي .

واستيقظت في الصباح وأخذت زيتي وتناولت فطوري ونزلت إلى بهو الفندق ، فأقبل عليّ مديره ليطمئن على راحتي وراحة أطفالي ، واتصل حديثنا بالفرنسية ، فسألني إن كنت أريد أن أزور قبر « توت عنخ آمون » ، وكان قد كشف من مستين ، ليوفر لي أسباب هذه الزيارة . ولما كنت لم أزر الأقصر من قبل ، وكنت لا أريد أن يعرف الرجل ذلك عني ، فقد ذكرت له أنني مريضة زيارة الآثار حتى أطمئن على راحة طفلي ، وقصصت عليه مرض ابنتي ، وأتيت جئت إلى الأقصر من أجلها . . وأبدى الرجل أشد الاهتمام بأمر الطفلة وقال :

« إن الشمس تغمر فناء الفندق معظم النهار . . وشمس الأقصر ممتعة جداً ، وتستطيع الصغيرة أن تسلي باللعب مع أخيها في حديقة الفندق ، وبين نزلتنا أطفال استقادوا من جو هذا الفصل في الأقصر فائدة كبرى ! . . » . وخرجت مع الطفليين والمربية إلى فناء الفندق نستمتع بدفء الشمس . وفرح الطفلان بهذا التغيير في لون حياتهما واندفعوا إلى ناحية حديقة الفندق ،

وتبعتهما مرييتهما ، فبقيت زمناً أحلق فيما حولى ، وأرقب هؤلاء السانحين ، رجالا ونساء ، وقد جاعوا إلى مصر من أقصى الأرض ، يستمتعون بجوشانها المتعش ، وبمشاهدة مناظرها الخالدة على صفحات الطبيعة وفي صحف التاريخ .

فلما قربت الظهيرة قمت أسير في طريق يشطر الحديقة حتى بلغت باباً من الخشب مقفلاً ولكنه غير موصد . وصادفتى عند هذا الباب بستانى حيانى وقدم لى باقة من زهر البنفسج ، ثم فتح لى الباب الخشبي وقال :

تفضلى يا سيدتى إن شئت ، فقد تجددين بعض معارفك فى حديقة « ونتر بالاس » ! ! .

وكان هذا الباب الخشبي يفصل بالفعل بين حديقتى الفندقين : الأقصر ونوتر بالاس ، وذكرت هذه اللحظة صديقتى التى مات زوجها ، تاركاً لها ولذريتها الضعاف تركة قيمة ، طمع فيها أهله فنعوا ورثته من الاستيلاء عليها وعلى إيرادها . وكانت أم صديقتى ذات ثراء ، وكانت شديدة الإعزاز لابنتها ، لأنها كانت وحيدتها بين إخوة ثلاثة قادرين على الكسب الوفير ، لذلك أتلحت لها المتاع بالحياة بعد انقضاء مراسم الحزن على زوجها ، فسافرت إلى الأقصر ، وتركت أبنائها فى رعاية أمها ونزلت ونتر بالاس : فلما ذكرتها تحطيت إلى حديقة الفندق القخم لعلى أجدها : ألا ما أبدع هذه الحديقة وأبهاها ! ! . وما أحقر حديقة فندق الأقصر إلى جانبها ! ! . فهذه الأشجار الباسقة وهذه الأزهار النضيرة ، وهذه الملاعب الفسيحة للتنس ، وهذه الغزلان والطيور الجميلة فى الحظائر ، وهذه المقاعد الوثيرة بأشكالها المختلفة

مشيرة في كل ناحية من الحديقة . والشمس والظلال تتداول جوانب المكان المعطر بشذا الأزهار . هذا كله لم أشهد له نظيراً فيما زرت من فنادق أوروبا . وهذا كله يجرس خلال نفق قليل من الرجال والسيدات . كثرتهم من الأجانب ويلعب في بعض أرجائه أطفال . كأنهم الأزاهير . لفرط العناية بهم وبما يلبسون .

دوت في أرجاء الحديقة الشمس صديقتي فلم أجدها . وعلوت السلم المؤدى من الحديقة إلى الفندق آملة أن أجدها في بعض أبنائه . أو أسأل عنها بعض رجاله ، فعلمت من البواب أنها ذهبت في صحبة إلى بيبان الملوك . وأنها ستكون لا ريب ساعة الشاي في البهو الكبير ، ودلفت من باب الفندق إلى شرفته . . يالللجلال والبهاء والعظمة والجمال ! . . فهذه الشرفة الرفيعة البديعة . تطل على منظر كله الروعة لا نظير له في العالم ، تطل على النيل تنساب مياهه السماوية الزرقة ، هادئة هدوء هذا الفصل الرقيق من السنة ، وتنساب فوق مياهه الزوارق ، ذاهبة آية بين طيبة الأحياء ، وطيبة الأموات ، وقد تظوف أحياناً حول جزيرة ناتئة في النهر حتى تُعمرها مياه الفيضان . وعلى الجانب الآخر من النيل تتدرج هضاب « طيبة الأموات » في ارتفاع حتى تختلط بالسما عند مدى النظر .

ووقفت إلى جانبي سيدة رأتني أخذت في إعجاب إلى هذا المنظر البديع ، وعلمت أنني نزلت الأقصر العشية ، فحيتني بالإنجليزية وقالت :

إن هذا المنظر يكون أبديع بكرة الصباح وساعة المغيب وأشد سحراً .

وهذه الجبال التي تبدو أمامك الساعة وقد غمرها ضوء الشمس ، وكاد وهجها

يحجبها عن النظر ، تبدو في الإصباح والإساء وقد بادرتها الشمس . وانحدرت من ورائها ، ورسمت عليها خطوطاً من أشعتها الذهبية . تحاليلها سطوراً تنطق بما احتوته هذه الجبال في جوفها ، من فراعين وملكات . ومن قس ووزراء ، ومن فعال هؤلاء وأولئك وكيف كتبوا من تاريخ الإنسانية صفحه الأولى . إنني أهيب بك أن تجيئني إلى موقفك هذا بكرة الصبح ، وساعة المغرب ، ليتضاعف متاعك بالنيل والصحراء والجبال وما تحدث عنه من تاريخ ما قبل التاريخ ! . . .

وأقيمت مكاني زمناً مأخوذة بالمنظر الساحر أمامي ، فلما امتلأت منه العين والجوانح عدت إلى فندقى اتفقد الطفلين العزيزين وأشرف مع المربية على طعامهما ، وتحدث إليّ زوجي تليفونياً من القاهرة ، ليطمئن عليّنا فطمأنته على كل شيء ، وغفوت غفوة الظهيرة ، أستريح بها من شقة سفر أمس ، فلما دنا موعد الشاي ذهبت من جديد إلى « وتر بالاس » وما كدت أدخل البهو الكبير حتى رأيت صديقتي في جانب منه ، فقصدت إليها وجلسنا معاً إلى مائدة لا ثالث معنا حولها ، وإنا لتجاذب أطراف الحديث إذ أقبل علينا رجل ناهز الثلاثين ، فحيا صديقتي ثم أخى رأسه تحية لى واستأذن وجلس . وعلمت أن هذا الرجل من الأقصر وأن له في فنادقها شأنًا ، وسرعان ما أدركت أنه كثير التردد على نزلاء هذه الفنادق ونزيلاتها . فما كاد يشاركنا الحديث حتى رأيته يذكر لصديقتي أسماء طائفة من نزلاء « وتر بالاس » ونزيلاته ، ومن نزلاء فندق الأقصر ونزيلاته . ويروى عن هؤلاء وأولئك ، وبخاصة عن هاتيك اللاتي ذكر أسماءهن ، أنباء تنقلتهن وملابسهن ومبلغ

تسجد ملابس السهرة على هذه وعدم انسجامها على تلك ، وكيف ترقص هذه . وكيف ترقص تلك . والحق أنى ضقت بحديثه . لكن ما أبداه فى أثناء الحديث من استعداد للقيام بأية خدمة أرغب فيها اقتضانى بمجاملته بل ملاطفته . . ولعل كثيرات غيرى من نزيلات الفنادق كن فى مثل موقعى ، يتظاهرن بالمجاملة والملاطفة انتظاراً لخدمة يؤديها هذا الرجل ، أو تقديرأ لخدمة سبق له أدائها ! . .

وأحسست ساعة المغيب تدنو ، فاستأذنت صاحبتى وصاحبها لخمس دقائق . ودللت إلى الشرفة فألقيت السيدة التى وقفت إلى جانبي ساعة الظهيرة ، وكأنها فى انتظارى . . ورأيتى مقبلة فصاحت :

« أترين هذا المغيب البديع ؟ . . لكأن الشمس علمت بأنك تريدن مشاهدتها فجملت الوجود كله بزيتها . . انظرى . . انظرى إلى النهر والسماء والجبال . وكأن المغيب يضمها جميعاً فى غلالة من ذهب » .

وانطلقت السيدة تصف ما ترى مأخوذة ، كأنها واقعة تحت سلطان منوم مغناطيسى مقره قرص الشمس ! . . وأخذت بالمنظر وبحديثها ووقعت أنا الأخرى تحت سلطان هذا المشهد الفذ من مشاهد الطبيعة ، فلما آن للمساء والنهر والجبال أن تخلع زينتها عدت إلى مجلسى مع صديقتى : وقد غلبنى البهر ففقد لسانى ، فلما أفقت من بهرى أخذت أتكلم وأصف ما شهدت : وأصغيت لصوتى ولعباراتى ، فإذا هى أنعام توقع لحن هذا المشهد الفذ الرائع ، وقصيت فى هذا الحديث زمناً رأيت الرجل فى أثناثه مسحوره فلما كاد يتولاها البهر الذى كان قد تولانى ، تركت « وتر بالاس » وعلت إلى فندقى وإلى طفلى .

وأصبحت بكرة الغد وتناولت فطوري ، ثم إذا خادم الفندق تستأذن على وتدخل إلى طاقة كبيرة من أزهار شتى كلها التفتة والجمال . شبيكت بها بطاقة صاحبنا الأقصرى الذى تناول الشاى معنا أمس فى « وتر بالاس » . ولم يكن عجبى لجرأته دون سرورى بهذه الأزهار البديعة الفاتنة . وطلبت إلى الخادم فأحضرت من الآنية ما وزعت فيه الأزهار لأزين بها جوانب عرقى . فلما اطمأنتت إلى أن كل آنية وضعت حيث يجب أن توضع أدبرت نظرى فى الغرفة : وارتسمت على ثغرى ابتسامة الرضا . فالأزهار تنشر فى المكان الذى توضع فيه بهجة ، وتبعث إلى القلب المسرة ، وإلى النفس الغبطة والطمأنينة ، ودعوت طفلى ومرييتهما ، فاستمتعا معى بهذه البهجة وهذا الجمال .

وهبطت إلى بهو الفندق فإذا صاحبنا الأقصرى جالس فى صدره ، وكأنه يتنظرنى . فلما رآنى أقبل على وحيائى وعلى ثغره ابتسامة عريضة . وشكرته وأثبتت على أزهاره وتحدثت إليه هنية حاولت الانصراف بعدها ، فاستوقفتنى وقال إن عربته تحت تصرفى ، لأزورها آثار الأقصر جميعاً ، وإنه يسر إذا قبلت مصاحبته إياى فى زيارة معبد الكرنك ، ليشرح لى من أسراره ما لا يعرفه أقدر التراجمة من أبناء المدينة . فشكرته واعتذرت له أن لى اليوم شواغل تحول دون مغادرتى الفندق إلى زمن طويل ، وإنى مضطرة لذلك أن أرجئ زيارة الآثار إلى يوم آخر . وقبل اعتذارى فى لطف وأسف ، ثم قال إن صديقتى لا تبرح « وتر بالاس » اليوم ، لأنها تريد أن تستريح من مشقة زيارتها ببيان الملوك أمس .

وانصرف الرجل ، وخرجت أرى طفلى فى فناء الفندق وحديقته .

ثم إنني اصطحبتهما ومرييتهما إلى حديقة « وتر بالاس » . وهناك أقيمت
صديقتي ممددة على كرسي طويل . وفي يدها قصة تقرأها . فهي لم تكن
تطيع أن تقرأ من الكتب غير القصص ، واتجهت نحوها فلما دنوت منها رفعت
بصرها عن كتابها ثم قامت وحينئذ ودعت البستاني فجاء بكرسي طويل آخر
تمدت عليه . إلى جانب كرسيها ، فلما استقر بنا المجلس اتجهت إلى
بنضرتها الثالثة وقالت :

« خبريني ! . . ماذا فعلت بهذا الأقصرى ؟ ! . . لقد سحرتك سحراً ،
بل جن بك جنناً . . إنني لم أره قط . كما رأيته أمس بعد أن غادرتنا . .
لقد انقلب على حين فجأة شاعراً مقلماً ، فنظراتك ، ولفطاتك ، وحديثك ،
وهندامك . ورتبك . ولا أدري ماذا كذلك كانت مدار حديثه طول سهرته !
ولقد سهر طويلاً وأسهرني معه : ولم يكن يتابع بنظراته الحائرة حركة الرقص
على عادته . فقد كان في شغل شاغل عن ذلك كله بالحديث عنك ، عنك
أنت وحدك حتى خيل إلي أنه يعرفك من زمن وأن يسنكا مودة ، فلما أخبرني
أنه رآك أمس أول مرة وأنت معي ، . . تولتني الحيرة : أي طلسم تحملين
أضله عن صوابه كل هذا الضلال ؟ » .

وتبسمت ضاحكة من قولها وقلت :

« أنت تبالغين يا عزيزتي . وإن هناك لطاراً من الرجال ذلك شأنهم
حين يرون امرأة لأول مرة ، وما يدريك لعل هذا الأقصرى يوم رآك للمرة
الأولى قد قضى سهرته حديثاً عنك ، وقضى ليله تفكيراً فيك ، وهو لا ريب

قد حمل إليك صبح الغداة من ذلك اليوم طاقة كبيرة من أزهار جميلة شبكت بها بطاقته ، ووضع تحت تصرفك عربته تزورين بها الآثار ، واستأذنتك في أن يصحبك إلى معبد الكرنك ، ليشرح لك من أسراره ما لا يعرفه أحد الرابضة في المدينة .

وقالت صديقتي :

« بل أنت التي تبالغين ، صحيح أنني تلقيت غداة وصولي إلى هنا ومقابلته إياي للمرة الأولى طاقة من الأزهار ، لكنها لم تكن كبيرة ولم تشبك بها بطاقة ما ، وهو قد صحبني إلى الكرنك ، لكنه لم يصحبني وحدي ، بل كنا جماعة من زوار الأقصر رجالا ونساء ، وكان أكثرنا من الأجانب ، وكان معنا ترجمان تولى الشرح ولم يتوله غيره ، أما عربته فإنه يتلطف بإرسالها إلي كلما ذكرت له أنني ذاهبة إلى نزهة خلوية ، أثرية أو غير أثرية ! . . » .

سمعت ذلك فغضبعت فشتان بين ما ذكرته صديقتي وما كان معي ، وصديقتي جميلة حقاً ، فارعة القوام ممثلة في غير سمعة ، في عينيها حور وفي نظراتها سحر ، إذا مشت لفتت مشيتها النظر ، وإذا ابتسمت أسعدت ابتساماتها جلسها . وهي مؤمنة بجمالها وبلغته على كل من يراها ، وهي مع ذلك تذكر لي من أمر الأقصر ما ذكرت ، ليس الجمال وحده صاحب السلطان إذن على الرجال ، فهذا الأقصر الذي سحر في لحظات - بحديث عن جمال بلده - يستطيع أن يقرأ مثله أو يخبراً منه في الكتب ، ويستطيع أن يسمع مثله أو يخبراً منه من غيري ، قد سحره لا ريب شيء آخر غير الألفاظ التي اشتمل عليها الحديث ، وهذا الشيء الآخر هو سر السحر الذي يهر كل

من يسمعى ، هو سرى أنا . سر السلطان الذى أحسه . ولا يحيط انتحير
بكل مصدرة .

ولكن من هذا الأقصرى الذى ضقت أمس بحديثه حتى تخرجنى الغبطة
بسحره فى عن موجب الرزاة وحسن التقدير ! . لقد أحسنت صنعاً بالاعتذار
عن مصاحبه إياى إلى « الكرنك » . وخير لشابة مثلى أن تلزم جانب اليقظة والحذر .
مرت هذه الخواطر بنفسى فى مثل لمح البصر ، فلم تلحظ صديقتى
شيئاً منها . واستطرد بنا الحديث وأنا إلى جانبها فى شئون وشجون . بعد أن
قصت على فى إيجاز مشاهداتها فى آثار الأقصر وبيان الملوك وبيان الملكات ،
وإننا لى حديثنا إذ مر بنا أجنبى وقف إلى جانبها فحياها بيده ، وحياتى بإشارة
من رأسه . وتحدث إليها لحظات حديثاً عادياً ، دعاها بعده ، ودعانى
وإياها ، لتناول الشاى ثم انصرف . وذكرت لى صديقتى بعد انصرافه أنه
ألمانى مذهب مشغول بالآثار ، وأنه يحضر إلى الأقصر كل شتاء منذ سنوات
لمتابعة أبحاثه ، وأردت منها أن تعتذر إليه عن عدم قبولى دعوة لم توجه لى ،
إلا لوجدى معها ، فابتسمت وقالت :

« من يدرى ! . . لعلها وجهت إلى أنا من أجلك ، وعلى أية حال لا ضير
عليك من قبيلها ، وأؤكد لك أنك لن تأسى لمعرفة هذا الرجل ، فهو مهذب
واسع الأفق والثقافة ، حلو الحديث ، لطيف المجلس ، وهو لا يقيم بهذا
التندق . ولا يكثر التردد عليه ، ولم أره هنا يومين متعاقبين منذ جئت إلى
الأقصر . لهذا أرجوك أن تكونى معنا هنا ساعة الشاى ، ولك أن تعتذرى
وتنصرفى بعد قليل من تناوله ! . . . »

وألحت الشابة الجميلة فنزلت على رجاها ، وجئت للموعد فألقيت الرجل قد حجز لنا مائدة وجلس إليها ينتظرنا ، وأقبلت صديقتي وطلبنا الشاي وأخذنا نتحدث . وعلم مضيفنا أني جئت الأقصر لأول مرة في حياتي . فأخذ نفسه بأن يرسم لي - من هذه المدينة الصغيرة التي كانت من قبل عاصمة القراغة - صورة تحييا أمام خيالي في عهد عزها وجلالها ، وتصفها في حاضرها بعيدة كل البعد عن هذه العزة وهذا الجلال ، لولا معبدها الضخم القائم على شاطئ النيل الأيمن ، ولولا القبور العجيبة التي نحتها القراغة مقراً لحياتهم الآخرة في جوف الهضاب الناتئة على الشاطئ الأيسر . وأخذ يتحدث في هذا حديث علم ساحر الحديث طيلة تناولنا الشاي . فلما فرغ من القول شكرته ثم أبدت له عجي من أولئك الأقدمين ، كيف تحيلوا حاجة الروح بعد الموت لطعام هذه الدنيا ومتاعها ، حتى كانوا يدفنون مع الميت القمح والزهر والحلي ، وما إلى ذلك من ألوان المتاع ، وانتقلت من هذا الحديث إلى غيره ، وإلى غيره ، وجعل هويجيني إلى ما أسأل عنه . وطاب لي المجلس فلم أعتذر ولم أنصرف ، بل أقمت أستمتع بحديث مضيفنا وبأنغام الموسيقى ، حتى لم يبق في بهو الفندق معنا إلا نفر قليل . عند ذلك قلت مبتسمة :

« أظن أنا لم يبق لنا من الانصراف بد ، وأنا أشكر صديقتي وأشكرك يا سيدى ، وأستأذنكما في العود إلى فندقى » .

قال الألماني :

« أو تأذنين يا سيدتى أن أصاحبك إلى هناك فالطريق طريقى وأنا أقم

على مقربة من فندق الأقصر . وانتقل الحديث في أثناء الطريق من القراعة إلى مشاهداتي في أوروبا . وأصغى الرجل لحديثي عن جمال سويسرا . ثم سألتني عما إذا كنت قد زرت ألمانيا . وأبدى الأسف حين قلت إنني لم أزورها . وذكر أنه سيكون في برلين الصيف المقبل ونحني لو التقينا بها وتعرف إلى زوجي هناك .

نزلت صبح الغد إلى هو الفندق . فألقيت صاحبنا الأقصري في مكانه لأمره . وأقبل عليّ حين رآني وذكر لي بعد التحية أن الأثرى الفرنسي ، الذي يشرف على عملية التنقيب بالكرنك ، ويقم في منزل تجاه المعبد ، يقيم اليوم حفلة شاي . وأنه علم بمقدمي من مصر . فأبدى الرغبة في حضوري هذه الحفلة والاستعداد للمجيء إلى الفندق لدعوتي إذا كنت مستعدة لقبولها . وتحدث الأقصري عن هذا الأثرى الفرنسي ، مثنياً على أعماله ، مجبداً قبيلي الدعوة . فلما أبديت أنني لا أرفضها قدم بطاقتها باسمي ، قلت : لا داعي إذن لتجشيم الرجل مشقة الحضور بنفسه . فبدت على محيا الأقصري علائم الغبطة . وقال :

« سأصحبك إذن في عربتي إلى هناك » .

وذهبتا بعد الظهر معاً وتم التعارف بيني وبين الفرنسي وسائر المدعوين إلى الحفلة . وبعد أن تناولنا الشاي ذهبنا في زيارة قصيرة إلى الكرنك ، رأينا خلالها ما أسفرت عنه عملية التنقيب . على أنني خرجت من هذه الزيارة القصيرة وأنا لا أكاد أصدق ما رأيت من جلال هذا المعبد وفخامته وعظمته . ورأى الفرنسي إعجابي فقال إنه يسر بمصاحبتني في أرجاء المعبد كله دليلاً

يشرح لي بعض أسرارهِ ، ونظرت إلى صاحبي الأقصرى مبتسمة ابتسامة من يسأل :

« أى الدليلين أختار ، هو أم المشرف الفرنسى على المعبد ؟ » . وجواباً على ابتسامتي وجه هو الحديث إلى المشرف قائلاً :

« متى قررت السيدة زيارة المعبد أحطتك تليفونياً وحضرت معها لأستفيد جديداً عن آخر ما وصل إليه تفنيك ! . . » .

قضيت أسبوعين على هذا النحو بالأقصر ، أستبشر كل صباح بمشاهدة طفليّ زادهما هذا الجو البديع نشاطاً وصحة . وأتفق مع الطاهى على ما سيقدم لهما من طعام ، وأقضى ما وراء ذلك متاعاً بنفسى وبصديقى وبمعارفى ، الذين ألقاهم فى حديقة « وتر بالاس » أو أجلس إليهم ساعة الشاي فى جهوها ، أو أزورهم بعد العشاء أحياناً قليلة ، أسمع موسيقى الرقص ، وأمتع النظر بحركات الراقصين . وفى هذين الأسبوعين زرت آثار الأقصر فى طيبة الأحياء ومقابر الفراعنة ملوكاً وملكات فى بيابنها ، وزرت الكرنك مع فوج من السائحين فى ضوء القمر ، وأشهد لقد كنت سعيدة بمن عرفت من الأحياء سعادتي بهذه المشاهد الخالدة الباقية على الدهر بقاء الدهر ، فكانت هذه وأولئك يشغلونى فى يقظتى وفى نومي ، لأننى لم يكن يشغلنى شيء سواهم ، ولأننى كنت فى هذه الفترة أقضى نهارى ولىلى كما يقضى السائحون نهائهم ولىلهم ، لا هم لهم إلا المتاع بالحاضر ، لا يشغلهم غدهم عن يومهم ، ولا يفكرون إلا فيما تقع عليه أنظارهم وما تلتهمه مشاعرهم وحواسهم ، وكذلك نسيت السلك الدبلوماسى ، ونسيت تحديد النسل ، ونسيت القاهرة : بل

نسيت أوروبا . لأن الحاضر أمامي كان يملاً فراغ وقى ، ولا يدع لى فرصة
للتفكير فى شىء غيره .

فلما صدمنى الواقع بأننا عائدون إلى القاهرة بعد غد ، شعرت كأننى
أفريق من حلم سعيد لذيذ . وكأننى إنما جئت إلى الأقصر لأمسى ، واستبد بى
هذا الشعور حين رأيت المرية صبح الغد تعد متاعنا للسفر . لم يبق لى إذن
إلا أن أودع كل ما رأيت ومن رأيت خلال هذين الأسبوعين السعيدين .
لم يبق لى إلا أن أودع هذه الغرفة التى احتوت أحلام يقظتى ونومى بفندق
الأقصر . وهذا الجو وقاعة الطعام ، وهذا الفناء . وهذه الحديقة ، ولقد
كانت ملعب طفلىٍّ ومهبط أشعة الشمس المحسنة إليهما ، وأن أودع حديقة
ونتر بالاس وبهوها وشرقها والنيل وبيان الملوك والملكات مما تطل هذه الشرفة
عليه . وأن أودع صديقتى وصاحبها الأقصرى وهذا الألمانى المثقف الظريف
الذى تردد علينا بضع مرات كنت أحس ، كل مرة منها بأنه أوسع ثقافة ،
وأكثر ظرفاً ! . . نعم . . لم يبق لى إلا أن أودع من رأيت ، وما رأيت ،
وأن أقول لهم ولها :

إلى الملتقى إن قدرلنا أن نلتقى ها هنا مرة أخرى ! . .

وخرجت إلى فناء الفندق أشرف على الطفلين حتى تنزل المرية إليهما
بعد أن تفرغ من إعداد المتاع ، واتجه نظرى إلى باب الفندق الخارجى
فبها وراء الحديقة ، ودارت برأسى خواطر مبهمة أوحى بها خلجات نفسى ،
ترى لو أننى جئت إلى هنا العام المقبل ، أترانى ألتقى بمن أودع اليوم ؟ . .
وابتسمت فى مرارة حين ارتسم أمام بصيرتى الجواب الطيعى لهذا السؤال :

نعم . . سارى الفندقين وحديقتهما ، وسارى النيل والمعابد . وقبور
الملوك والملكات ، كما أرى شمس الأقصر وقمرها .

أما صديقتى والأقصرى والألماني ومديرا الفندقين ومن إليهم من رجال
ونساء يقيمون هنا ، دعك من السائحين والسائحات : فلا علم لى ولا علم
لأيهم ما مصيره بعد عام ، بل بعد شهر ، بل بعد يوم ، فقد يرجع الألماني
إلى وطنه ثم لا يعود ، وقد يمرض أحدهم وقد يموت . ألا تَعْساُ لهذه الحياة
لا نملك منها إلا بخيال سريع التنقل سريع الزوال . . وما أشهاها مع ذلك
وما أَلذها وما أطيب ما نسيغه من حلول متاعها ! . . أتراها تكون كذلك لو أن
الأحياء كتب لهم البقاء كما كتب على المعابد والنيل والشمس والقمر ؟ . .
ونزلت المربية فركتها مع الطفلين ، وأخذت طريقى إلى حديقة « ونتر
بالاس » ، وهناك جلست أتحدث إلى صديقتى حديث الوداع . وإنا لكذلك ،
إذ أقبل الأقصرى فجلس إلينا يشاركنا فى هذا الحديث ، ثم قال ساعة
انصرافه إنه دعا الألماني ، كما دعا الفرنسى المشرف على أعمال التنقيب
بمعبد الكرنك ، لتناول الشاي معنا قبيل المغيب ليقوم الجميع بتوديعى .

واجتمعنا حول مائدة الشاي ، واستمعنا إلى الموسيقى ، وتحدثنا فلما آن موعد
انصرافى حيانى الفرنسى بكلمات تسيل رقة ، وتبني لى عوداً سعيداً إلى بيتى ،
وعانقتى صديقتى وتبادلنا قبلات حارة . . وقال الأقصرى إنه سيرانى مرة
أخرى على محطة سكة الحديد صباح الغد . أما الألماني فقد أصر على مصاحبتي
إلى فندقى ، فطريقى طريقه إلى مسكنه . فلما بلغنا باب الفندق وقف يودعنى
وأخرج من جيبه علبة صغيرة وقال :

أرجو به سيدنى أن تقبلى هذا التذكار الصغير لتعارفنا القصير . خلال
هذه الفترة المرحية ! . . إنه لا يعبر عما أشعر به نحوك من إكبار وتقدير فحسب .
ولكنه يذكرنى كذلك عندك كلما رأيته . . . وشكرته وفتحت العلبة قبل أن
يتصرف . فرأيت بها حلية صغيرة دقيقة الصنع غاية الدقة ، فلما أبديت
إعجابى بها قال :

« لقد صنعتها بنفسى . وإن لم تكن صياغة الحلى صناعتى » ، ثم ودعنى
وانصرف .

وفى الصباح الباكر جاءت عربة الأقصرى فانتقلنا بها إلى المحطة فإذا هو
يتظرنا على إفريزها . فلما آن لنا أن نستقل القطار وصعد إليه الحمال بمناعنا
رأيت مع المتاع زنبلا أشار إليه الأقصرى وقال :

« إنها هدية صعيدية لا تليق بالمقام ، تأكلونها شفاء وعافية » ! .

وانطلق بنا القطار . وأنا وحيدة فى الديوان مع طفلى ، أستشعر رهبة ،
ولم أشعر بحاجة إلى دفاع . وغلب النوم الطفلين لتبكيرهما فى اليقظة ، فاستلقى
كل فى ناحية . ورحت أنا يتردد خيالى بين الأقصر ومقامى بها ، والقاهرة
واقبالى عليها ، لكنى ما لبثت بعد قليل أن نسيت القاهرة وتعلقت بالأقصر ،
ذلك أننى حانت منى التفاتة إلى مناعنا فأخذ الزنبيل بنظرى ، وأحيا صورة
الأقصرى فى ذهنى . وأحيا صورة بلده . ودفعنى منظر الزنبيل ، وتوهم ما فيه
إلى المقارنة بينه وبين الحلية التى أهدانها الألمانى ، وبين ذوق كل من صاحبي
المهيتين . وأدب فى هذه المقارنة إلى أن أسأل نفسى :

أفكان من حق أن أقبل أيا من المهيتين ؟ . . صحيح أن هدية الأقصرى

قد زج بها بين متاعى من غير عنسى . وأنها فوق ذلك طعام لن يبق له غداً
أو بعد غد أثر . وأستطيع إذا سألتى زوجى أن أذكر له كل شيء عنها . .
ولكن ماذا عساي أقول إذا سئلت عن هدية الألمانى : وكيف سئلت لى
نفسى قبولها ؟ . .

وأعترف ، لقد بهت وتولتني الحيرة . حين أردت الجواب على هذا
السؤال . . وفى الحق كيف قبلت هذا التذكار ؟ . . وكيف جرؤ الألمانى على
تقديمه لى ؟ . . وما معنى هذا الصنيع من جانبه ؟ . . ليس للتذكار قيمة مادية
ذات شأن : لكن تقديمه إلى ساعة توديعى مشفوعاً بالعبارات التى نطق بها
كان يوجب على أن أتدبر الأمر أكثر مما فعلت ، وأن أشكر وأعتذر عن عدم
قبول هذا التذكار . . ولكن بماذا كنت أععل اعتذارى ، من غير أن أحل
بواجب الأدب والمجاملة ؟ . . إن الرجل لم تبدر منه فى كل المرات التى جلس
إلينا فيها أية بادرة لا ترضاها أدق قواعد اللئوق ، وعبارته الأخيرة أنه يقدم
لى هذا التذكار ، لما يشعر به نحوى من إكبار وتقدير ، عبارة مختارة أدق اختيار .
فلو أننى اعتذرت ولم أقبل تذكاره ، لكان اعتذارى جافاً لا يصلح عن إنسان
مهذب !

لكن ما عساي أن أقول لزوجى حين يرى هذا التذكار ؟ وهلا أقص عليه
أنباء جولائى ، وكل ما رأيت فى الأقصر . وأنا إنما سافرت إليها من أجل
ابتنتا لتنام برثها ؟ إن هذا التذكار ليفتح على أبواباً ما أغنانى عن فتحها .
أفأخفيه عن زوجى تخلصاً من كل سؤال وجواب ؟ إن كبريانى وكرامتى
لنأيان ذلك على ، لأننى لم أرتكب إنما فأفسر عليه . . ولكن هلا يبسر هذا

تذكاري في نفسه من الغيرة ما قد ينجني على مودتنا وعلى حبنا المتبادل ثم يعذروا كل إنسان عن غيرة - وإن لم يكن لي في ذلك ذنب ولا جريمة . .

جعلت أقلب هذه الأمور في نفسي . والقطار ينهب بنا الطريق إلى العاصمة . فلما بلغها ألقيت زوجي في انتظارى على المحطة ، ولحت في نظراته وهج الشوق العنيف . وخيل إلي أنه يريد أن يتلغى ابتلاعاً . لكنه اكتفى بتقيل الطفلين وإظهار الرضا عن صحتهما . فلما دخلت منزلنا وأزلت عنى غبار السفر ولباسه . وترزنت للنوم . وأوى الطفلان إلى مضجعهما ألقيت بنفسي بين أحضانه وسكبت في فمه كل ما اجتمع في جسمي . وفي قلبي . وفي عواطفى . وفي وجودى كله مدى وجودى بالأقصر من مشاعر وإحساس . وتلقى هو قلبي فزادته شوقاً لي . وأذبت نفسي وروحي فيه ، وانتشرت بذلك في كل وجوده . فلما آن لنا أن نتحدث لم نجد ما نقوله . إننا كلينا هنا وكفى . . وبعد ألفاظ قليلة مبعثرة تبادلناها قال :

أحسبك متعبة من مشقة السفر طول النهار . . فليد عليك النوم راحتك وطمائنتك . . ولتحدث غداً عن الأقصر وما كان فيها . .

واستيقظت صبح الغد في ساعة متأخرة فألقيته ذهب إلى عمله وعدت أفكر فيما كان يشغلني وأنا بالقطار فقلت : يجب أن أقص عليه كل شيء . . ويجب أن أذكر له الأملاني وتذكاره . . إن ما شهدته منذ بلغت القاهرة ليدلني على أن لي عليه من السلطان ما كان لحواء حين أغوت آدم فأكل من شجرة الخلد . وسأرى ما يكون لذلك من أثر ثم أنصرف .

وعاد من عمله مبكراً وقبلني قبله شدة من عزمي . فلما جلسنا سألني

وعلى ثغره ابتسامة الرضا عما رأيت وصنعت في الأقصر ، فذكرت له صديقتي التي مات زوجها ، فاستول أهلها على تركته ، وذكرت كيف كان يجتمع إلى مائدتها « بونتر بالاس » قوم أولو ظرف وكياسة . يتناولون الشاي ويتحدثون ، منهم الأقصري الذي أهداني الزنبريل ساعة سفرى ، ومن هديته سنتناول طعامنا بعد هنيئة . ومنهم ألماني مهذب واسع الثقافة ، كان قليل التردد علينا ، وقد قضى عليه ظرفه ساعة ودعنى أن يهديني تذكاراً دقيقاً من صنع يده . وفتحت العلبة الصغيرة التي احتوت التذكارات وأربيتها لزوجي ، فلما رأها قليلة القيمة المادية لم يبد اهتماماً بها . وذكرت الأثرى الفرنسي المشرف على أعمال التنقيب بالكرنك . ثم ذكرت الكرنك وما تركه في نفسي من أثر عميق حين زرت مع صحبة في ضوء القمر ، وبيبان الملوك ، وقبر توت عنخ آمون ، ومقابر الملكات ، وذكرت ذلك كله وذكرت النيل ومغارب الشمس البديعة ، وأخذت أتحدث وأتحدث وهو يصغى إصغاء مأخوذاً من سحر حديثي . ثم ختمت الحديث بأني كنت أغتبط بذلك كله ، ثم أزداد غبطة حين أستيقظ في الصباح ، فأرى طفلينا يزدادان نشاطاً وصحة ، ويزيدانني بذلك هناءة وسعادة ، ويجعلان من مقامنا بالأقصر فلذة من نعم ، كان يضاعف لو أن والدهما كان معنا يستمتع بمناعتنا ، ويزيدنا سعادة بمناعتنا ! . .

قبلي زوجي حين فرغت من حديثي ، وشكر لي عنايتي بالطفلين ، ثم قمنا وتناولنا غذاءنا ونخلوت بعد ذلك إلى نفسي راضية عن نفسي . هانئذ لم أخف شيئاً عن زوجي ، وما هو ذا مطمئن مغتبط ، وهذا طبيعي . فلا جناح على امرأة إذا رأى الناس فيها جاذبية أدت بهم منها وجبت إليهم

مجلسها . أوراوا في حديثها ما أخذ بسمعهم وأبصارهم . . فم إذن كان ترددي وأنا بالقطار ؟ . . وفيهم كانت خشيتي أن أثير هواجس الرجل أو أثير غيرته ؟ . . إتنا كثيراً ما نجسم أمام خيالنا أموراً لا جسامه في الواقع لها ، وكثيراً ما نضطرب أمام اعتبارات لا شيء فيها يوجب الاضطراب .

على أنني ابشمت بعد هنيهة في نفسي وتساءلت :

أكان الأمر يتم بكل هذا اليسر لولا أنني سكبت في جنان زوجي كل ما اجتمع في جسمي وفي عواظي ، وفي وجودي كله ، من حس ورغبة ، ولولا أنني أذيت نفسي وروحي فيه ، وانتشرت في كل وجوده لأول ما خلوت إليه بعد أن بلغنا القاهرة ؟ . . وهل كان الأمر يتم في مثل هذا اليسر لولا لواعيج الشوق التي كانت تحرك كل روحه وكل عصبه ، ولولا ما يكن قلبه من حب فرض عليه كل سلطانه ؟ . . إن شوقه وجهه هما اللذان نصراني بعد أن أرضيتهما بكل ما ينطوي عليه وجودي من أسباب إرضائهما ، وبعد أن تعاونت أسباب هذا الإرضاء في ذكاء ومقدرة فلا أعطت حق نفسي ، ولا أهون من قدر سلطاني القاهرة ، فلولا هذا السلطان لواجهت اليوم موقعاً ما أدقه وأعسره ! . .

وتعاقبت الأيام وأقبل الصيف وفكرت في السفر إلى أوروبا . ولم أكن في ريب من إجابة زوجي رغبي . فقد رضى سلطاني وأقره وخضع لحكمه يرغم ما كان يبدو أحياناً من تحكه ، لأنه رأى في هذا التحكم لونا من دل المحب يزيد إغراء . على أن أمراً حدث حال دون هذا السفر ، فقد مرض والدي واشتد به المرض حتى كان الأطباء يعدونه صباح مساء ، وكان زوجي

هو المشرف على تنفيذ العلاج الذى يقررونه ، فلم يكن مستطاعاً أن ندعه فى علته ونسافر إلى ربوع الاصطياف والتسلية . فلما برئ كان الصيف فى مولياته ، ولم أكن أحب الإسكندرية منذ سافرت مع والدى إليها بعد موت أمى ، لذلك استقر مقامنا بالقاهرة حتى إذا كنا فى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر رأى زوجى أن من حى أن أسترىح ، فاقترح أن أذهب مع الطفلين والمرية إلى الأقصر كما فعلت فى العام الماضى . وحجزنا أماكننا فى فندق الأقصر وسافرنا بقطار الصباح اتقاء برد الليل ، فلما بلغت الفندق وجدت الأقصرى والألماني فى بهوه . . وأقبلا مع مدير الفندق وقالوا :

لقد أخبرنا المدير بمجيئك فانتظرناك لنقول لك : حمد الله على السلامة . . ثم ذكر أن صديقتى نزلت « ونتر بالاس » وودعانى وانصرفا .

وذهبت مبكرة بعد ظهر الغد إلى « ونتر بالاس » فألقيت بهوها خالياً فتخطيت إلى شرقها وأدنى للنيل ولما وراه فى الجانب الغربى تحية إكبار وإجلال . ولم يطل وقوفى حتى رأيت الإنجليزية التى وقفت إلى جانبي فى العام الماضى تقبل على وتقول :

« هاللو ، أرايت أنك لم تستطعى مقاومة ما لهذا المنظر الساحر من سلطان فجئت حاجةً إليه هذا العام كرة أخرى . ذلك شأنى معه من أعوام عدة ، لا يكاد الشتاء يقبل حتى أشعر بدافع يجذبني إلى هنا لأؤدى لهذا المشهد القذو فرضاً ، حاولت غير مرة أن أتصل منه ، ثم لم أجِد مفرّاً من أدائه . وحديثي بربك ، أى شعور يملكك حين تهبطين مئات الدرج إلى قبر فرعون نقش جوانبه بطلاسم « كتاب الموتى » ، ثم ترين مكان تابوته أوبقية من آثاره ! . .

إن التربة التي تملكني في تلك اللحظات لتريني العالم الآخر وتريني ملكوت
السموات . ألا ترين أنت أيضاً شيئاً من ذلك ؟
وأجبتها :

« إنني لم أتردد بعد على تلك المقابر ما ترددت لأرى فيها ما ترين . .
إنما ملكني شعور العجب كيف ينشق هؤلاء الملوك . كل ذلك الجهد ويسخرون
في سبيله ألوف العمال وعشرات آلائهم . لينقروا في جوف الصخر قصور
قبورهم ! . . » قالت - وفي لمحجتها شيء من الإنكار على :

« كلا ياسيدتي . لا تقول هذا الكلام ، فلو أنهم لم يفعلوا لما خلدوا
للأجيال المتعاقبة على الدهر هذه الآثار الباهرة الضخمة ، التي تحدث عن
حضارة روحية أضعافها علمنا المادى الأحمق ! . . إن هؤلاء الأقدمين في
مصر والهند والصين قد هدتهم حكمتهم ، وخلدوا من آثار علمهم وقهرهم وحضارتهم
ملا قبل لعالم اليوم بمثله ! . . إنهم كانوا يعيشون مطمئنين إلى خلد أرواحهم
فكانوا يقيمون لهذه الأرواح المقر اللائق بها ، أما نحن فنعيش في عالم
مضطرب سريع التغير لا نستطيع أن نملك منه بمعنى من معاني البقاء ،
وحسبنا لذلك منه حياتنا على الأرض وما أقصرها ، وما أنفه ما تكسبه
أرواحنا في أثناءها ! . . وإني لأشعر يوم نلتقي هؤلاء الأقدمين في ملكوت
السموات أنا سرى أنفسنا أقراماً إلى جانبهم ، ونرى حضارتنا هباء إلى جانب
حضارتهم » .

واستأذنت محدثتي وعدت إلى بهو الفندق وجلست إلى مائدة في أحد
جوانبه ، وبعد قليل رأيت صديقتي قادمة من ناحية المصعد فقامت إليها ،

وتهادينا التحية ، وجلسنا حول المائدة وعدنا إلى مثل حالتنا منذ عام ! . .
 وإنا لكذلك إذ جاء الألمانى ووقف هنية يتحدث إلينا ثم انصرف معتذراً
 بأن لديه موعداً لا فكاك له منه . قالت صديقتى : « خبرينى . . ماذا صنعت
 بهذا الرجل ؟ إن الأقصرى ليدكر أنه مجنون بك ، وإنه يقول إنه يرى الله
 فى السماء ويراك على الأرض . . » فضحكت ضحكة ذات مغزى وقلت :
 « وهل تصديق الأقصرى ، لعله يرانى أضيع به أحياناً ، وأنى أجامل
 هذا الألمانى ، فدفعته الغيرة لأن يقول لك ما قال . إتنى لم أر هذا الألمانى فى
 العام الماضى إلا معك ، وكنت أراه معجباً بك . وما أحسب الأقصرى يريد
 بكلامه لك وقعة بيننا ! . . »

قالت صديقتى :

« لا أظن بالأقصرى هذا الظن . والألمانى رجل مهذب وقي . ألا ترين
 أنه كان يأتى إلا أن يرافقك إلى الفندق كل مرة يجالسنا فيها ، فكان يدعنا
 وينصرف معك حتى لا يدعك تسيرين وحلك . »

ولم أر أن أجيب فانصرفت بالحديث إلى موضوع آخر .

لست أنكر أنى اغتبطت فى دخيلة نفسى لما ذكرته صديقتى عن عواطف
 الألمانى نحوى ، لكنى رأيت أن أقطع عنى ألسنة المتكولين بالتزام جانب
 الحيطة والحكمة ، فكنت إذا أردت الانصراف وهو فى مجلسنا ، دعوت
 سيدة تقيم مثلى بفندق الأقصر ، ولو كانت على مائدة غير مائدتنا ، لنعود
 بعد ذلك إلى الفندق معاً ، فلا يفكر هو فى مرافقتى ، فإن فعل لم يكن
 لصديقتى ولا للأقصرى ولا لغيرهما أن يقولوا شيئاً .

ورأيت يوماً زوج صديقة لى ، كنت أعجب بمنطقه ، وكنت أعلم أنه يتزنى وتربى بالاس . فلما رآنى جاء يحينا فاستبقته هنية ثم قلت : « حان موعد ذهابى إلى فندقى » . وقلتها بلهجة فهم منها أنى أريد مرافقته أينى . وكان ذلك بالفعل قصدى إبعاداً لشبهة الألمانى . وصحبنى زوج الصديقة وهبطنا الدرج إلى الحديقة والوقت قد أمسى والظلام مد رواقه . وعثرت قدمه ، فقال وكأنا يعتذر عن عثرته :

« تبا لإدارة هذا الفندق . ما ضر لو بعثروا بين أشجار الحديقة بعض الثريات الكهربائية ؟ » . . . وبدرمنى عن غير عمد أن قلت :

« يا عييط ! » . . . ولم ترضه كلمتى فلم يسكت عليها بل قال : « لولم تكونى زوجاً لصديقى ! ! » ، ولم أجب للحظى ، ولولا الظلام لبدت على وجهى حمرة الخجل . . . على أننى قلت بعد برهة : « مالكم معشر الرجال تسرعون إلى سوء الظن حين لا يكون لسوء الظن موضع ؟ » . . . ولم يرد هو متابعة هذا الحديث فأداره بذكاء إلى اتجاه آخر .

ويظهر أن الألمانى فطن لحذرى وأراد التغلب عليه ، فقد صادفته يوماً ساعة نزولى من غرقى لأذهب إلى موعد الشاى « بوتير بالاس » . فلما رآنى تقدم إلى ، وحياى فى لطف وأدب وقال :

جئت أدعوك لقضاء النهار بعد غد فى البر الغربى حتى تشهذى ما تجربه مصلحة الآثار فى الدير البحرى ، وستتناول طعام الغداء هناك . وبدت على الحيرة ، فلم يدع لى فرصة للاعتذار بل قال :

« وقد لاحظت ما بدا من حذرك هذا العام ، فدعوت صاحبنا الأقصرى

ليكون معنا ، وقد رجونه أن يمنح صديقك بمرافقتنا كذلك !
قلت :

إن كان الأمر كما تقول فأنعم بها من صحبة ! . .
قال وكأنما صفته عبارتي :

« لست أفهم يا سيدتي حزنك هذا . فهل بدرمني ما يوجب الريبة ؟ . .
وهل سمعت مني كلمة خدشت سمعك ؟ . . أم أن ذنبي بل جرميتي أنتي
معجب بك إعجاباً لا حد له ، معجب بكائك ، وبروحك المضيفة ،
وبحديثك الساحر ، وبكل شيء ؟ . . »

« ومتى كان الإعجاب جريمة يجزى مجزافها هذا الجزء القاسي ؟ . .
هأنذا صارحتك بما يلور في نفسي نحوك من عاطفة ، لن تزداد على الأيام
إلا سموً ، ولست أنا وحدي الذي ملكني الإعجاب بك ، فكثيرون ممن
رأوك أو استمعوا إليك يعجبون كيف يكون فندق الأقصر أو فندق وتر بالاس
مسكناً لملك مثلك . ولو أن ذلك كان سائغاً لشادوا لك قصرأ يعجبون
إليه كلما نزلته ، فأمثالك اللاتي وهبن القدر ما وهبك يا سيدتي قليلات ،
فلا تسرفي في التواضع ولا تجعلي من إعجابي بك جريمة تقتضي الحزن مني
والبعد عني ! . . إنتي لا أريد أن أسمع منك جواباً على ما قلت ، فإلى بعد
غد ، بعد فطورك ، إلى الملتقى ! . . » . وتركني وانصرف .

وتولتني إثر هذا الحديث الذي يكاد يشبه الاعتراف دهشة أذهلتني ،
فبقيت مستلقية في مقعدي مضطربة النفس ، لا أدري ماذا عساي أفعل ،
فلما هدأت قمت متحاملة على نفسي إلى « وتر بالاس » وجلست مع

صديقى . وسرعان ما جاء الأقصرى . وبعد هنية غمز بعينه وقال :

« نحن إذن ضيوف الألمانى بعد غد إلى الجانب الغربى . لنرى الدير
البحرى وما يجرى فيه » .

وقالت صديقتى :

« وقد ألح صاحبنا هذا على لأقبل الدعوة برغم علمه بأننى شهدت من
الآثار مالا حاجة لى بعده أن أشهد جديداً . »

قلت فى هدوء متكلف :

« لقد كنت موشكة أن أعتذر لولا حرصى على صحبتكما . فإن شئنا
اعتذرنا جميعاً ، ولا يزال فى الوقت متسع » .

قال الأقصرى متحمساً : « كلا ياسيدتى . إن اعتذارنا يسىء إلى رجل
رقيق مهذب جاملنا بدعوته إيانا . ولم يسىء قط إلينا وأنا موثق أننا سنقضى
بعد غد يوماً من الأيام التى لا تنسى ! » .

وقضينا بعد غد يوماً بالفعل لا ينسى . كانت الشمس محسنة كعادتها ،
وكان الهواء ناعماً رقيقاً ، ونحطينا النيل فى زورق شراعى انساب على هون فوق
مياهه الهادئة المطمئنة ، ودربنا بين آثار « طيبة الأموات » ونماثيلها ومقابرها ،
حتى إذا انحدرت الشمس شيئاً ما بعد الزوال تناولنا غداءنا فى استراحة
تلك ، وذهبنا بعد ذلك إلى الدير البحرى ، فتلقنا القرنسى الذى يقوم
بالأعمال هناك ودار معنا فى أرجاء الدير ، وأرانا فى مخزن إلى جانبه بعض
ما عثر عليه فى أثناء حفرة وتنقيبه ، وكان يشعلنا طول نهارنا جو مودة أذهب
عنى الحذر ، وجعلنى أشكر الألمانى من كل قلبى أن هيا لنا فرصة هذا اليوم

الممتع الضريف ، وكان الأقصرى يتعد عنا أحياناً مع صديقتى فلا أضيق بذلك ولا أنكره . إن ما صبه الألمانى فى سمعى من آيات إعجابه قد صادف هوى فى قوادى وأرضى كبريائى ، وهو اليوم سعيد بصحبتى . يريد أن يسمع منى أكثر مما يريد أن يتحدث إلى ، وأنا ضئيلة بالكلام وهو راض مع ذلك كل الرضا بما أقول ، ويرتد الأقصرى مع صديقتى إلى ناحيتنا فتتولاهما الدهشة لصمتنا ، لأنهما لا يدركان المعنى الإنسانى السامى الذى تنطوى عليه جوانحنا والذى يقرب بين روحينا وعقليتنا ، وإن لم تضطرب بسببه ذرة من أعصابنا أو جسدنا .

وعدنا حين قاربت الشمس المغيب فأقلنا الزورق إلى ونتر بالاس ، ورافقتى الألمانى إلى فندق الأقصر بعد أن اعتذرت لصديقتى بأنتى متعبة شديدة الحاجة إلى الراحة . واحتوتنى غرقى فأزلت عنى غبار النهار . واستلقيت على سريرى أستعيد صور هذا اليوم الجميل السعيد ، وهذه الصورة اتصل الحديث الذى صبه الألمانى فى أذنى أول أمس فازددت غبطة وسرت فى عروقى نشوة أشعرتنى الرضا والنعيم ، وتناولت طعام العشاء فى غرقى وأويت من جديد إلى فراشى كأنما أريد أن أستعيد هذه الصورة المنعشة المسعدة ، وارسم خيال الألمانى وراء هذه الصور كأنه يحركها ، وأغضت جفنى لعل أنام فإذا النوم يحفونى ، وإذا هذه الصور تزداد وضوحاً أمامى ، وإذا بى أشعر كأن هذه الصور تنحدر بى إلى لون من الحس يقشعر له بدنى ، ويضطرب به تفكيرى . وطال ذلك بى إلى ساعة من الليل لم أدر ما هيه ، وأخيراً غفوت ويظهر أننى قد طالت غفوتى ، فقد صحوت فإذا الأطفال هبطوا مع مريتهم

إلى الحديقة . ودعوت الخادم فأقبلت تسألني ما بي ؟ ثم أحضرت لي طعام فطوري ووقفت إلى جانبي تطمئن على صحتي . وهبطت إلى البهو . وطلبت زوجي بالقاهرة تليفونياً ، ومكنت سوية أنتظر دعوتي لمحدثته .

وإنما طلبت زوجي لأنني شعرت بالحاجة الماسة إلى سماع صوته ، بل شعرت بالحاجة الماسة إلى وجوده بجانب . لقد رأيت في أثناء غفوتي أنني علوت أعلى هضبة في الشاطئ الغربي ، وأن ريحاً عاتية هبت ساعة المغرب فدفعني أتدحرج على سفحها ، وأصبح بأعلى صوتي فلا يتقذى أحد ، ولعل هذا الصباح هو الذي دعا الخادم لتسألني عن صحتي وما بي ، وجعلت أتدحرج وأتدحرج ، وأصبح وأصبح ، ثم إذا يد محسنة وصدر حنون تلقائي . ونظرت إلى صاحب هذه اليد وهذا الصدر فإذا هو زوجي ، فلما استيقظت صممت على محادثته ودعوته ليجيء إلينا . . .

ودعيت لمحدثته وسمعت صوته يسألني في ارتعاج :

« كيف أنتم ؟ ماذا حدث ؟ . . لماذا طلبتني ؟ ! » قلت : « كن مطمئناً ، إننا جميعاً على خير ما تحب ، لكنني شعرت منذ تركت القاهرة أننا ظلمناك . فأنت أخرج إلى الراحة منا ، إنك لم تسرح طول الصيف ، فاحضر إلينا فاقض معنا أسبوعاً فالجو هنا كفيل بأن يعيد إليك طمأنينة نفسك وراحة أعصابك ، وحسبك أن ترى الأطفال يرحون سعداء فتكون سعيداً بهم ، وبى ، فتى تحضر ؟ . . خبرني لأخطرهم هنا في الفندق » . . قال :

لا شيء أحب إلى من أن أراكم هائنين سعداء ، وسأحضر بعد يومين بالقطار الذي يصل الأقصر بكرة الصباح . وماذا تريدن أن أحضر لكم من

القاهرة ، لك وللأطفال ؟ . . وشكرته وقلت له :

إلى اللقاء . . وانتهى حديثنا ، وأنا أسعد الزوجات .

وأسرعت إلى « ونتر بالاس » وأخبرت صديقتي بأن زوجي سيحضر بعد يومين ، وأذاعت صديقتي أنباء وعرفه كل معارفنا ساعة الشاي ، فلما أويت إلى مخدعي بعد السهرة تولاني العجب من نفسي ، فلماذا دعوت زوجي ؟ . . يجب ألا أعلم أحد أنني أنا التي دعوته ، بل يجب أن يعلموا أنه هو الذي قرر الحضور من تلقاء نفسه ، ويجب أن يفهم الألمان ذلك بنوع خاص حتى لا يظن أنني أردت أن أحتمي بزوجي منه . . ومن نفسي . . إن كبر يائي لتأني عليّ أن أضعف ، أو أن يتوهم أحد أنني عرضة لأن أضعف ، يجب أن أكون دائماً صاحبة الرأي ، وصاحبة السلطان ، وأن يستجيب الغير لإرادتي وسلطاني بدافع من أنفسهم ، ومن غير أن أطلب إليهم شيئاً طلباً صريحاً . فلما جاء زوجي بكرت لملاقاته ، وبعد أن تهادينا تحية كلها الود ، وبعد أن اطمأن إلى صحة الطفلين وهنأتهما قلت له :

« لقد فهم الناس هنا أنك أنت الذي أردت أن تحضر بدافع من عواطفك نحونا وشوقك لنا ، وراقى هذا الذي فهموا فلم أعرضه ، ولا شك في أن ما فهموا من ذلك يرضيك ويسرك ؟ . . » واغتنب زوجي لفهمهم الأمر على هذا الوجه وأكده لهم ، وأقام معنا أسبوعاً عدنا بعده إلى القاهرة ! . . وفي خلال هذا الأسبوع دعوت الألمان والأقصرى ودعوت صديقتي لتناول الشاي ولتناول العشاء معنا بفندق الأقصر ، وأعدت على مسامع زوجي أمام الألمان أنه هو الذي أهداني التذكارات الذي أريته إياه في العام الماضي . وطفنا

جميعاً معاً لنرى زوجي من آثار الأقصر ما لم يكن رآه . فلما اقترب موعد سفرنا وحانت لحظة استطاع الألماني أن يحدثني فيها على حدة قال : « أرجو أن أراك هنا العام المقبل . وأرجو أن تأذني لي إذا حضرت إلى القاهرة أن أزورك هناك » قلت :

« أولاً تريد أن ترى زوجي كذلك بالقاهرة ؟ » .

قال : « ذلك شأنك أنت . لكنني أصبحت أشعر أنه لا غنى لي عن أن أراك وأستمع إلى حديثك ولو مرة في كل عام . ولو اقتضاني الأمر أن أحج إليك كما يحج المسلم إلى مكة والمسيحي إلى بيت المقدس ، ليرفع إلى ربه دعاءه . كذلك أريد أن أرفع إليك في كل عام دعائي وآيات إعجابي صادقة خالصة لوجهك الكريم ! » .

ابتسمت ولم أجب أمارة أنني أغتبط بذلك ولا أعترضه ، وكفته ابتسامتي ، ليشكرني وليحمد لي أن لم أر في إعجابه إثماً يوجب التثريب عليه ! . . .

وعدت مع زوجي والطفلين والمرية إلى القاهرة وأنا معتبلة أشد الاعتباط بأن دعوته فحضر إلينا بالأقصر . ولم يكن مرجع غبطتي أنه حماني من ضعف نفسي ، نلم يكن أيسر عليّ من أن أتغلب على هذا الضعف ، وأن أخضعه لإرادتي وسلطاني ، لكن هذا الأسبوع الذي قضاه بالأقصر أتاح له فرصة لا يسمح عمله بأن يتاح له مثلها بالقاهرة أتاح له أن يرى إعجاب المعجيين بي ، أجنب ومصريين ، وأن يدرك أنني لست امرأة ككل النساء ، صحيح أنه يحبنى ويقدرني ويستجيب لكل رغباتي ، لكنه كان في حاجة إلى أن يرى

ما أرى ليزداد إكباراً لى ، وتقديراً لما يجب أن يكون لى فى الحياة من مكانة .
وليعلم أننى يوم أردت أن تنتقل إلى السلك الدبلوماسى إنما أردت أن أسمو
بنفسى وبه إلى هذه المكانة الواجبة لى وله !

أما وقد رأى بعينى رأسه هذه الهالة التى كانت تحيط بى فقد غفرت
لنفسى لحظة الضعف التى دفعتنى فطلبت مجيئه إلى الأقصر ، بل حمدت
هذه اللحظة واطمأن قلبى كل الطمأنينة لما صنعت فى أثنائها . وعاد زوجى
إلى عمله ، وعدت إلى حياتى الرتيبة المشابهة التى تبعث إلى نفسى السآمة
لولا هذان الطفلان العزيزان اللذان كانا مصدر سعادتى وهناءتى ، ولولا أننى
شعرت بأن زوجى قد تبدلت عواطفه نحوى ، فأصبح شديد الإعجاب بى ،
سريعاً إلى تلبية رغباتى فى إذعان جعله لا يناقشنى فى شىء ، بل يسبقنى إلى
ما أريد إذا بدرت منى أمانة تدل على إرادتى .

من ذلك أنه أظهر لى أن سكنتنا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث عن مسكن
ما أريد إذا بدرت منى أمانة تدل على إرادتى . من ذلك أنه أظهر لى أن
سكنتنا لم يعد يليق بنا ، وأنه يبحث عن مسكن يعجبنى . ومنه أن الصيف لم
يكد يقترب ، حتى رغب إلى أن أعد العدة لسفرنا إلى أوروبا ، وأن أعد
نفسى بنوع خاص للمكان الذى ينبغى لى فى المجتمعات التى نغشاها .

الفضل الخامس

قبل أيام من سفرنا إلى أوروبا صحبني زوجي إلى منزل مملوك لإحدى الدوائر الكبرى ، لأرى مبلغ صلاحه سكناً لنا ، وأخبرني أن الدائرة مستعدة أن تدخل عليه من الإصلاح كل ما تقدره ، وأنها ستقوم بهذا الإصلاح خلال الصيف ، فإذا عدنا من سفرنا ألقيناه معداً لانتقالنا إليه ، ويقع هذا المنزل في حي ممتد على النيل . وقد أعجبنى موقع المنزل وأعجبنى مجموع نظامه ، لكنني رأيت إدخال بعض التعديلات الجوهرية عليه ، كما أبدت اقتراحاتي في طلاء غرفه طلاء يوافق أذنا . وبعد الظهر عاد زوجي فأخبرني أن الدائرة قبلت اقتراحاتي كلها ، وأنه أمضى العقد معها ، وعهد إلى صديق قديم لنا أن يشرف على إجراء الإصلاح في أثناء غيابنا .

وكنت قد أعددت لسفرنا إلى أوروبا ما أَرْضَانِي . وسافرنا وقضينا هناك صيفاً ممتعاً حقاً . وقد ألفت حياة الفنادق الكبرى واغتنبت بها لأنها كانت تعفيني من تدبير المنزل وما يقتضيه من مشقة ، ولأنني كنت أرى من نزلائها أشخاصاً أسريح إليهم ، وأطمئن إلى معاشرتهم . من هؤلاء سيدة أمريكية رقيقة ساحرة الحديث ، بلغت رقتها أن كانت تبدو ناحلة الجسم حائلة اللون بعض الشيء ، ولكنه شحوب يزيد بها رقة ويزيد حديثها أثراً في النفس .

ويدعو للطف بها والميل إليها . وقد اتصلت بيني وبينها مودة اقتضتني أن أسأل عنها . كلما قيل لي إنها لم تترك غرقها . سمحت لها أن تدعوني إليها ، إذا لزمت سريرها لتسريح من تعب ألم بها ، وكنت أجد عندها أحياناً من أصحابها من تسلي بحديثهم وحدتها ، وقد سألتني يوماً أن أدعوزوجي معي ، ليعودها وليصف لها دواءها . وكان زوجي يصحني بعد ذلك أحياناً إليها . وإن لم تكن في حاجة إلى طبه وعلاجه .

وكانت هذه السيدة تترين في سريرها أجمل زينة وأبرعها ، ولست أبالغ إذ أقول إنها كانت أكثر عناية بزينة سريرها منها بزينة خروجها وزهرتها . . وكانت ملابس سريرها آية في الجمال وحسن الذوق . . كانت قمصان نومها من حرير رقيق مطرز أبدع تطريز ، وكانت ألوان هذه القمصان هادئة ، سماوية أو وردية أو بنفسجية أو ما إليها ، خلا قميصاً أحمر قانياً كانت تلبسه أحياناً ، وقد سألتها يوماً عن تباين هذا القميص القاني مع سائر لباسها فقالت : « إنما ألبسه حين يدمى قلبي ليعبر بلونه عن دخيلة نفسي » . وكانت كثيراً ما تضع على رأسها لباساً ينسجم مع لون وجهها ، ولون قميصها ، ويظهرها في براءة الطفل المدلل ويزيدها بذلك إغراء وفتنة .

وكنت أحب في هذه السيدة كل شيء إلا حبها الشراب وإن قل ما رأيتها متأثرة به ، فقد كانت إذا تنصف الليل لا تطيق صبراً على كثوس تحسنتها ، ولو كانت في سرير نومها ، وقد دعتنى غير مرة لمشاركتها في شربها فاعتذرت ولم أقبل ، وكانت إذا أطلق الشراب لسانها تروى من هموم حياتها ما يثير الشفقة بها ، هذا مع أنها كانت تنفق عن سعة تشهد بوسع ثرائها ، وبأن

المال وحده لا يذيب الهموم ، ولا يكفل السعادة .

وكانت هذه السيدة تعرف من دقائق الجمال الذى تترين به الطبيعة فى أرجاء أوروبا المختلفة ما لا يعرفه إلا الأقلون . وقد أشارت علينا بجولات فى أرجاء النمسا وشمال إيطاليا وفى بلاد الشمال الأوروبى لم نستطع ذلك الصيف أن نتمها جميعاً ، ولكن متاعنا بما رأيناه فاق كل ما كنت أتصور . فلما كنا فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر عدنا إلى القاهرة ، وأنا أحسب لانتقالنا إلى منزلنا الجديد ألف حساب

ونزلنا القاهرة فإذا بالإصلاح المطلوب فى المنزل لم يتم كله ، وإذا ما تم منه لا يعجبني ، وأبدت رأيي فى ذلك بطريقة أغضبت الصديق الذى تولى الإشراف على الإصلاح فى غيابنا ، وقد كان يتوقع أن نشكره لا أن نلومه ، وأدى به الغضب إلى الإقلال من التردد علينا . وساء زوجي غضبه وانقطاعه ، لكن رأيي فى الأمر كان حاسماً . . .

قال زوجي :

« وما العمل الآن ؟ . . إن منزلنا الأول قد سكنه مستأجروه الجدد ، وأثأنا كما تعلمين مودع فى مخازنه » .

قلت :

« ذلك شأنك ، فإن شئت بحثنا عن مسكن آخر ، وإن شئت نزلنا فى الفندق حتى يتم إصلاح هذه الدار التى استأجرتها » . . .

فذهب إلى الدائرة المؤجرة ، ثم عاد يقول :

إنهم وعدنى أن يتم الإصلاح فى شهر ، فلا حاجة بنا إلى البحث عن

متزل جديد . وقد انفق مع إدارة « منا هاوس » لنقيم فيه ريثما يتم الإصلاح .
واغتبطت بما سمعت ، ونزلنا « منا هاوس » . وكتم سعدت بأيام مقامي
هناك ، وإن شقيت بعد ذلك بمعقاتها . كان زوجي يستيقظ مبكراً ويتناول
فطوره في غرفة الطعام ، ويذهب إلى عمله ، فإذا أردت الذهاب إلى المدينة
لبعض شئ أو لأرى ما تم في منزلنا الجديد طلبت السيارة فأقلنني إلى حيث
أشاء ، ثم عدت بها مع زوجي إلى الفندق . وكنت قلما أغادر « منا هاوس »
بعد الظهر ، إلا أن نجيب دعوة إلى الشاي أو العشاء في المدينة . وكان كثير من
من أصدقائنا يزوروننا بالفندق . وكنت أشعر في بعض الأيام بالتعب ،
فلا أرى بأساً من أن أستقبل في غرفة نومي أية صديقة تحضر لزيارتي ، فإذا
كان معها زوجها لم أربأساً بأن يصحبها إلى غرفة النوم . واضطر زوجي إلى
قبول هذا الوضع حين ذكرته بأنه كان يصحبني أحيانا في زيارة الأمريكية
ونحن في أوروبا . واقتضاني هذا الوضع أن أحاكي الأمريكية في زينة
سريري ، وقد جعلت من غرفة نومي هو استقبال يحضر إليه الرجال مع
زوجاتهم ، وإن لم أكن قد تسامحت بعد في أن يصعد إليه الرجال وحدهم .
وكان الإصلاح يسير في منزلنا الجديد ببطء شديد ، ولعل كنت مسئولة
بعض الشيء عن هذا البطء ، وقد تخطت مسئوليتي البطء إلى نفقات الإصلاح .
ذلك أنني قدرت أن هذا المنزل سيكون مسكناً لنا سنوات عدة ، ويجب لذلك
أن يبلغ الإصلاح غاية ما يرضينا ، لذا كنت لا أقر الكثير مما قاموا به ومموه
إصلاحاً ، وكنت أطلب إعادة العمل على الوجه الذي أسترىح له . فإذا
قيل لي إن الدائرة لا يمكن أن تتكفل بهذا ، قلت :

« لا يهم ، نفذوا ما أطلب على نفقتنا » .

وتحدث إلى زوجي يوماً أنا ندفع أجر المنزل من أول أكتوبر ، أى منذ عدنا من أوروبا ، وندفع أجر الفندق وملحقاته ، وندفع نفقة ما أطلب من إصلاح لا تلتزم الدائرة به ، وأن في ذلك إرهاقاً لنا طال أمده .

قلت :

« فم إذن كان تفكيرك في انتقالنا إلى مسكن جديد إذا كان هذا المسكن لا يرضى ذوقنا ؟ . لقد كان خيراً لو بقينا في مسكننا القديم إذا لم نشعر نحن ، ولم يشعر الناس جميعاً بالفارق الكبير بين السكنين ، ويتم الإصلاح عما قريب وتنتهي نفقاته ونفقات الفندق وينتهي بذلك ما نشكوه » .

وسكت زوجي ولم يعقب بكلمة . ويومئذ شعرت بأنه رجل عاجز الحيلة ، فليس يضيق بأمر المال في رأيي إلا الذين يعوزهم الإقدام ، فإن من معارفنا من كانوا يتطلعون إلينا أول زواجنا على أننا من الأغنياء واسعى الثراء ، ثم إذا هؤلاء المعارف يصبحون بإقدامهم من أصحاب الألوف ، بل من أصحاب الملايين ، والعجز عن الإقدام نقص وأي نقص .

لم يعقب زوجي بكلمة على مراجعتي في هذا الأمر ، ولم يفاتحني من بعد فيه . ولعله استشف ما دار في خاطري أو شعر من ناحيتي بأنني لست راضية عنه كل الرضا على نحو ما عودته ، فقد رأيته مشغول البال ، بادی الهم ، كثير الأرق ، وإن لم يتغير في صلته بي عما عودني من مودتي والاستجابة لكل رغباتي ، وهو لم يكن يستطيع أن يتغير ؛ فقد كان يحبني . وكان يخشى أن أتغير أنا عليه بعد الذي رآه من إعجاب المعجيين بي وإذعانهم لسلطان

جاذبيّ وسحر حليّ . والواقع أنّي شعرت بعد الذي رأيته من همه وأرفه .
بأنّي أبلغ في محبتي وإكباري إياه ، لأنّه لا يجاريّ في طموحي ولا يحاول
أن يصعد بي ومعى إلى الصف الأول من صفوف الحياة في مصر .

ومكّ الإصلاحات في منزلنا الجديد وانتقلنا إليه ، وإن بقيت فيه
أشياء لم تتل كل رضاي ، وأردت لمناسبة هذا الانتقال أن أقيم حفلة ساهرة
كبيرة ، فاعترض زوجي بأن مألوف عاداتنا المصرية لا يسبغ مثل هذه
الحفلات ، واقترح إن شئت أن أقيم حفلة شاي يتحقّق بها غرضي . ورأيت
حفلة الشاي دون ما ترضاه نفسي فأبيت ولم أقم أيّاً من الحفّلتين ، وكذلك
تم انتقالنا في صمت جنائزي ، كما أنّي لم أستطع أن أبلغ كل ما أريد
من تجديد أثاثنا لينسجم على ما أريد مع الدار الجديدة بعد إصلاحها .

على أنّي عيّنت بتأثيث غرفة النوم عنايتي بزيّني في سريري ، فقد
أدركت إبان مقامي بالفندق ما لهذه الغرفة من سحر وصاحبها في سريرها ،
وفهمت لماذا كانت صاحبتنا الأمريكية في أوروبا تؤثرها على كل ما سواها
من أبهاء الفندق الفخم وصلاته ، واصطناع المرض أو التعب الذي يلزم
الإنسان سريره لا يشق على امرأة ، هما عندها كالدموع تلين بها قلب الرجل ،
وتكسب بها عطفه ومودته . وغرفة النوم أشد إثارة لطلعة السيدات وأدعى
لثريتهن من غرفة الاستقبال ومن كل غرفة أخرى في المنزل .

وقد أرضاني أثاث هذه الغرفة بعد تمامه ، وكان زوجي أشد سحراً به
لأنّه كان أعلم بأسراره إذ ذاك من كل من سواه .

وكانت كل واحدة من صديقاتي تزور هذه الغرفة تبدي من الإعجاب بها

ما يزيد رضاي عنها ، أما أزواج صديقاتي الذين كانوا يصحبونهن ، فكان نظرم يدور في أرجاء الغرفة دورة خاطفة . ليستقر آخر الأمر على السرير وزينته .

كان الصديق الذي عهد إليه زوجي بالإشراف على إصلاح المنزل في أثناء غيابنا في أوروبا ، والذي انقطع عنا أوكاد حين عرف رأئي في الإصلاح الذي تم بإشرافه ، قد بالغ في انقطاعه منذ انتقلنا إلى المنزل ، فلم يحضر إلينا فيه إلا في زيارة تقليدية لتهنئتنا بالانتقال ، وكان هذا الصديق غير متزوج ، وكان بطبعه سريعاً إلى رفع الكلفة كثير فلتات اللسان ، وكان ما بينه وبين زوجي من صداقة قديمة وود متصل قد جعل زوجي يضيق بانقطاعه عنا وعدم تردده علينا ، وقد قال لي يوماً وكأنه يعاتبني :

« لقد أوحشني انقطاعه عن زيارتنا ، ولم تحسني أنت جزاءه عن إشرافه على الإصلاح للمنزل في أثناء غيابنا ، ولعله يخشى أن يسوءك مجيئه إلينا » .

قلت :

« عجباً لكما أنت وهو ، إنني لم أزد على إبداء رأئي في الإصلاح الذي تم في غيابنا ، ولم يدربخاطري أن يستاء صديقنا من هذا الرأي حتى ينقطع عنا ، وإنه ليسرني أن يعود إلى سابق مودته ، وليسرني أن يبدى رأيه في المنزل بعد إصلاحه الأخير ، وتستطيع أن تؤكد له أنني لن أضيق بملاحظاته ولن أغضب منه إذا أبدى من النقد أشده ، فالأذواق تختلف ولا يدل اختلافها على شيء يسوء صاحب هذا الرأي أو ذاك » .

وألح زوجي على صديقه فجاء يوماً معه ، فلما فرغ من شرب القهوة

قلت له :

« الآن تفضل ودُ في أرجاء المنزل وقل لي رأيك في صراحة في إصلاحه » .
قال في تهكم : « وهل لمثل أن يبدى رأيه فيما يتم بإشرافك أنت يا صاحبة النوق السليم » .

قلت :

« لا يسؤني أن تهكم بي ولا أن تنقد عملي ، ولكنني حريصة على أن أعرف رأيك » ، فقام بعد تمنع ودار معي في أرجاء المنزل ، فلما أتم زيارة الطابق الأول قال : « وهل كانت الدائرة تسمح لي بأن أنفق ما أنفقتم أنتم ليلبغ الإصلاح هذا المدي ؟ ! . . . والآن أفهم شكوى زوجك من باهظ النفقة ، أنت جبارة لا تخافين الله ، لقد كان خيراً بدل أن بعثت ما بعثت في إصلاح هذا المنزل أن تشروا منزلاً جديداً يبنى لكم ولأولادكم من بعدكم ! . . »
قلت مبتسمة : « لعلك قلت هذا الكلام لزوجي فكان ذلك سبب تغيره على ؟ ! » .

فنظر إلي نظرة خبيثة ، وقال :

« زوجك يستطيع أن يتغير عليك ! . . مسكين هذا الرجل ، لقد كبته من عنقه ومن يديه ومن رجليه فأصبح لا يستطيع حراكاً أمامك ، إنه يوم حدثني في شأن الإصلاح ، وما أنفقت فيه استحققي بقبر أبي ألا أذكر من حديثه حرفاً : ولولا غيظي منك لبررت بوعدي له » .

قلت :

« ألا تصعد إلى الطابق العلوي ؟ لقد عنيت به أكثر من عنايتي بهذا

الطابق الذى يزورنا الناس فيه ، فالطابق العلوى هو عشنا الحقيقى ، هو سكتنا بالليل ، والجانب الأكبر من النهار ، هو ملجؤنا من أعين الناس وقضولهم ، ولهذا أخالف الذين يبدلون النفقة إرضاء للناس وخوفاً من ألسنتهم ولا يبدلونها إرضاء لأنفسهم ومتاعاً بحياتهم ! . .

قال : « ألم أقل إنك جبارة لا تخافين الله ، إذا كانت نفقة هذا الطابق قد بلغت ما أرى ، وكنت قد ضاعفت العناية بالطابق الأعلى فأى نفقة كلفتكم هذه العناية ؟ » . .

قلت : « دعك الآن من النفقة وقل لى رأيك فى الإصلاح ؟ » . .
وصعد معى إلى الطابق الثانى فلما دخل غرفة النوم الفسيحة ، ودارنظره فى أرجائها فتح عينيه واسعتين وقال :

« هذه غرفتك أنت أم غرفة مدام ركاميه ؟ .. أقسم أن غرفة « زبيدة » للملكة زوج « هارون الرشيد » لم تكن فى جمال غرفتك هذه وإبداعها . . الآن أعرف أن ذوقك لا يعلو ذوق ، ولو أن الأقدار كانت منصفة لوجب أن تكونى من أصحاب الملايين ، حتى لا يقف فى سبيل ذوقك الجميل عائق » ! . . قلت فيما بينى وبين نفسى : « ترى ماذا عساه كان يقول لو أنه دخل هذه الغرفة ، وأنا فى زينة سريرى ! . . وشرذ ذهنى لحظة حين كان هو يتفقد كل قطعة من قطع الغرفة ، ويقف أمامها هنيهة ، فلما عاد إلى ناحية الباب حيث كنت أقف قال :

« كل ما هنا بديع بارع ، لكن هذا لا يمنعنى من أن أقول لك إنك ظلمت زوجك لى النفقة ظلم الحسن والحسين » ! . .

ضقت ذرعاً بتكراره عبارة النفقة وظلّمي زوجي ، فقلت :

« وهل يضيق بأمور المال رجل ذو همة وذكاء ؟ ! . إنما يقعد العجز بصاحبه عن الإقدام لبلوغ ما يريد ! . . وهل أمطرت السماء ذهباً على من تعرف ممن جمعوا مئات الألوف بل الملايين ، أم أن إقدامهم وحسن حياتهم هما اللذان نصباً للمال شياكه فصادته ، وكانوا قبل ذلك فقراء لم يرثوا عن أهلهم ما ورث زوجي عن أبيه ، معذرة عن كلامي هذا ، لكنك أكثر الحديث عن النفقة وإسرافي فيها ، وقد حملت ما قلته أول الأمر ، على أنه اعتذار عن عدم بلوغ الإصلاح ما يرضيني حين إشرافك عليه . . أما الآن فأني أشعر أن زوجي يكرر عليك الكلام فيه ولكأنه يوجه إلى الاتهام بشأنه ، وأنا إنما أردت أن يعيش كما يجب أن يعيش ، فإن كنت أسرفت في حسن ظني به فاستغفروني وقل له إنني تبت لعله يقبل توبتي » ! .

قلت هذا الكلام في حدة روعت الرجل فقال :

« مهلاً مهلاً ! . . لا تسرفي في التثريب على الرجل إلى حد اتهامه بالضعف والعجز . . إن أولئك الذين تذكرين ممن تصيدوا الملايين لم يتصيدوها في عام ولا في بضعة أعوام ، وزوجك اليوم أعمق تفكيراً في التحايل على المال منه في الغضب منك أو في اتهامك . . إنه يريد إرضاءك . . إرضاءك بكل وسيلة لا تخدش شرفه ولا تؤذي سمعته بين الناس . ولست أدري أيستطيع إنسان أن يجمع بين المال والشرف وحسن السمعة ؟ . . لكن تصيد للمال هو ما يشغل زوجك الآن إرضاء لطموحك . ولعلّ لو كنت مكانه لما صنعت صنيعه ، ولو قفّت في طريق اندفاعك إبقاء على نفسي من الاتزلاق في سبيل لا يغامر

بالانزلاق إليها إلا الذين لا يعنيه شيء ، فإن تحقق ما غامروا في سبيله ارتفعوا
 بثروتهم إلى السماء ، وإن لم يتحقق ظلوا في القاع الذي يحاولون الخروج منه .
 وخشيتنا كلانا أن يسرقنا الوقت إلى ما يثير هواجس زوجي من بطئنا ،
 فلما رآه صديقنا قال له :

« هنيئاً لك يا صديقي هذا المنزل القمخ ، بل القصر المنيف ، لم أكن أتصور أن
 يخلق الإصلاح من تلك الدار التي رأيت أول الصيف هذه التحفة التي أرى الآن ! »
 ثم التفت إلي وقال :

« وأنا أهنئك يا سيدتي ، لقد محب إعجابي بذوقك كل غضب آثاره
 في نفسي عدم رضاك عن إشرافي ، وهو إعجاب لا حد له ، ولو أن أصحاب
 هذه الدار كانوا أهل ذوق ومروءة لاحتملوا نفقات هذا الإصلاح كلها ،
 وأنا مستعد لأن أخطبهم في ذلك وأحملهم ما أستطيع منها إذا لم يكن لكما على
 تدخلتي اعتراض ! »

وشكرناه وقلنا له إنا لا اعتراض لنا على تدخله . والعجب أنه لم يمس
 على حديثنا في الأمر غير ثلاثة أيام ثم إذا هو يحمل إلينا النبا بأن الدائرة قبلت
 أن تتحمل نصف ما أضيف علينا من نفقات الإصلاح . وشعرت كأن زوجي
 انتشل من وهدة لسباع هذا النبا السار ، واعتببت أنا كذلك ، ولكن هذه
 الفرحة التي بدت على زوجي جعلتني أشفق عليه لعجزه عن أن يفعل ما فعله
 صديقنا ، ويحمل الدائرة على ما حملها هذا الصديق عليه ، وكان هو أخرى
 بهذا وهو صاحب الشأن الأول والمصلحة المباشرة . ولو أنه فعل لرفع عن
 عاتقه همّاً وأرقاً كاد أثرهما يسيء إلى صحته . »

وعاد صديقنا سيرته الأولى إلى مودتنا والردد علينا ، وعاد يعاين زوجي بفترات لسانه . . ويعاين أحياناً كذلك ، ولم يكن زوجي يجيب معايشته إلا بالسخر منه وعدم الاكتراث لعبته ، وكان هذا الموقف وذاك من جانب الرجلين طبيعياً . ولكم عجبت كيف جمعت الصداقة بين طبعين مختلفين هذا الاختلاف ، فزوجي رزين شديد الاتزان يقدر كل كلمة يقولها ويبالغ في احترام الناس احتراماً لنفسه ، وصديقنا على النقيض يلقي الكلام جزافاً ولا يعبأ بمظاهر الاحترام ، وزوجي شديد الحياء إلى حد أضيق به أحياناً ، وصديقنا يجد الحياء سخفاً لا معنى له ، وزوجي ودود متخفف مع ذلك في وده ، وصديقنا مسرف في الود سريع مع ذلك إلى المغاضبة ، ولكن صداقة الرجلين اتصلت منذ كانا طالبين معاً في المدرسة الثانوية ، وصداقة الصبا قل أن يعدو عليها الزمان وإن أمكن أن يعدو عليها النسيان ! . .

وكان صديقنا يعرف صديقتي التي مات زوجها منذ عامين فطمع أهله في تركته ومنعوها وذريتها الضعاف من الاستيلاء عليها أو على إيراداتها . وكان صديقنا كذلك صديقاً لزوجها ولأمها ، وكان فيما يخجل إلى معجباً بجمالها وبطيبتها ، وقد كان زوجها شديد الغيرة عليها ، وكان يعرف في طبعها خفة لا تؤذي وفاءها وعفتها ، ولكن تؤذي غيرته ، ولذلك انتقل بها إلى الضواحي وسكن معها فيها ومنعها من أن تنزل إلى المدينة إلا بإذنه وفي رفقته ، فلما مات عادت إلى القاهرة وأظهرت من الحزن عليه ما رق له قلب صديقنا وفاء للزوج المتوفى ، وإعجاباً بالزوج الأرمل . ولقد عرف بعد قليل ما تضطرب فيه هذه الزوج الأرمل من مشاكل ميراث مع أهل زوجها لا قبل لها وحدها

بحلها . فتبرع مشكوراً لمعاونتها واضطر من أجل ذلك أن يكسر الردد عليها .
واقترضت هذه المشاكل مشورة طبيب فأشرك صديقنا زوجي معه في مهمته .
ولم يبد زوجي بادئ الأمر حماسة لهذه المعاونة لولا أن دفعته أنا إليها .
وقد أدهشني تباطؤه عن المبادرة إلى عمل إنساني يتفق مع طيبة قلبه وحب الخير
للناس ، وزادني دهشة أنه كان يعرف صديقتي في حياة زوجها ، وكان يردد
عليها لعيادتها ، ولعيادة أطفالها ، ثم كان يحدثني عنها حديثه عن أي مريض
أومريضة يعود أو يعودها ، ولم يبد من مظاهر الإعجاب بجمالها ما يرييني . .
لكنه لم يلبث بعد حين من مشاركته صديقنا في معاونتها أن ازدادت حماسه
لهذه المعاونة ، حتى بلغت أشدها ، وأن صار يتحدث عنها وكأنه يقوم بعمل
يمس قلبه بل يحركه . . فإذا حدث . . أترأه أذعن لفتنتها فصار يبدى
لميراث أبنائها كل هذه الحماسة ؟ ! ثم إنه أخذ يتردد عليها في بيت أمها
العجوز الشمطاء ، وهي في غير حاجة إلى طبه وعلاجه ، فهل تراها تنصب له
شباكهها ليقع في حبالها ؟ . هنالك بدأت الغيرة تدب في صدري ، وإن
حرصت على ألا يبدو من أثرها أي مظهر ، وبدأت أفكر كيف أستعيد هذا
الرجل خالصاً لي كما كان . . .

ولم يكن دافعي إلى هذا التفكير محبتي إياه ، بقدر ما كان الدافع إليه
غبري ونفوري من أن تأخذ امرأة مني رجلاً ملكته يدى وأصبح طوع يميني ،
فصار لا يستطيع حراكاً بنير إرادتي ! . .

واستخلصت صديقتي ميراثها بمعونة زوجي ومعونة صديقنا ، وأصبحت
بذلك في سعة تسمح لها أن تنهض بحياتها وحياة أولادها في رخاء ونعمة ،

فأقامت في مسكن اختارته لنفسها ، ولم يكفها أن تذهب إلى الأقصر في الشتاء لترهبها ، بل كانت تصطاف في أوروبا وتقضي في ربوعها شهور متاع ومرح وسرة .

ولم يقطع زوجي عن الردد عليها بعد أن استخلصت ميراثها ، ولم تنقطع هي عن زيارتنا برغم قلة زيارتي بيتها . . وكانت غيرتي تزداد لذلك ضراماً ، وكنت أومئ إلى زوجي أن الناس يتحدثون في تروده عليها ، فلا يابه لهذا التلميح ، مكثياً بقوله : « ما دمت واثقة في مطمئنة إلى فإن كلام الناس لا يعنيني » . وكانت كبريائي تأتي عليّ حين أسمع منه هذا القول أن أخبره بمكنون صدرى ، وإن استبد في التفكير في التماس الوسيلة للتخلص من هذه المرأة ومن تردد زوجي عليها . وإني لأقلب هذا الأمر على وجهه إذ أخبرني زوجي أن الألماني الذي عرفنا في الأقصر قد جاء إلى القاهرة ، وأنه تحدث إليه بالتليفون ، وأنه دعاه لتناول الشاي معنا . قلت : « إذن فادع صديقنا لنحدث التعارف بينهما ، وإذا لم يكن لديك مانع فادع كذلك صديقتي فإنه يسرها لا ريب لقاء الألماني بالقاهرة ، بعد أن تلاقيا طويلاً بالأقصر . . » ولم يجد زوجي بأساً بدعونهما فكادت أطير من الفرح مؤمنة بأن الحظ الذي جاء بالألماني إلى القاهرة في هذا الوقت لا يد مسعدى في تفكيرى . . .

وستمخض هذه المصادفة الطيبة عن نتائج أرضاها .
وجاء المدعوون ساعة الشاي ، وأقبل عليّ الألماني يحييني وتكاد عيناه لا تنظران إلى غيرى ، وكانت أول عبارة قالها : « لم لم تحضرى إلى الأقصر هذا العام يا سيدتى ؟ . . إن جميع معارفك والمعجبين بك كانوا يسألون

عن موعد مجيئك بشغف ليس كمثله شغف ! . . سلى صديقتك . لقد
عرفت من ذلك ما عرفت . . وأظنها أبلغتك تحياتهم واحتراماتهم ! . . »
لم يثر هذا الكلام من صديقتي أى صدى ، بل تشاغلته عن الإصغاء
إليه بالحديث إلى زوجي وإلى صديقنا ، وزادني ذلك إقبالا على الألماني ،
وترحيباً به ، وعملا على أن أصل الحديث بينه وبين سائر الحاضرين .
لم توجه صديقتي إلى الألماني في أثناء الشاي إلا كلمات مقطعة ، لكنها
كانت المودة مع زوجي كل المودة ، وكانت تلتهم صديقنا بعينها التهاماً ،
وتكاد تأكله بهما أكلا . وكان صديقنا يجاهد لكي لا يغيب عنا مسحوراً
بهاتين العينين الفاتنتين ، زانهما حور زاده الكحل الرقيق سحراً وزاد صاحبه
فتنة ، وكانت صديقتي تعرف سحر عينيها وتعرف كيف تزيد نظراتهما فتنة
وسحراً ، ومع ذلك جرى الألماني صدها عنه بالإقبال على وتوجيه الحديث
كله إلى إلا عبارات كان يبعثها هنا وهناك حتى لا يحسب زوجي أو صديقنا
أنه نسيهما لفرط اشتغاله في .

فلما فرغنا من الشاي قلت : « ألا تريد أن ننزل إلى الحديقة ؟ . . »
قال : بكل سرور ، فدعوت صديقنا ونخطيت مع الرجلين غرف الطابق
الأول ونزلنا من السلم الخلفي إلى حديقة الدار . . أما صديقتي فقد اعتذرت
وآثرت المكث حيث هي ، واضطر زوجي للبقاء في صحتها . ولم تطل
دورتنا في الحديقة ، فلما عدنا منها قال الألماني موجهاً الكلام إلى زوجي :
« ما أجمل داركما ! . . إن براعة الذوق في نظامها وتنسيقها لتنتطق بأن
السيدة قد بثت فيها من روحها بعض ما تنطوي عليه من تناسق وجمال . . »

وشكره زوجى . ثم ودعنا ضيوفنا وأوصلناهم إلى الباب الخارجى .
فلما خلوت إلى زوجى قلت له : « ما رأيك فى أن ندعو الرجل للعشاء غداً ؟ » . إنه يتزل فندق الكونتنتال . وليس أيسر من أن تحادثه بكرة الصباح تليفونياً ، وما أحسبه إلا قابلاً دعوتنا » . وأجاب زوجى فى هدوء مصطنع لا يتفق مع ألفاظ عبارته : « ألم يكفك أتى دعوته اليوم للشأى إرضاء لك : أنت تعلمين ، كما أعلم أنه لم يخاطبني فى التليفون حين جاء إلى القاهرة ، حرصاً على مقابلتى . بل حرصاً على مقابلتك أنت ، فإذا دعوانه للعشاء غداً أثار ذلك حديث أصدقائنا حولنا . ولا أحسبك تغتبطين بأن يذاع هذا الحديث ! . . . » .

قلت وأنا أكظم فى نفسى سروراً كادت تلمع به عيناى : « وماذا عسى يستطيعون أن يقولوا ؟ . . هذا رجل مسافر بعد غد إلى بلاده فى أوروبا ، ليقم بها ستة أشهر أو تزيد ، وقد أكرمنى فى الأقصر العامين الماضيين ، فلا عجب أن تكرمه بمناسبة مروره بالقاهرة . . وأنا مع ذلك لا ألح عليك فى دعوته . وإن كنت أعجب لكلامك عن حديث الناس وكأنهم لا يتكلمون اليوم عنا لمبالغتك فى العناية بصديقتى ، ولو أنك عرفت ما يقولون لما ذكرت حديثهم فى دعوة بريئة لرجل أكرمنا من قبل ، وأكررأتى لا ألح فى دعوته ، بل أعتذر إليك وأرجوك أن تنسى أتى طلبتها ! » .

وتلجج زوجى حين سمع هذا الكلام وكأنما طعته فى صدره ، فوجم هنيهة ، ثم قال : « يغفر الله للذين يتحدثون عني . . إنما دفعنى للعناية التى تذكرين عاطفة نبيلة لأطفال ما أحوجهم إلى ميراث أبيهم ، وللعطف

عليهم . أما أمهم فلا شأن لي بها . ولا شأن لها بي إلا أن تشكرني على العناية بأطفالها : وصديقنا هو المعنى الأول بالأمر . وهو الذي يحفزني كلما ظن أني بحاجة إلى حافز لمضاعفة عنايتي : وقد لا تعلمين أن صديقنا يفكر في الزواج من هذه السيدة ، أو أنها هي التي تفكر في الزواج منه .

كنت أسمع أحاديث عن هذا الزواج وكنت في ريب منها ، فلما أكدها زوجي كنت كمن فوجئ بها ، والعجيب أني شعرت حين تحققت منها كأن صديقتي تخونني . وفكرت لذلك في إفساد ذلك الزواج الذي تعترم . كيف نبت هذا الشعور في نفسي وصديقتي مخلصه في مودتها لنا ، ولا جناح عليها وهي أرمل أن تفكر في الزواج ، ولا حق لي وأنا متروجة أن ألومها فيه ؟ . . ولم أكن أحسب أن بيني وبين صديقنا عاطفة تسوغ مثل هذا الشعور ! . . لا جواب على هذه الأسئلة ، ولكن ذلك ما حدث . . وسرعان ما ترعرع هذا النبت فحرك شجوني وأنساني الألماني ، وأنساني زوجي ، وأنساني حديث الناس ، وجعلني لا أعني بشيء إلا بإفساد هذا الزواج ! . .

ولطالما فكرت من بعد : أي داع دفع هذا العزم إلى نفسي ؟ . . وكل ما اهتديت إليه بعد طول البحث والتحليل أني كنت أجد في زيارات صديقنا وأحاديثه متعة أستعين بها على الملل ، بل أسعد بها في الساعات الطويلة التي كان العمل يشغل زوجي في أثنائها ، وأن عقلي الباطن أوحى لي أن زواجه بهذه المرأة سيغله عني ويأخذه مني ، ومن يدري ، فلعلها يوم تتروجه تجعل من دارها ندوة يأوي إليها زوجي فتم بذلك عزلي ، ويصبح انتصار هذه الفاتنة للعب على حاسماً يحطم كبريائي ويمرغها في التراب ؟ ! . . فأما

إن استطعت إفساد هذا الزواج فسيبقى صديقنا يؤنس وحلقى . ويبعث
النسرة إلى قلبي . وسأجد في أحاديثه مسلاتى ، بل هناعى ، وسيبقى منزلى
مقصده ومقصد زوجى ، هذا ما احدثت إليه من بعد : تفسيراً لغزى على
إفساد هذا الزواج .

وأحكمت يومئذ تديري . فمارضت ولزمت سريري ، وكنت إذا أصبحت
وخرج زوجى إلى عمله تزيت للسريير أجمل زينة وأشدها إغراء ، وبقيت به
طيلة النهار واستقبلت زائرانى وأزواجهن في غرفة نومى ، وجاءنى زوجى غداة
اعتكافى ، وأخبرنى أن صديقنا يستفسر عن صحى ، وأنه في بهوالاستقبال !..
قلت : لو أن صديقتى كانت هنا لما رأيت بأساً باستقبالهما في غرفة النوم
ما دامما يترمان الزواج .

ولم أعجب حين رأيت صديقتى تجيء الغداة ومعها صديقنا ، بحجة
أنها تريد محادثة زوجى في بعض الشؤون المتعلقة بأبنائها ، فلما خلا الجو
لصديقنا قال : « أشكرك على السماح بزيارتك وأنت في هذه الزينة الباردة ،
لقد ضاعف وجودك هنا من جمال هذه الغرفة وزادها سحراً » . . . قلت :
« دعك من هذا الحديث فأنا متعبة لا طاقة لى بساعه . وأين جمال هذه
الغرفة وساكنتها من جمال عروصك وسحر عينيها الفاتنتين ؟ . . فلا تكادان
تنظران إلى رجل حتى يغمر على قدميه ساجداً ! . . » وسكت لحظة ثم قلت :
« إننى هدنى التعب والمرض ، وأنا أشكرك لتفضلك بالسؤال عني ! » قلت
هذا وصحبته بابتسامة حار في دلائها ، أهى التهكم أم الصدق أم مجرد
الإغراء ؟ . . ونظر الرجل إلى بعينين واسعتين وقال : « يا ماكرة ! أمتعبة أنت

حقاً أم تريد أن تتجى من يزورونك هنا لأنهم لا يستطيعون الإمساك عن التفكير في صورتك الجذابة ، وفي الإطار البديع الذى أحطت نفسك به .
وعادت صديقتى فأمسكتنا عن الكلام ، على أن صديقنا عاد الغداة مع زوجى وصعد معه إلى غرفة نومي ، وقد أقنعت سرعته إلى رفع الكلفة بأنه لم يبق ما يمنعه من زيارتي فيها ، وابتسمت فيما بينى وبين نفسى لنجاح الخطوة الأولى من خطتي ، فلولا أنتى أذنت بصعوده إلى مع صديقتى لبقى كارهاً فى تحفظه ، وراى حين دخل الغرفة فى زينة غير التى راها لأمس ، فانهز فرصة خرج فيها زوجى لبعض شأنه وقال : « ما أجمل المرض فى هذا السرير ! » قلت : « وما لك أنت وذلك وأنت موشك أن تتزوج ؟ . . احتفظ بمثل هذه التحيات لتقولها لأهل بيتك . . متعك الله فى الحياة الجديدة التى تنتظرك ، وأرجو يومئذ أن تنسبك هذه الحياة أصدقاءك ! . . »

وبعد هنية سألته : « ما بال صديقتى لم تحضر معك كما فعلت أمس وهي تعلم أنى متعبة ؟ » . قال : « مررت بها فالفيتها غادرت منزلها ، ولم تذكر لخدامها أبان ذهبت ، وسألت عنها فى بيت أهلها فلم أجدها هناك ! . . »
كنت أعرف فى هذه الصديقة خفة تستنفع معها أن تصحب المعجيين بها إلى نزاهات خلوية ، وكنت أعرف من أقاربي شاباً جميل الطلعة يتردد إليها مسحوراً بجمالها وبفتنة عينها ، وقد شجعت هذه الفترة الأخيرة على مصاحبها .
وعلمت فى هذا اليوم أنهما سيخرجان لترهة على طريق السويس بعد مصر الجديدة ، فأوجيت إلى صديقنا أن يذهب إلى هذه المنطقة فإذا صادف قريبي هناك ، فليبعث به إلى الأمر هام أريد أن أحده فيه . ولم يجد صديقي

بعد زيارته الأخيرة إياي في غرفة نومي مفراً من أن ينزل على رغبتى . وبعد الغروب عاد إلى وعيناه تقدحان الشر وهو يقول : « أهنتك يا سيدنى بنجاحك في إفساد هذا الزواج ، وأشكرك لقد رأيت قريتك مع صديقك داخل السيارة في جوف الصحراء وهما في وضع لا أستطيع أن أصفه ! » قلت : « هون عليك يا أخى ! . . . فقد حملنى الوفاء لصداقتك على أن أتبع لك فرصة ليس يسيراً أن تتاح لإنسان . فإن كان قد ساءك ما فعلت فلي من حسن قصدى عذير ! . . » قال : « ولكنك قاسية ، وكان حبسك أن تنهينى » ، فقلت : « إتنى أردت أن ترى بعينيك ما لا تستطيع أن تصدقه حين تسمعه ! » فأطرق إطراقة طويلة ثم ارتمى على مقعد ، وكأنما تفرقت في عينيه دمة ، وقال : « شكراً لك أن أزلت عن ناظرى غشاوة حجبت عني خطراً داهماً ... » وبعد برهة ودعنى وانصرف !

أما صديقتى فلم تخاطبني ولم أخطبها بعد ذلك اليوم ، ولم يكفها أن قاطعتنى ، بل ذهبت تدبغ في كل صالون ، وفي كل ناد ، وفي كل مجتمع في المدينة أتى أحب صديقنا ، وأتى أريد أن يطلقنى زوجى لأتزوج ، وأن الغيرة دبّت في نفسى منها منذ عني زوجى بشأنها واهتم بميراث أطفالها ، وقد كان عذرها في مهاجمتى أنها تدافع عن نفسها ، فقد اخبرنى قريبي الذى كان معها في السيارة في الصحراء أن صديقنا فاجأها وهو ممسك يدها بين يديه ، وهى ملقبة رأسها على كتفه ، وأنها حين رأت صديقنا سحبت يدها من يديه وصفعته على وجهه قائلة : « أوبلغ من سفالتك أن تدبر مع قريتك هذا الموقف المشين يا نذل !؟ » وأقسمت أن لن ترانى ، وأنها ستفصحنى .

وكان مما قالته له والسيارة تعود بهما أدراجهما : « لماذا تدليتم إلى هذا الحضيض يا أخط من خلق ، هل أخذت منها زوجها ؟ . لقد كان في مقدورى أن أفعل ، فأنا أجمل منها ألف مرة ، ولكنى حفظت عهد الصداقة ورعيت ما بيننا من خالص الود ، هل أخذت منها الألمانى فى الأقصر ، ولم تكن تراه إلا على مائدتى فى « ونتر بالاس » ؟ . . وإذا كانت تعشق هذا الذى كنت أريد أن أتزوج فلماذا لم تخبرنى ، فأدعه لها وألقيه صاغراً تحت أقدامها ؟ . . أم حسبت أننى أنافسها فى محبته فتآمرت معك هذه المؤامرة الدنيئة ! . . إن يكن ذلك ظنها فهى مخطئة ، إنه رجل ماجن ولكنه أظهر صدق الإخلاص إثر وفاة زوجى ، وعمل جهده لمعاوتى على استخلاص ميراث أطفالى حتى استخلصه ، فقدرت له هذا الصنيع وأردت أن أجزيه عنه بالتزوج منه ، فإن كانت قريبتك قد ظنت رغبى فى التزوج منه عشقاً أو حباً فهى مخطئة ، وليس بين الرجال من يستحق فى سنى أن أحبه ، وإن كان منهم من يستحق أن أحترمه ، ولست أنت ممن يستحقون الاحترام بعد أن انحدرت إلى هاوية المؤامرة التى انحدرت إليها ! ! . . » .

قصص على قريبي هذا كله غداة حدوثه واشتد فى لومى أن أوقفته هذا الموقف ، وطمأنته بكلمات لم تزل غصبه ، ولم يرعنى هذا الغضب وأنا أحسب أنى فى أوج انتصارى ، لقد دبرت فنجح تديبرى ، وكنت أعلم أن نجاحى معناه القطيعة الحاسمة بينى وبين صديقتى ، وأن تديبرى لن يضر قريبي وهو شاب وسم ومن حقه فى نظر الناس جميعاً أن يخرج للزومة مع أى امرأة يغريها شبابيه وجماله ، فلن يروعى إذن أن يتتبع عملى كل آثاره .

وانقضت أيام انقطع صديقنا في أثائها عن المجيء إلينا حتى خشيت أن يكون قد خاصمني ، وإني لفي غمرة زيتي إذ دخل على زوجي متجهماً صامتاً ، فسألته ما به ؟ فقال : إن صديقنا مريض نزلت به الحمى منذ غادرتي آخر مرة عائداً إلى منزله ، وأنه قص عليه ما كان بين صديقتي وقريبي ، وأنه اليوم أحسن حالا ، وسكت زوجي بعد ذلك طويلاً ثم قال : « وقد سألت لم لم يدعني لعيادته لأول ما نزل به المرض ، فقال : إنه لم يرد إزعاجك ، ولست أدري كيف سولت لك نفسك أن تقدمي على ما أقدمت عليه » . قلت : « لقد كنت أحسبك أكثر وفاء لصديقك وأشد حرصاً على طمأنينته في حياته ! . . » قال : « أو قاصر هو لتتصبي نفسك وصية عليه ! . . » قلت وقد بدأ هدوئي يزالي : « وهل بلغ من حرصك على عواطف صديقتي وعلى رقي مزاجها أن تلومني من أجلها . تروجها إذن أنت إن كانت قد فتنتك ! . . لقد طالما حدثني نفسي عن سر عنايتك بشأنها ، وطالما حاولت أن أقنع نفسي بأن إنسانيتك وطيبة قلبك وشفقتك على أطفالها هي مصدر هذه العناية . . أما الآن فقد فضحت شرك واستبان لي خفي أمرك ! . . اذهب فتزوجها أنت إن شئت . اذهب يا منافق ! . . » .

قلت عبارتي الأخيرة في ثورة غضب حاولت أن أكظمها فلم أنجح . وأبت كبريائي على أن أصبح لأنفسي عن نفسي ، واستلقيت مهددة في مقعدي ، وانهمرت الدموع من عيني ، وأخذت أبكي بكاء الطفل ، وأراد زوجي أن يسكن روعي فدفعته عني ملقية نظري إلى الأرض ، لأني كرهت أن أرى وجهه . ووقف الرجل قبالي وانتظر حتى هدأ روعي بعض الشيء ،

ثم نظر إلى نظرة إشفاق وقال : « أولو كان بيني وبين صديقك من الود ما تترعجين له . أفكنت أنظر مغتبطاً لزواج صديقنا منها ، لينقطع الود بيني وبينها . أم كنت أصنع صنيعك فأفسد هذا الزواج لتخلص لي ؟ ! . . . لقد كنت أحسبك أوفر ذكاء من أن تفضل الغيرة الحمقاء بصيرتك ، وتدفعلك إلى صنيع غير لائق بأمثالك ! . . » .

قلت وقد غالبت نفسي حتى ملكت ما استطعت روعي : « أنت تهتم ذكائي وبحسب حجتك تقنعني ! . . كلا يا سيدى ، أنت تعلم كما أعلم أنها إذا تم زواجها بصديقنا فسيفتح هذا البيت أمامها على مصراعيه ، وسيكون لك من الحرية فى استدامة ودھا أضعاف ما لك اليوم ، ولن أستطيع أنا يومئذ أن أقول شيئاً ، فتخير إن شئت حجة أخرى أجدر بقدرتك على استنباط الحيل ! » قال وقد كاد يخرج عن طوره : « يا عجباً ! . . أوبلغ من الحطة أن يسلب رجل زوجة صديقه ، أو تسلب امرأة زوج صديقها . ذلك أمر لا يمكن أن يدور بخاطري ، وأنت فوق ذلك تعلمين أن لك عندى من المكانة ما كنت أحسبه يسموئى عندك فوق كل شبهة ! . . لقد أصفيتك وأصفيت أولادنا حبة قلبى ، فإن كنت فى ريب من ذلك فالذنب ذنبك لا ذنبى ! . . » .

ثم إنه أخذ بمجامع بللى وجذبنى نحوه وضمنى إليه ليسكن من ثائرى ، ولم أستطع إزاء عطفه ووقته أن أتابع المعركة ، وإن شعرت بأن شيئاً يبتنا قد تحطم ، وأن حياتنا الهائلة المائدة قد أسدل عليها ستار كئيف ! . . . وبعد أيام جاءنى صديقنا ، ولا تزال عليه آثار العلة ، فلما رأيته امتلاً قلبى

رحمة وشفقة ، وشعرت أنى أئمت فى حقه ، فلما استقر به المجلس وتناوز بعض المربطات قال : « جئت اليوم أسألك وأرجوك أن تجيبنى فى صدق وصراحة . إنى أعرف صديقتك منذ سنين ، وأعرف خفتها ، لكننى لم أعلم أن هذه الخفة جئت قط على عفتها أو على وفائها لزوجها الأول ، فهل تستطيعين أن تذكرى لى بشرفك أنك تعلمين غير ما أعلم ! . . وأحسست من نبرة صوته أنه يريد أن يضعنى موضع الاهتمام فقلت : « وما شأنى أنا بهذا ؟ . . إن كنت تريد أن تتزوجها فليست أنا التى أمتنع من زواجها ، إنما دفعنى الوفاء لصداقتك لنا على أن أفتح عينيك على ما أعرف ، فإن لم تجد فيها رأيت ما يريك فأنت أعلم بما يسرك وما يسوءك ، وأنا لا أعرف عن صديقتى أكثر مما تعرف أنت عنها ، وأنت كنت تعرف زوجها ولم أكن أعرفه ، وكنت تزوره يوم أسكنها الضواحي ولم أكن أزورها ، فلا تسلى عما لا علم لى به ، وأنت صاحب الشأن فى زواجك منها بعد أن انقطعت صلتى بها ! . . وتركنى صديقنا وخرج ، تركنى حيرى أنعى ما فرحت به من نجاحى ، وأنعى إخفاقى المشين ، وأنعى ما تحطم بينى وبين زوجى ، وأنظر إلى المستقبل بعين كلها اليأس والأسى . والحقيقة أنى لم أكن أعلم عن صديقتى برغم خفتها ما يخرج عفتها ، فأى شيطان دفعنى إلى ما أقدمت عليه ، وما نقرمنى كل من أحب ، وضرب حولى نفاقاً جعلنى أدور حول نفسى فى عزلى ، كما يدور الحيوان المفترس الحيس فى قفصه !؟ . .

أولوتزوج صديقتنا صديقتى برغم ما رأى فإذا يكون موقفى منه ، ومنها ، ومن زوجى ؟ . وإذا حدث ذلك ودعيت مع زوجى لحضور قرانهما فإذا

أستطيع أن أفعل ؟ . . أأدعه يذهب وحده فيصدق الناس ما أذاعته من
أني أحب زوجها ، وكنت أريد أن يطلقني زوجي لأتزوج ؟ . . أم أذهب
معه قطعاً لألسنة الناس ؟ . . وإذا ذهبت فبأي وجه ألقاها ؟ مرتـ بخيال
أمثال هذه الأسئلة المخرجة حتى ضقت ذرعاً بها وحتى أظلمت الدنيا في
عيني .

وهب صديقنا لم يتزوج فهل تظل صلته بي كسابق عهده في الأيام
الأخيرة إذ كان يروني في غرفة نومي وأنا في سريري ، أم تراه يتقبض عني
ولا يلقاني إلا بحضرة زوجي كما كانت الحال من قبل ؟ وبأي وجه
ألقى الناس في الحالين ، حال إقباله وحال إعراضه ؟ فهم لا ريب
سيقولون وسيعيدون ، ولن تفتأ صديقتي تضيع ثم تدع لتجعلني أحذنة
للمجمعات ، يتنربقصني المتندرون ، ويرثي لحالي الشامتون ، ويذهب من
شاء مذاهب أيسرها أن الحب والغيرة دفعاني لأزدرى ما تقضى به المروءة
وتفرضه الصداقة !

وعدت أسأل نفسي : « أي شيطان وسوس إلى ما أقدمت عليه ؟ فلو كنت
أحب صديقنا حب غرام وعشق لكان حبي إياه عذيري عن مؤامرتي ،
أو لكنت التمسيت وسيلة أخرى لإرضاء حبي . ولكني لا أحسن نحوه بنار
الحب المحرقة التي تبيح لمن تحب أن تفعل ما فعلت . . إني أعجبك بمجلسه
وبحسن إصغائه ، لكنه ليس وحده الذي يتمتع عندى بهذه الميزة ، بل إن
غيره من أصدقائنا المهنئين المثقفين من أحب مجالستهم ، وأعجبك بإصغائهم
وإعجابهم بحديثي ، وإن قلّ منهم من كان مثله كامل الرجولة ، جم الوفاء .

وإذا لم يكن حبي صديقنا حب غرام دافعى إلى فعلتى ، أفكانت غيرتى على زوجى ومخافتى أن تغصبه صديقتى منى هى هذا الدافع ؟ لقد ابتسمت ساخرة حين عرض لى هذا السؤال ، فزوجى آخر من تغار امرأة عليه ، لقد تزوجته فراراً من زوج أبى ، ومن بيت أبى ، وتزوجته طفلة غريرة لا أعرف شاباً غيره ، فأصفيته ودى ، ومنحته قلبى ، وشعرت بأنه يبادلنى حباً بحب ووداً يود . وربما دام شعورى ذاك لو أن الدنيا بقيت كما كانت فلم أعرف رجلاً غيره . لكننى ما لبثت بعد سنوات قلائل أن رأيته يحبنى بحكم الواجب لا من أعماق قلبه . ورأيت فى طبيعتنا تفاوتاً ينأى بى عنه ، فليس عنده من الطموح ما عندى ، وليست فيه رجولة العقل أو القلب ، أو أى من ألوان الرجولة التى تجعل المرأة تتعلق بالرجل وتفتى فيه . . إنه طيب بالغ الطيبة ، فيه صفات رب الأسرة العطوف الذى ييذل غاية جهده لإرضاء أسرته ، لكنه ليس بالرجل الذى يثير الغيرة لأنه لا يعرف الحب الذى لا يرضى بما دون قلب المحبوب وعقله وروحه وجسمه ليملكها جميعاً ملكاً تاماً مطلقاً ! . . .

ما الذى دفعنى إذن إلى ما فعلت ؟ . . لا أدرى ، وهأنذى أشعر الآن بأننى خسرت المعركة وأضعت كل شئ ، أضعت حتى كرامتى وأذلتت نفسى وكانت أعز من أن تذلل لإنسان ، وهأنذى أشعر بالعزلة وكأنى من الحياة فى سجن مظلم ، حتى أطفألى أشعر حين أراهم أنى غير جدية بأن أقبلهم ، لقد خاتنى ذكائى فلم أقدر لكل هذه العواقب ، إننى تعسة وليس على الأرض امرأة أنعس منى .

واستوحشت حتى من نفسى فكتبت إذا أقبل الصبح وخرج زوجى إلى



« انتهى فرصة خرج فيها زوجي وقال : « ما أجمل المرض في هذا السرير »

عمله . خرجت أضرب في الأرض على غير هدى مخافة أن يسأل عني أحد معارفى بالتليفون ، أو يسألني من لا أعرف عما أجترحت ويؤنبني عليه ، فإذا كنت في الطريق ورأيت الناس وتعرضت لضجة الحياة عدت إلى نفسي بعض الشيء إبقاء على نفسي أن تدهني سيارة ، أو يرتطم بي إنسان مشيت الذهن لأنه لا يجد قوت عياله ، أو آخر نزلت به كارثة اضطرب أمامها ولا يدري كيف يتخلص منها ، فإذا كان موعد الطعام رجعت إلى الدار التي زوجي وأطفالي ، وأنا مضطربة الذهن خائفة القوى .

ودخل على زوجي بعد أيام والتأثر بآد عليه وقال : « مسكين صديقنا ، لقد انتكس ولزم من جديد فراشه يعاني من الحمى أهوالا ، وقد دعاني صبح اليوم لعيادته فلما ذهبت إليه وفحصته تولاني القلق عليه ، وسأعوده كل يوم مرتين لأرى أثر الدواء فيه ، والله يساعدي ! . . . »

نزلت على هذه الكلمات نزول الصاعقة ، ألا لئن أصاب صديقنا مكروه لأكونن الآثمة الجانية ، وأردت أن أسأل زوجي عما إذا كانت حياته في خطر . فتلجلج لساني في في ، وعز على أن يدور هذا الخطر الأسود بخيالي ، فلما أمسيت تولاني أرق اضطربت في أثنائه بين اليقظة والإغفاء ، فإذا أغفيت رأيت صديقنا ترعده الحمى وسمعت يناديني . . . وحين بدت تبشير النهار هبيت من مرقدي كالمجنونة طائشة الصواب ، وسأولت جهدي ضبط أعصابي فإذا بي أرتعد ، وكأن بي من الحمى ما بهذا الرجل الذي جنبني عليه . . واستيقظ زوجي وتناول فطوره وذهب إلى عمله وتركني مستلقية في غرفة أخرى وقد خيل إليه حين دخل ورآني بهذه الصورة أني أرقأت ليلي ثم نمت

وجه الصبح . وأن من الخير لذلك أن يدعى أستعيد بالنوم راحتي .
فلما استطعت أن أجمع قواى خرجت إلى الطريق هائمة على وجهى ،
وجعلت أسير ثم أسير وأتلفت بين الحين والحين . مخافة أن يراى
أحد معارفنا ، وكأنى سجين هارب من سجنه . وطال لى السير وأنا لا أعرف
لنفسى غاية أقصد إليها ، ورأيت نفسى بعد حين على مقربة من « كوبرى »
عباس . فلت إليه وسرت فوقه حتى تومطته ، هنالك وقفت وأخذت أنظر
إلى صفحة الماء فى النيل . . أولو ألقيت بنفسى فى التهر فابتلعتنى لجته ،
ألا تكون هذه الخاتمة خير جزء لى ؟ . . مر هذا الخاطر بذهنى كلمح البصر ،
ثم استقر فى رأسى لا يرحها . . ولم أذكر لأول وهلة فجعية أطفألى بموتى ،
بل اعتبرته الوسيلة الوحيدة لنجأتى من الهم المقيم الذى جثم على صدرى منذ
انقلب على انتصارى ، وثبت نظرى على صفحة الماء فسحرت بها ولم أجده عن
إدامة النظر إليها منصرفاً ، وإبنى لكذلك تردداد فكرة الانتحار تشبهاً بنفسى
إذا برق طيف الطفلين فى خيالى ، وكأنما ينادينى : « رحماك يا أماه ! . . »
هنالك انهملت العبرات من مآقى وغامت الدنيا فى عيى . واستندت ييلى
إلى حاجز « الكوبرى » ولم أعد أرى شيئاً .

كم بقيت على هذه الحال ؟ . . ساعة أو أكثر أو أقل ! . . لا أدرى !
وكل الذى شعرت به أن المارة كانوا ينظرون إلى ثم يتخطونى لشأنهم ،
ولا يعنهم أمرى . وإبنى لكذلك إذ وقفت إلى جانبي سيدة ربّت ييدها
على كنى ، فتنبهت فزعة فنظرت إليها فإذا هى زميلة قديمة من زميلات المدرسة ،
فلما استيقنتها واستيقنتنى قالت : « مالك يا حبيبى وماذا يبكيك ؟ . . »

إنني لم أراك منذ سنوات ، ولكني سرعان ما عرفتكَ : إنك لم تتغيري عما كنت عليه أيام المدرسة . . لماذا تبكين ؟ . . هوني عليك فالحياة أهون من أن تدرقي عليها دمعة واحدة . . انظري إلى هؤلاء الذين يمرّون الآن بنا ، أتحسينهم أسعد منك حالا ؟ بل أتحسينهم أقل مني ومنك هما ولما ؟ . . إن منهم من لا يجد قوت يومه إلا بشق النفس ومنهم العاجز والمريض ، ومن أثقلته الأحزان والهموم . . نعم يا حبيبتي ! . . ومن نظر إلى بلوى الناس هانت عليه بلواه ، فهو في عليك وكفكفي عبراتك وتعالى معي ! . . » .

قالت هذا الكلام ، ولم تنتظر مني جواباً ، بل جذبتني من يدي وسارت وسرت أتبعها كأتى طفلة ولا تكاد قدماى تحملافي . فلما جاوزنا الجسر إلى الطريق ، قالت : « أراك متعبة ، فخير أن نركب عربة أوصلك بها إلى بيتك تستريحين فيه ، ونادت سيارة وطلبت إلى أن ألتى إلى سائقها بعنوان منزلي ، وألقيت نفسي منقاداً لأوامرها كأنني تلميذة من تلميذاتها ، فقد عرفت من حديثها أنها مدرسة ، وأنها مضطرة الساعة للذهاب إلى مدرستها ، ولولا ذلك لبقيت معي حتى أسرد سكينتي . وألقيت إلى السائق بعنوان المنزل فلما كنا عند بابه نظرت زميلتي إليه ، ثم قالت : « ألسنين هذا القصر ثم تبكين ؟ . . » .

وشكرتها من أعماق قلبي ، لا لأنها أنقذت حياتي ، بل لأنها ردتني إلى الطفلين العزيزين . . قالت : « أسعدك الله بهما وأسعدهما بك » . وألقت إلى السائق بعنوان مدرستها بعد أن اطمأنت إلى أنني دخلت المنزل ، وعبثاً حاولت من بعد أن أرى هذا الملاك الرحيم .

دخلت المنزل منهكة القوى محطمة الأعصاب لا أكاد أقوى على نزع
ملابسي . فلما استطعت نزعها وألقيت بنفسى فى سريرى إذا البكاء يغلبنى
من جديد ، وإذا عيناى تجردان يدمع هتون . وبعد برهة إذا جسمى كله
ترعده الحمى ، وإذا بى أضطرب فى فراشى اضطراباً جعلنى أصبح منادية
مرية أطفالى ، فلما دخلت على ورأتى ممتعة اللون أسرع إلى « الترمومتر »
ثم سارعت بعد أن نظرت إليه إلى إسعافى ! . .

وبعد سوية أقبل زوجى لموعد طعامه ، فلما عرف ما بى أسرع يفجئنى ،
ثم أمر بإقفال نوافذ الغرفة وبكرسى فى راحة تامة ، وجاء الطفلان بعد ذلك من
المدرسة ، فاستقبلتهما مربيتهما وأخبرتهما أتى مريضة ، ولذلك يجب عليهما
ألا يحدثا أية ضجة أو جلبة تزعجنى ، وأمسكت الطفلين ودخلت بهما على
فاذا هما ساهمان وكأنهما حدثتهما نفسهما البريثان بأن أمراً حدث ، فلما
وفقا إلى جانب سريرى اغرورقت عيناى بالدمع ونظرت إليهما كأنما أستغفرهما
أن كنت أجنى عليهما فأيتتهما ، وانصرف الطفلان كسيرى الطرف ثم غلبتهما
الطفولة فسمعتهما يضحكان ، عند ذلك شعرت بأنى كنت مقدمة على عمل
جنونى أنجاني القدر منه بأن بعث إلى ذلك الملاك الرحيم .

ولم يكن يشغلنى أيام مرضى غير نكسة صديقنا وحال صحته ! . . وقد
سألت زوجى غير مرة عن حاله ، فأنبأنى أنه تخطى الخطر وإن كان فى حاجة
إلى زمن طويل ليسترد عافيته ، فلما برئت واستطعت أن أخرج من منزلى
سألت زوجى أن أصبح يوماً فى عيادة هذا الصديق العزيز ! . .

وإذ رأيته وتبينت حاله رق قلبى رقة لم يكن يسيراً معها أن أغالب دمعى ،

ثم زادت بقلبي دقته فأمسكت يده وزوجى واقف بجانبى . وقلت : « أستحلفك بأعز عزيز عليك أن تسامحنى . . أنا أعلم أن ذنبى لا يسعه الغفران ، ولكنى أعلم كذلك أن وفاءك لصداقتنا يسموبك إلى ما فوق المغفرة ، يسموبك إلى الرحمة وإلى الإشفاق على بائسة منكينة ! . . » .

فنظر إلى الرجل وهو ممدد على كرسيه الطويل بعينين يشع فيهما عطف يكاد يكون الحنان وقال : « لقد سامحتك منذ زمان طويل ، وليسامحك الله وليسامحتنا جميعاً ! . . » .

لم أشعر فى حياتى بتضاؤل كبريائى مثل ما شعرت فى هذا اليوم . . . لقد شعرت بنفسى ، أنا المتعالية المعتزة بنفسى ، صغيرة ضئيلة تافهة محتاجة إلى كلمة عطف تسند ضعفى وتسكب ماء البر الطهور على ذنوبى ، وهأنذى قد سمعتها ، لكنى بقيت مع ذلك صغيرة ضئيلة تافهة .

وانقضت الأيام والأسابيع وعوفى صديقنا وعاد يتردد علينا ، لكنى بقيت برغم ذلك محطمة الأعصاب فلا بد لى من جو جديد تتغير فيه نفسيتى ، فلما أقبل الصيف قال لى زوجى : « ما أحسبك احتجت يوماً إلى السفر إلى أوربا حاجتك هذا العام ، فأعدى عدتك ! . وقد لا أستطيع السفر معكم ، ولذلك أعددت جواز سفر لك وللطفلين ، وأرجو أن يفيدكم تغيير الجو الفائدة التى أرجوها ، وشكرته ، وأخذت أفكر فى السفر وفى إعداد عدته ! . . » .

الفصل السادس

لم أنظر إلى اصطيافنا بأوروبا هذا العام مطمئنة النفس قريرة العين .
أنا حقاً في أشد الحاجة إليه . فهذا الجو الذى يحيط بى خائق . ولم يبق لى
طاقة بأحباله ، وأعصابى مرهقة يثيرها مس الهواء ، لكن الهواجس كانت
تفرغنى وتبلبل خاطرى وتزيد نفسى قلقاً وأعصابى اضطراباً . . فإبال زوجى
لا يريد أن يصحبنا إلى أوروبا ؟ . . أى شىء يحسكه بالقاهرة ليصلى صيفها
القائظ ؟ . .

وهنا ارتسمت أمامى صورة صديقتى وهى تنظر بعينها الجميلتين الساحرتين
إلى هذا الطبيب الذى وهبها كل عناية لإنقاذ ميراثها وميراث أطفالها ، أولاً تكون
هذه المرأة هى السبب فى تخلفه عن مصاحبتنا وبقائه بالقاهرة ؟ . . أنا أعلم
أنها تصطاف بالإسكندرية . لكن الذهاب من القاهرة إلى الإسكندرية ،
آخر كل أسبوع لقضاء يومين أو ثلاثة على مقربة منها ، والتقاءهما كلما شاء ،
أمريسير ! . .

وإذا أنا كنت قد فعلت ما فعلت لأمنع زواجها من صديقتنا ، أفأسافر
إلى أوروبا وأدعها تغصب منى والد أطفالى ، على حين أنتقل أنا بهما بين بلاد
المياه ، وفى أعلى الجبال الأوربية الجميلة .

ودار بخاطري أن أعتمر عن عدم السفر . وأن أكتفي بالذهاب إلى الإسكندرية أقضي الصيف بها . وإني لأفكر كيف أصور الأمر لزوجي إذ مررت صديقنا ، وأخذ يسألني عن موعد السفر وبرنامجه . قلت بعد حوار طويل : وما اهتمامك أنت وزوجي بهذا الأمر ؟ كأنما تريدان إبعادى عن مصر لأمر تدبرانه ؟ . .

فبهت الرجل لسامع هذه العبارة ، وقد قلّتها بنغمة كلها الجذ والحزم ! . . وقال بعد هنية :

« أوهجست بنفسك هواجس جنونية جديدة لتقول مثل هذا الكلام السخيف ؟ » قلت : « فلم إذن لا يصاحبنا زوجي إلى أوروبا ؟ » . . هنا تبسم الرجل ضاحكاً وقال :

« إذن فاعلمى أنه استدان المبلغ اللازم لسفركم ، وكنت أنا واسطته وضامته ، وهو يريد أن يشتغل في الصيف ليسدد ما استدان ، أويكفيك هذا العلم لتهداً نفسك وتسكن أعصابك ؟ »

قلت وأنا أحاول التسكين من وساوس نفسى :

« ما كان أغناه عن هذه الاستدانة وأغثنى عن التعرض لهذه المواجس ! . . إتنى لم أرغب إليه في السفر ، بل هو الذى عرضه على ! . . ولو علمت أن الأمر يقتضيه أن يستدين لما قبلته ، بل لكفانا أن نقضى معاً شهراً بأى مصيف وأن نقيم بقية الصيف هنا في وكرنا وملجئنا » ، وأجاب صديقنا مبتسماً : « ثم تبنى أعصابك مضطربة وحسك مرهفاً طيلة العام المقبل فتجعلين حياتك جحيماً ! لا تحسبى يا سيدتى أنه نسى في هذا الأمر نفسه ولم يفكر إلا فيك ؛

فقد ذكرت له حين طلب إلى التوسط في الاستدانة وضمانه فيها هذا الكلام الذي قلت أنت الآن . وعرضت عليه أن تذهبوا إلى مكان قصي كمرسى مضروح . فحدثني بلغة الطبيب الذي يعرفك خير معرفة أنك لا دواء لك إلا السفر إلى أوروبا ، وأن ما يتكلفه في ذلك من النفقة أسرع عليه من بقاءك فيها أنت فيه مما ينقص عليه وعلى الطفلين عيشهم . ألا ترين أنه يحسن التقدير والحساب ؟ فاطرحي من خيالك المريض هواجس لا وجود لها إلا في هذا الخيال ، واستقبلي سفرك بنفس راضية لتعود إليك صحتك ولتعود إلى طفليك مرحهما وابتسامهما ، وسأمر بك بعد ثلاثة أيام لأعرف كيف أعددت لرحلتك وبرنامجهما .

وصدق الرجل وعده ومرت بي بعد ثلاثة أيام فالتفاني أكثر هدوءاً وطمأنينة ، ذلك بأنني كنت قد أخذت أثق به وأطمئن إلى كلامه بعد أن أيقنت من خلال أحاديثه المتكررة أنه لن يتزوج صديقتي . وداريينا في رفق حديث هادئ أطلعتني في أثناءه على خطة سفرى وعدته ! . .

وصحبني هو وزوجي إلى الإسكندرية حتى ودعاني ساعة تحركت الباخرة ، فلما بعدت عن الشاطئ وغابت عنا آثاره ذهب استقبال هواء البحر أملاً منه صدرى ورتقي ، مقتنعة بأن فيه الدواء الناجع لعلتي ، واستنشقت هذا الهواء ملء خياشيمي فأحسست فيه حياة تنعش قلبي ، وترفع عن صدرى عبثاً كان يثقله ، وتمددت على مقعد طويل أرحت إلى مسنده ظهري ليكون صدرى أكثر استقبالا لهذا الهواء المحسن ، وتطلعت بنظري إلى الأفق الممتد بين السماء والماء وكأنما يتهادى مع الباخرة فوق لج البحر العظيم ، وانقضت ساعة

وأخري وأنا على هذه الحال . أزداد كل ساعة شعوراً بأن الأعصاب المنهارة التي كانت تتحكم في وجودي تستقيم وتقوى شيئاً فشيئاً ، ألم يقل صديقنا إن السفر إلى أوروبا فيه دواء علتي . وهأنذا أشعر بفعل هذا الدواء منذ اللحظات الأولى .

وأقبل المساء فكنت أهدأ نوعاً ، وتقضت أيامنا على الباخرة وأنا أشعر كل يوم بأنني أحسن حالا مما كنت عليه في اليوم الذي سبقه . وكان على الباخرة سيدات رقيقات رأييني ورأين أطفالاً فكان يداعبن الأطفال ويحادثنني في مألوف ما يتحدث المسافرون فيه ، فلما أصبحت اليوم الأخير بالباخرة تنأهب لإلقاء مراسيها على وصيف المرفأ ، جئن يودعنني ، ثم قالت إحداهن وكأنها تهمس في أذني :

« أهنتك من كل قلبي يا سيدتي ، لقد أشفقت عليك ساعة رأيتهك تصعدين الباخرة في الإسكندرية . كان وجهك شاحباً وملامحك متعبة ، وكان الجهد بادياً عليك ، وكأنما قضيت زمناً طويلاً في غرفة مظلمة ، أما الآن - ولا حسد - فوجهك مشرق وملامحك باسمة وكلك حيوية ونشاط » . فشكرتها وقلت : « لقد كنت أحس الإعياء حقاً ، لقد مرت بي أحداث أرهقني ، وأشعر الآن أنني أفقت وحييت ! » .

وسافرنا تراً من المرفأ إلى الجبال وأخذت أنتقل مع الأطفال من مصيف إلى مصيف وقد نسبت كل شيء إلا أنني حييت . فلما اطمانت إلى العافية وإلى أطفالاً أخذت أستعيد هذا الماضي القريب في دهشة ، وأعجب لما حدث فيه . فإذا رأيته بدأ يشغل حيزاً من تفكيرى لم يكن أيسر من أن أنهز أكتافي

وأعيد إلى متاعى الجمال الطيبة من حيث . لكن أمراً واحداً لم يبرح ذهني ؛
ذلك أمر صديقتي وعناية زوجي بشأنها وبميراث أطفالها عناية غير مألوفة .
فإن تحرك الرحمة والإنسانية وحدهما رجلاً . ليعرض نفسه إلى ما تعرّض له
زوجي من أجل هذه الفتاة ؟

وفيما نتقل بين المصايف صادفتني السيدة الأمريكية المعنية بزيارة سريريها
أكثر من عنايتها بزيارة خروجها ونزولها . وهي التي عرفتني الصيف الماضي
إذ كان زوجي معنا في أوروبا . فقد صادفتني أسير في بهو الفندق وطفلي
يسيران معي ، فلما رأته أقبلت عليّ وعانقتني وأبدت من السرور بلاقائي
ما أنعش نفسي . وعدنا سيرتنا العام الماضي ، وزدنا عليها أنني جلست وإياها
على مائدة واحدة في غرفة الطعام .

وكانت تدعو بعض أصدقائها وصديقاتها أحياناً لتناول الطعام معنا ،
فيتيح ذلك لنا فرصة الحديث في شؤون شتى . ولخولاء الغربيين جرأة على
موضوعات يمنعنا الحياء في مصر أن نعرض لها . ولست أنسى لهم حديثاً
ترك في نفسي من بعد أثراً عميقاً ، وكان للسيدة الأمريكية فيه رأى جرىء
لم أجد مثل صراحته فيما سبق من مطالعائي . فقد تحدثوا عن الحب وعن
صلات الرجل والمرأة ، وأيد بعضهم ما يقوله الروائيون من أن الحب عاطفة
يقصد بها الرجل تملك المرأة ، وأيد آخرون مذهب شوبنهاور من أن الحب
أسطورة تقصد الطبيعة من ورائها إلى تخليد النوع وتحسينه . قالت الأمريكية :
« أما أن الحب عاطفة يقصد بها الرجل تملك المرأة فحديث خرافة ابتدعه
الرجال إرضاء لغرورهم ، فلست أعرف رجلاً تملك امرأة في غير الكتب التي

يزورها القصاصون : أما الواقع فإن النساء هن اللواتي يمتلكن الرجال ويسخرنه
كما بشأن لأغراض الحياة . وقصة آدم وحواء تصور هذا الواقع خير تصوير .
فحواء هي التي أرادت أن تطلع من شجرة الخلد فسخرت آدم لما أرادت
فأذن لها وهو يعلم أنه يخالف بهذا الإذعان أمره . والمرأة هي التي تخلق من
الرجل ملاكاً أو شيطاناً حسب هواها ، ترتفع به إلى الذروة أو تهوى به إلى
الحضيض . وقل أن كان العكس صحيحاً ، والرجال أنفسهم لا ينكرون على
المرأة هذا السلطان ولا يابونه . ألا يتحدث الشعراء من أقدم العصور عن
ربة الشعر على أنها مصدر وحيهم وإلهامهم ، والغزل في الشعر من فنون الرجال
يتنزلون به في المرأة ويتخذونه زلياً إليها ؟ . . وقل أن روى التاريخ لامرأة
شعر غزل إلا أن يكون الرجال قد زيفوه ليتزلوا بالمرأة إلى مثل مكاتهم ،
وماذا يملك الرجل من المرأة فيما يزور القصاصون؟ جسمها . إنه يملكه سوية بذل
لصاحبه بعدها ما عاش ، وفي طبعها مافي طبع كل أنثى مما يذكره شوبنور :
أن تخلق النوع . والرجل يحسب أنه يملكها حين تسخره هي ليتم أسمى
غرض في الحياة وأرفعه ، ذلك أن تخلق جيلاً جديداً ! . . »

قالت سيدة من الحاضرات : « إن ما ذكرته يصدق على الزواج أو على
التناسل إن شئت ، لكنك لم تذكر شيئاً عن الحب ، والحب لا صلة له
بالتناسل ، بل هو عاطفة مجردة مكثفة بذاتها كالصدقة ! . . والحب كلما
ازداد تجرداً ازداد سموً ، وكلما كان خالصاً لوجهه وحده كان رحيق العواطف
وخلصتها جميعاً . »

أجابت الأمريكية . « إن هذا الحب الرحيق الذي تذكرين ، وهذه

العاطفة السامية المكتفية بذاتها : حب ملائكتي لا يعرفه بنو الإنسان . وهو على كل حال ليس الحب الذى يذكر القصاصون أن الرجل يقصده به إلى امتلاك المرأة . ولئن وجد هذا الحب الملائكى بين شاب وفتاة ، أو بين رجل وامرأة ، ونذر كلاهما لله أو للعداء ألا يقرب أيهما صاحبه . وألا يكون بينهما قط شئ من صلة الجسد . إنهما إذن لمن أتى أبناء الكنيسة الكاثوليكية البرة المطهر ، وليس من أبناء عالمنا نحن ، عالم الحياة والتجدد . أما حب الرجل والمرأة فى عالم الحياة فغايتة إنشاء الشركة اللازمة لأداء واجب الحياة على خير وجه ، ووسيلته التجانس والتجاذب بين الشريكين على نحو يكفل انتقاء أحسن بذرة للتربة التى تصلح لها ، والتى تتكفل هذه الشركة بتعهد ثمراتها هذه صورة مادية قد لا ترضى الخيال الشعرى ، لكنها الصورة التى تتقل مع تاريخ الإنسانية منذ عرفنا تاريخ الإنسانية . فالتشريع الذى وضعه الرجال فى مختلف العصور يقررها ، والواقع الذى تراه أعيننا يشهد بها . فإذا أراد رجل أو أرادت امرأة أن تسمو على هذه الصورة المادية فقد أنكر كلاهما واجب الحياة وتكرله ، وهذا - مع الشئ الكثير من الأسف - ما تيقنته أنا بعد تجارب كثيرة مريرة ! . .

قلت - ملقية الكلام إلى الحاضرين من غير أن أوجهه إلى أحد بذاته : « والغيرة ! . ، ألما صلة بالحب ؟ أم أنها مستقلة عنه قائمة بذاتها ؟ . » .
قالت الأمريكية - وكأنما حرك هذا السؤال عندها شجناً دفيناً : « غيرة المرأة عاطفة طبيعية باعثها الدفاع عن النفس ، وعن الملك . فالمرأة كما ذكرت تملك الرجل الذى تحب وتحرس على ألا تفرط فيه ، وهى

نذلك نحوضه بالعناية التي يحيط بها الإنسان أعز ما يملك . وهي تعتبر ماله ملكها . وصحته ملكها . وقلبه ملكها . وسمته ملكها ، ومكانته في المجتمع ملكها . فإذا حاولت امرأة غيرها أن تغصب هذا الملك منها فن حقها أن تدفع هذا الاعتداء بكل وسائلها . وفي مقدمة هذه الوسائل أن تنصب شباكها حول الرجل نفسه حتى لا يفلت منها ، فإن نجحت فذاك . وإن تغلبت عليها غريبتها أو حاول رجلها أن يفر منها فن حقها أن تعلن عليها حرباً شعواء . قد تكون الخزيمة في هذه الحرب نصيبها ، ولكن خوف الخزيمة لا يجوز أن يشيها عن النضال . فلا تفرط في قيد أئمة من ملكها إلا مغلوبة على أمرها . وإذا هزمت مع ذلك فلها العذر ولها من أساليبها في النضال عن ملكها عزاء عن فقدته آخر الأمر ، وإن لم يرد هذا العزاء فائتاً ولم ينجها من أن تغرق نفسها فيما يذيب الهم ويذهب الحزن .

قالت الأمريكية عباراتها الأخيرة وقد شردت نظراتها وانخفض صوتها وكأنما حركت نفسها هواجس ماضٍ قاست فيه أهوالاً ، وانهمزت فيه بعد دفاع طويل مجيد . . عند ذلك أدركت عرصها على الشراب : تغرق فيه همها . وقد رأيتها ذلك اليوم أشد إكباباً عليه كأنما هاجت الذكري أشجانها فاستعانت بالشراب على نسيانها وخشيت أن يعاودها من هذه الذكري رجوع يثير من نفسي ما لا أريد أن يثور وأنا حريصة على أن أفيد لصحتي ولأعصابي ولكل حيويي من هذا الاصططاف ما استطعت ؛ فانتقلت إلى مصيف آخر أكثر مرحاً وأخذت أعبت أنا وأطفالي وأرتع معهم ؛ نرتفع إلى قنن الجبال ؛ ونلعب في الثلوج البيضاء المتركمة عليها ، ونهبط إلى الوديان نستمتع بخضرتها

ومينها وانتقل ثم تنتقل حتى لا يدع لى المقام فى مكان واحد فرصة للتفكير فى غير المرح والمتاع .

وعدنا آخر الصيف إلى مصر . واستقبلنا زوجى على ظهر الباخرة أول ما أرسى بالإسكندرية . وفرح الطفلان بأبيهما فتعلقا بعنقه وأخذوا يقبلانه . فسألنى هوكيف أمضيتنا صيفنا ، فذكرت له طرفاً مما رأينا . وذكرت الأمريكية التى زارها معى العام الماضى فى غرفة نومها . ولكنى لم أذكر شيئاً من أحاديثها وأحاديث أصحابها . وسألته بدورى كيف قضى صيفه ؟ ورجوت ألا يكون قىظ القاهرة أرقهه ، وأجابنى أنه استطاع أن يتنزه فترات جاء فى أنثائها إلى الإسكندرية يستريح من عناء العمل ويستشق هواء البحر يسرى به عن نفسه ويتناض به من قىظ بلغت درجته الأربعين فى بعض الأيام ، وذكرتى زوراته الإسكندرية حيث مصطفى صديقتى بهواجسى قبيل سفرى إلى أوربا . على أنى آثرت الصمت فلم أقل شيئاً .

وانتقلنا إلى القاهرة ، وجاء صديقتنا يحمد الله على سلامتينا فأبدى اغتباطه بما أفدت لصحتى من رحلتى وسروره بما عاودنى من سكوتى وطمأنينتى ، وتقضت أوائل الخريف بعد ذلك رنية متشابهة تبعث إلى النفس السأم والملال . فلما كنت فى الأيام الأولى من شهر ديسمبر أقبل زوجى يوماً يذكرلى أن جماعة من أصدقائه الذوات ، سيدات ورجالا ، يريدون أن يستمتعوا تلك الليلة بضوء القمر عند سفح الأهرام ، وأنهم يدعوننا لمشاركتهم فى هذا المتاع ، وأنه ذكر لهم أن مثل هذه التزهة الليلية غير مألوفة لى ، فالتحوا عليه فى أن يقنعنى بمشاركتهم ويقول دعوتهم ، وأنه وعدهم أن يفعل ، وسألنى بـم

يحييهم . قلت : « وما رأيك أنت ؟ فأننا في هذا الأمر على ما تحب . إن شئت ذهبنا وإن شئت اعتذرنا » .

وإنما أردت بهذا الأدب الجمل أن ألقى عليه كل التبعة . . على أنني كنت أود من كل قلبي أن يقبل هذه الدعوة . فهي لون جديد من الحياة يشوقني أن أعرفه ، وأصحابها طراز من الجمعية القاهرية الراقية يسرنى أن أتعرف إليهم . ولقد كنت فوق هذا وذاك أفكر في الوسيلة التي أسرد بها زوجي إلى حظيرتي . فلا يبقى لدى خيال شك في تعلقه بصديقتي . وقد استبدني هذا التفكير بعد أن ذكر لي حين استقبلنا على الباخرة بالإسكندرية أنه جاء من القاهرة إليها غير مرة في أثناء غيابنا في أوروبا حين كانت صديقتي تبسطاف بها ، فإذا قبلنا هذه الدعوة فتحت أمامي باباً أنفذ منه للغرض الذي أقصد إليه .

وبدا على زوجي بعض الردد بعدما ذكرت أنني تركت الأمر له . قلت : « فيم تردد . . إن لم يكن في هذه الدعوة ما يغريك فلا أسرع عليك من أن تعتذر عنها : وكل الذي أرجوك فيه ألا تحتج في اعتذارك بي حتى لا يفسر القوم ذلك تفسيراً يسوءني . . نستطيع إن شئت أن تحتج بعملك ، فأنت طبيب معرض لأن تطلب في كل وقت ، أما إن راقك أن تقبل الدعوة فأبلغ أصحابها شكرى إياهم واغتناطى بالتعرف إليهم » .

وسكت زوجي هنيئاً ثم قال : « أما وأنت لا ترفضينها فأننا أقبلها ، وسأبلغهم ذلك الساعة ، وإنني لوائق من أنك ستسرين بمعرفتهم ، فهم غاية في الرقة رجالاً ونساء ، وقد أبدوا من الحرص على التعرف إليك ما شكرتهم

عليه . وإني لواقئ من أنكم ستصبحون أصدقاء عما قليل » .
 ما أشد غبطتي وما أسعدني بما قال ! فهذا يتفق مع ما دار بخاطري
 وما فكرت فيه من وسيلة أسرده بها إلى حظيرتي ، لا بد أن أثير الغيرة في
 نفسه حتى لا يظل متوهماً أنني لا أعرف غيره ، ولا أحب غيره ، ولا أقدر
 غيره . مما دعاه إلى الاكتفاء نحوي بأداء واجبه رباً لأسرتنا . وأن يتناسى
 شخصيتي وما حباني القدر من مواهب يعجب بها غيره أشد الإعجاب .
 وأقبل المساء وأشاع القمر بضياؤه الرطب الندى معاني النعم في أجواء
 القاهرة واشتملها كلها . وترينت لهذه التزهة الصحراوية زينة جمعت إلى
 البساطة الإغراء . ودق التليفون ، وقال زوجي : إن القوم في طريقهم إلينا ،
 فهبطنا إلى الطابق الأول حتى إذا سمعنا تغير سياراتهم خرجنا إليهم فالفيناهم نزلوا
 من السيارات لتحييتنا ، وتعرفت إليهم ، ودعاني أحدهم لأجلس في سيارته
 إلى جانبه وهو على عجلة القيادة ، وذهبت زوجة في سيارة أخرى ، وتفرقنا
 حتى لا تجلس زوجة مع زوجها في سيارة واحدة . وانطلقنا مسرعين حتى
 إذا بلغنا طريق الهرم سرنا على هون مبطين ، وما كان لنا ألا نفعل ، فقد
 سكب القمر على ما حولنا من المزارع والمساكن أمواجاً من نور غمرت ما بين
 السماء والأرض وجعلتنا نسبح منها فوق أثير شعري رقت معه قلوبنا وسمت
 عواطفنا حتى كادت تلتقي وتتعاقد ، قلت لزميلي في السيارة : « لست أدري
 كيف أشكر لكم هذه الدعوة ، فلست أذكر أنني رأيت القمر أبهى سناً وأروع
 جمالاً في حالته البديعة مما هو اليوم ، لقد طالما اجتزت هذا الطريق في ضوء عاشق
 السماوات فلم أره يرنو إليّ ويحدثني بمثل هذه اللغة التي يحدثني بها الليلة ؟ ! » .

وأجاب صاحبي : « أنت يا سيدتي التي أوجيت إلى القمر كل هذا النسر الذي يقع لنا الليلة أنغامه : سترينه على سفح الأهرام وعلى وجه أبي اخير أروع شعراً وأبدع إيقاعاً بفضل وحيك وإلهامك . . » واتصل بيننا بعد ذلك حديث رقيق حرصت ما استطعت على أن يزداد ظرفاً ورقة وسحراً : فإذا تحدث الرجل بعد ذلك عني حديثاً بلغ سمع زوجي عرف أنه ظلمي وأن من حتى أن أثور بهذا الظلم .

وبلغنا سفح الأهرام وأوغلنا في الصحراء ثم تركنا السيارات وأخذنا ننعيم في هذا الجو الشعري الساحر بأعذب ألوان الحس . . كنا نتطلع إلى ناحية الأهرام فزاهها قد كساها القمر من ضيائه حلة زادت بها وهابة وروبة . ثم نتطلع إلى رمال الصحراء المتموجة تحت أشعة القمر في ارتفاع وانخفاض يتخلقان منها بحراً لجياً وإن لم يصطبغ له موج ، وإن كان صامتاً صمت الليل : وترتفع ببصرنا أحياناً إلى السماء فإذا الجو كله معطر بعبير هذه الساعة اللذيذة المتعشة ، وإذا القمر قد أذاب في هذا الجنوناً مطمئناً تسريع له العين وينهل منه القلب . وتتشظى بسحره العواطف ، ويعبث الهوى في أنثائه بالأفئدة بين الجوانح ! . .

وسرعان ما أقام القوم مرقصاً على أنغام أسطوانات جلبوها وجلبوا « فيونوغرافها » معهم ، وشاركت وشارك زوجي بطبيعة الحال في الرقص . وإن لم نرقص مرة واحدة معاً خلال الساعات المتعاقبة التي شهد فيها ساهر الساعات هذا المرح السابغ المجنون ، وقد أقيت نفسي في أثناء هذا الرقص بين أذرع الرجال من أصحابنا جميعاً ، وجعلت أكثر رقصاتي مع زميلي في

سيارة . وكنت في أثناء رقصي معه أتابع الأحاديث الحلوة التي بدأناها في ضيق آخره .

فلما أخذنا من الرقص حفظنا كاملاً . جلسنا على سجادة جيء بها هذا الغرض وتناولنا طعاماً خفيفاً نكفم به صيحات معدتنا بعد أن هضم الرقص ما كانت تحتويه . وجعل القوم في أثناء الطعام يشنون أطيب الثناء على رقصي وينسبون لقوامي البارع أكبر الفضل فيه .

وعندما أدرأجنا بعد أن شكرت القوم من كل قلبي ، لأنهم أتاحوا لي فرصة متاع لا عهد لي بمثلها من قبل . وأجاب القوم بأنهم هم الذين يشكروني . لأنني دفعت إلى سهرتهم من حيويتي ومن رقي حياة ورقة لم يعرفوها فيما سبق هم من مثلها .

وانطلقت السيارة بي وبزوجي في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فلما شعرت أنني وإياه في خلوة قلت : « ألم تحدثك نفسك طيلة ساعات الرقص أن تطلبني لرقصة معك ؟ ! » . . « وكأنما أدهشه سؤالي هذا فأجابني : « لقد رأيتك في أثناء الرقص كله في غبطة لم أريد أن أفسدها عليك أو أنتقص منها ! . . » قلت : « لست أنكر أنني اغتبطت بهذه التزفة الساحرة من أولها إلى آخرها ، لكنك كنت أكثر مني اغتباطاً ، فقد رأيتك ، تائهاً في أحلام أفصح سعة من الصحراء . . وأقسم أنني لم أكن خطرت بأحلامك ، ولو أنني خطرت بها لدعوتني ، ولو مرة واحدة إلى الرقص معك . . » .

وأجابني - وكأنما أخذ لهذا الجواب عدته : « لكن ذلك لم يكن يليق . فنحن مدعوان إلى هذه الحفلة فيجب ألا يشعر أصحابها بأننا ننكش عنهم

إلى ناحية . لحظة واحدة . ولأى اعتبار ! . . . قلت : « وما لهم لم يروا ذلك فيما بينهم . فقد راقصت كل سيدة زوجها مرة على الأقل ، أما أنت فقد تعمدت إهمال لغرض لا أفهمه » ! . . وأدبرت وجهي غاضبة واستمر هو يقود السيارة إلى منزلنا .

ورب في صديقنا الغداة فقصصت عليه أبناء مهربنا وفا داريني وبين زوجي حين عودتنا . فابتسم وقال : « مسكين زوجك ، إنه رجل طيب ، ولكنه لا يفهم العواطف كما تفهمينها ، هي ليست في نظره لوناً من ألوان الفن الجميل الذي يشهد الناس صوره المختلفة على المسرح ، ولكنها بعض واجبات الحياة الزوجية يؤديها الرجل فيما يبيده من عناية براحة زوجة وأولاده . وعذره عن هذا القهم أنه فلاح ، هو من أبناء الأعيان يرون الحب المسرحي عيباً غير لائق بالناس الطيبين ، وهو مقتنع بأنه يؤدي لك ولطفليك ما لكم عليه من حق . ويحسب أنه يؤدي هذا الواجب على الوجه الأكمل ، وهو يظهر لي دهشته أحياناً ويسألني أمقصر هو في حقكم في شيء برغم ما يحمل نفسه من أعباء يخشى أن يبنو بها يوماً من الأيام ؟ » ! . . .

وقلت في نفسي : « نعم . هو فلاح وفيه خبث الفلاحين ، وكل ما درسه وكل ما رآه في أسفاره إلى أوروبا ، وكل ما تعلمه من معاشره الذوات وأبناء الذوات لم يغير طبيعته ، وإن أسبغ عليه طلاء ظاهراً من الثقافة والتعلم ، فإذا حلك هذا الطلاء ، ظهر الفلاح بقسوته وضعفه وخبثه ، ألا يتزوج أحدهم زوجة ثانية ثم لا تعلم زوجة الأولى بما فعل ستين متعاقبة ! . . وما يدريني لعله تزوج صديقتي ! . . وهو لا ريب يحبها وإن لم يتزوجها . . إن هذه الطيبة

حتى يتظاهر بها ليست إلا ثوب رياء يستر به مكره وخبثه . . أفلا يجعل في
أن أحاربه يمثل سلاحه ، فأظهر غير ما أبطن . على بذلك أستل منه سره
وأقف على مكنون صدره ؟ ! . . .

وفي الغد كان القمر بدرًا كاملاً . فاتفقنا مع أصدقائنا الذوات على أن
نوغل في الصحراء ، وأن نجعل الاستراحة القائمة في منتصف الطريق بين
القاهرة والإسكندرية غايتنا . وقضينا وقتاً ناعماً استمعنا فيه من « الجراموفون »
أحلى الأغاني وأعذب الأنغام . وتناولنا من الأحاديث ، كل جماعة في
ناحية . ما أرضى هواناً وأمتع أرواحنا وقلوبنا . ألا ما أروع الصحراء في
ضوء القمر ! . . أنت منها في لجة تجمع السماء والماء والأرض في غلالة من
غمام مضى : لا تعرف العين له بداية ولا نهاية ، ولا تعرف أين منه مساكن
الشياطين وأين منه منازل الملائكة ؟ . كل شيء فيه مبهم أمام العين واضح
أمام البصيرة تقرأ سطور الغيب في لوحة المحفوظ ، فأنت تشعر وأنت في هذا
المحيط الباهر الوضاء ، كأنما كشف عنك غطاؤك ، وكأنما اتصلت على موج
الأثير بعوالم الكون جميعاً وهي مع ذلك محجوبة عنك ، لا ترى فيها الدقائق
التي ترى في وضوح النهار ، وأنت مع ذلك معجب بما ترى : تحسب أنك
استبظنت أسرار الكون وعرفت منها ما كان وما يكون ! . .

وعدنا أدرأجنا حين تكبد القمر السماء ، وإننا لنهب الطريق إلى القاهرة إذ
وقفت إحدى السيارات ، واندفع فغيرها يعلن نداء الاستغاثة ، وفي لمح البصر
اجتمعت السيارات كلها حول السيارة المنكوبة ، ونزلنا جميعاً رجالاً ونساء
نتساءل : ما أصابها ؟ ولم يكن العطب فادحاً ، إنما هي عجلة انفجرت ويجب

تبدليها ، يكفي إذن أن يتعاون رجلان في هذه المهمة . وكان أحد الرجلين زوجي ! . . . وانصرفنا جميعاً ستمتع من جديد بالهواء المنعش ، والضياء الرقيق . والحديث العذب ، والضحكات الناعمة تتأرجح على أرج النسيم فتنتشي بها أسماع الرجال نشوة تترجمها بسمات ثغورهم ، وبريق عيونهم ! . . . وكنا إذ ذاك في طريق الصحراء على بضعة كيلومترات من طريق الحرم . فلما استعادت السيارة المنكوبة مقدرتها على السير ركبت كل سيدة مع زوجها حتى بلغنا منازلنا .

لقد لي عيش هؤلاء الذوات ، واستراحت نفسي للون حياتهم ، وأعجبتني فيهم ظرفهم وحسن ذوقهم في الحياة ولطف مسلكهم فيها ، وارتبطت لذلك معهم بأوثق صلة . ولقد كنا حين لا يسعنا ضوء القمر بسهرات في الهواء الطلق تؤثر أن نجتمع في منزل من منازلنا نقضي فيه سهرة لا تقل عن سهرات الصحراء متاعاً ومرحاً ، كنا نرقص ونغني ونستمع إلى الموسيقى تثير من ألوان الطرب مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا عدت مع زوجي إلى منزلنا في المزيج الأخير من الليل كان الجهد قد أخذ منا ، فنمنا إلى الضحى ، فإذا استيقظت علمت أن زوجي قد بكر إلى عمله كمادته ، وأمر ألا يزعجني عن فراشي أحد ! . . .

ولم أكن أحسب أن هذا اللون من حياة الذوات باهظ النفقة . لكني سرعان ما تبينت خطئي ، فالولائم والأزهار النادرة والحلي والثياب ، وما يتصل بذلك من ملحقاته لا ينتهي حين يبدأ ولا تنتهي نفقاته . ونحن نعيش من قبل عن سعة اضطرت زوجي للاستدانة سداً لنفقات سفرنا إلى أوروبا .

وليس في مقدورنا الآن وقد عرفنا هذه الألوان الجديدة من الحياة ، وتعرفنا إلى أصحابها أن نرتد عنها ، حتى نترع منها ويفيض بنا كأسها ، ولم يدر بخاطر زيجي أن يخالفني في ذلك حذر المستقبل . ولعل عقله الباطن هو الذي صده عن أن يفعل مخافة كلام الناس . . إنه يحسب أنه انتقل بي إلى مصاف الذوات . ومن العار عليه أن يرتد بي عن هذه الصفوف خشية إملاق . . فآله يرزق من يشاء بغير حساب . . أليس صاحبه المليونير كان إلى بضع سنوات متواضع الثراء ، وكان يقترض منه ثم يرد له ما اقترضه ، فما ضره وقد أصبح الرجل مليونيراً أن يقترض هومنه في انتظار أن يسد الله عنه دينه . . ! . ولكن ! . . كيف يحتال لذلك من غير أن يجرح إياه الذائق . . دعا المليونير إلى وليمة فاخرة عندنا وأوصاني أن أبالغ في اللطف معه والتودد إليه وحسن اللقيا لزوجته . ولم أجد في تنفيذ الوصية مشقة . . فقد أعجبتني هذه الزوج وحلت أجمل مكان من نفسي ، فبالغت في تحيتها عن رضا مني واطمئنان إليها . وكان المليونير قليل الكلام ، كثيراً ما يغيب بذهنه عن المجلس وكأنه يفكر في مشروعاته وحساباته ، وقد بذلت جهدي لاستدراجه إلى الكلام في الشئون الجارية مما تنشر الصحف أو تتداوله المجالس ، فكان يحصر ذهنه ليحسن الإصغاء إليّ ، ثم يحينني في عبارات موجزة جديّة محكمة . وزرنا الرجل بعد ذلك وتردد علينا . لقد طالما سمعت عنه من رجال ذوى ثقافة أنه محدود الأفق لا يستطيع أن يسمو بعقله فوق الماديات ، وفوق ما يتناول الناس من منافع الحياة . وقد أردت أن أسبر غوره ، لأعرف مبلغ ما في هذا الكلام من دقة وصدق ، فدلّني ما شهدت على صحته ، لكنني رأيت

ذلك التفكير المادى الذى ينسبونه إليه واسع المدى إلى غير حد ، إذا تكلم فى أحد مشروعاته تناول تفاصيله فى دقة غاية الدقة ، وقصّر ما أفق للحصول على هذا المشروع من جهد ومال قصصاً يستهوى اللب ، ويكاد يذكر الإنسان بالقصص البوليسية . وهو يؤمن بالمال إيماناً لا حد له . وقد ذكرنى إيمانه هذا ببنى آخر نعرفه جعله الإيمان بالمال شحيحاً غاية الشح ، إلا أن يكون له من وراء السخاء منفعة مادية ، هنالك ينفق عن سعة ولكن بحساب . عابه أحد أصحابه يوماً لعبادته المال وحرصه عليه ، وكان صاحبه هذا مولعاً بالتحف والصور الزيتية ينفق فى اقتنائها الشيء الكثير . وكان جواب الغنى الشحيح على ما عابه به صاحبه صريحاً واضحاً ، قال : « أو تستطيع أن توضح لى سبب اقتنائك هذه الصور ، التى تزين جدران بيتك ، وهذه التحف الكثيرة المثورة فى أرجائه ، وهى تكلفك الألوف ١٩ ؟ » ، ودهش صاحبه وقال : « عجباً لك يا أخى . . ألا تعرف شيئاً اسمه الجمال وذوق الجمال والمتاع به ، إننى إذ أقف أمام هذه الصور وهذه التحف أتأملها أشعر بمتاع يتضاءل المال إلى جانبه ، ويهون فى سبيله . إنما المال يا أخى وسيلة للمتاع بالحياة وجمالها ، فإذا نحن لم ننفقه واكتنزه لم نعرف للجمال قدراً ولم نسع للحياة طعماً » ! . . قال المؤمن بالمال : « إنى أوافقك على كل ما قلت ، ولا أخالفك إلا فى استنتاجك الأخير . . أنت تعشق الجمال وترى فى اقتناء الصور والتحف وإن كلفتك من المال ما كلفتك وسيلتك إلى المتاع بالحياة ، وأنا أرى فى المتاع بالحياة رأياً آخر . . إنى حين أتناول كشف حسابى من البنك آخر كل شهر وأرى رصيدى فيه يزداد ، أشعر بمزيد من العزة والسلطان

يضاعف متاعى بالحياة . ولا تُربى على ولا عليك إذا اختلف ذوقنا في المتاع بالحياة ، واختلفت وسيلتنا إلى هذا المتاع » ! . .

ولم يكن للمليونير كذلك إيمان عميق بغير المال . فكان غرامه بالنساء هوى طارئاً لا عمق فيه ، وكان تعلقه بمتع الحياة سطحياً لا يعنيه منه إلا المظهر البادى للناس يرضى به غرور نفسه وكبرياء سلطانه . كان لكاتب صحفى دالة عليه ! . . ولقد زاره يوماً وأخذ يتحدث وإياه في أمور جارية لا نتيجة لها ، ودخل السكرتير وأخبر المليونير أن أحد أصحاب الدولة السابقين يستأذن عليه ، وكان صاحب الدولة السابق هذا عضواً منتدباً لإدارة شركة من شركات المليونير ، وأجاب الرجل سكرتيه : « قل له فليستظر فى حديث معه . » فلما انصرف السكرتير قال الصحفى : « ليس بيننا حديث ذو شأن حتى تنظر رجلاً فى مقام صاحب الدولة هذا » ! . . وكان جواب المليونير : « بالله عليك خبرنى . أتحبب أنى ، ولى من الثراء مالى ، آكل خيراً مما تأكل ، أو ألبس خيراً مما تلبس ، أو أنام فى فراش أوثر من فراش نومك ؟ . لا شئ من كل هذا ، فأى قيمة للثراء إذن إذا لم أشعر أنى أستطيع بفضل سلطانه أن أدع صاحب الدولة هذا وأمثاله ينتظرونى إن أمرت ويدخلون علىّ إن شئت ! ؟ » .

كنت قد سمعت هذه القصة وخشيت أن ينال زوجى ما نال صاحب الدولة يوم يعلم المليونير أنه يطمع منه فى قرض . على أن زوجى لم يخبرنى من ذلك بشئ ، ولم أسأله أنا عن شئ ! . . لكنى لاحظت بعد أن تم القرض أن المليونير قل تردده علينا ، وكان أكثر مجيئه حين يكون زوجى فى عمله .

وكنيت ألقاه مطلقة في مودة ، فإذا عاد زوجي من عمله أخبرته بمجيئه وقصصت عليه ما دار بيننا من حديث فلا يعلق على ذلك بكلمة . وكان رجلا لم يقابل زوجه ولم يقل لها عبارة مجاملة .

أدهشني هذا الجمود من زوجي فلا تحركه أية غيرة على . أنا التي فعلت ما فعلت لغير شيء إلا لعنايته بمراث صديقتي وأطفالها . أتراني أحبه وهو لا يحبني ؟ ! . أم أنه طراز من الرجال لا يعرف كيف يعبر عن حبه برغم تعلقه بي ! . أنا لا أطلب إليه أن يكون شاعراً يتغزل في ، ولكني أريد منه أن يتحدث إلي ويصفني لحديثي في إعجاب كما يفعل صديقتنا . وكما يفعل غيره من الرجال الذين يقضون الساعات مصغين وعيونهم تتاجني في صمت وإذعان . ألا تسمي ليوم ربط الزواج بيني وبينه فيه !! ولكن ماذا عساي أن أفعل وهذان الطفلان يوثقاننا في رباط يتعذر الفكك منه ؟ ! . ولم أكن أستطيع أن أشكوه إلا لصديقتنا ، فزوجي اليوم طيب مشهود لطفه بين زملائه وبين مرضاه ، ولو أنني شكوته إلى أي لرماني بالجنون ، ولنسب جنوني إلى خلة ورثتها من أمي ، فذلك دأب الرجال ينسبون فضائل ذريتهم إلى ما ورثوه منهم ، وينسبون عيوبها إلى ما ورثوه من أمهاتهم ، ذلك شأنهم ولو كانت الأم لا تزال معهم وكانوا لا يزالون يحبونها ، ما بالك بهم إذا انفصلت الأم عنهم أو ماتت وحل غيرها محلها عندهم ؟ ! .

والآن ماذا أفعل إزاء ذلك الجمود الذي يلقاني به زوجي ! إنه لا يزيد على أن يسألني عن حاجاتي وحاجات أطفالي ، فإذا ذكرتها قضاها أو أتاح لي فرصة قضائها . لكنه لم يعن يوماً بشئ جديد أو تديبه ، ولا بقبعة البسها ، ولا بحذاء

نعمه . ولم يقف أمام شيء من ذلك مثنيًا في إعجاب . وهو إنما يتحرك
عص الشيء للجديد الذي يلبسه الطفلان . هذا وما حبانى به القدر من
جاذبية استهوت كثيرين لا يحركه نحوى . ولا يثير غيرته على . وقد حاولت أن
أحرك هذه الغيرة في نفسه في أثناء مرحنا في الليالي القمرية التي نعمنا بها مع
أصدقائنا الذوات فلم أنجح ، أترانى انهزمت ويجب أن ألقى سلاحى ! لكنه
لم يجرحنى يوماً بكلمة ولم يغض يوماً عن تلبية رغبائى ما استطاع . ولم تتغير
معاملته لى قط . ولم أعلم من صلاته بصديقى ما يثير شبائى . وإن أثار
غيرنى .

ولم يكن صديقنا يزيد حين أذكر له ما يعينى من خلجات نفسى على أن
يسخر منى ومن نزعاتى الخيالية نحو رجل لم يهبه القدر ذرة من نعمة الخيال .
واتهى بي الأمر إلى أن أستسلم للمقادير وأن أذعن لقضاء الله في .
وأقبل الصيف فقضى زوجى جانباً منه في ربوع لبنان . وبقيت أنا وأطفالى
بالقاهرة . والعجيب أنه كان يحدثنى كل يوم بالتليفون من مصيفه يسأل عن
صحتنا وحاجتنا . مما يشهد بشديد عنايته براحتنا وطمانيتنا . وعظيم حرصه
على أن يطمئن علينا ، أم تلك نعمة القلاح يريد أن يتظاهر أمام أصحابه
الذين يصطاف معهم بأنه أكبرهم جميعاً براً بأهله وعطفاً عليهم ؟ ! .
وبقيت في حيرى ، تضيق نفسى أحياناً وتدفعنى إلى الثورة على ما أنا فيه .
وأستسلم أحياناً أخرى إشفاقاً على طفلى أن يصيبهما من ثورتى ما يفسد حياتهما .
وأفكر في أثناء ثورتى وأثناء استسلامى في هذا القضاء الذى نزل لى . وفرضته
الأقدار على . والذى جعلنى أضطرب في حياتى ولا أعرف لها مستقراً .

وهذا تفكير آخر الأمر إلى خطة رسمتها . واعترمت تنفيذها ، فما الذى
 يمكننى فى هذا الوضع ؟ . . هو شعورى بأنه مفروض على ولا فكاك لى منه .
 ومبعث هذا الشعور حرصى على مستقبل الطفلين ، فلما أننى تخلصت من هذا
 الشعور واسترددت استقلالى لاستطعت أن أصور حياتى على ما أريد .
 وأن أطرح كل ما أضيق به . فكيف أبلغ هذه الغاية وأحقق هذا الغرض ؟ . .
 فكرت أولاً وقبل كل شىء فى أمر الطفلين ، وقررت أنى لن أنحلى بحال
 عنهما وأدعهما لأى سبب لأيهما . . هما متعانى من الانتحار مخافة يتمهما ،
 فليس يجوز أن أراهما بعينى يتيمى الأم وأنا على قيد الحياة . إنيهما يتقدمان
 الآن من الطقولة إلى الصبا . وهما مبعث سرورى ومصدر ما أشعر به أحياناً
 من السعادة ، فمن الحق الذى لا حتم بعده أن أحرم نفسى منهما ،
 وأحرمهما من حنانى وعطفى ، وهما لن يشعرا قط بالحرمان من أيهما ،
 فعمله يشغله عنهما . وهو قليلاً ما يراهما ، لابد لى إذن من أن أحفظ
 بهما وأن أبذل فى سبيل ذلك كل ما أستطيع بذله .

ثم يجب أن أوفر من المال كل ما أستطيع ليكون سندى فى تنفيذ
 خطتى ، ولهذا فتحت لنفسى حساباً خاصاً فى البنك ، جعلت أودع
 فيه كل ما يصل إلى من والدى . وكل ما أقتصده من نفقات المنزل
 ومن أى مصدر أحصل عليه لى ولطفلين ، قد لا يكون ذلك وفيراً ، وقد
 يحتاج اقتصاد مبلغ ذى قيمة إلى سنوات ، لكن الخطة التى رسمتها للنضال
 كان أساسها الصبر والاحتفال : فليس يسيراً أن ينجح فى نضال من ليس
 يستطيع الصبر ، وأنا بعد أدافع عن حريقى وعن كرامتى ، وذلك نضال

لا أذكر أن مصرية سبقتني إليه . بل قل أن سبقتني إليه في غير مصر امرأة يحيط بها ومجتمعها ما يحيط بي من ظروف ! . . .

وكانت الخطوات الأولى لتنفيذ هذه الخطة بطيئة بالفعل ، انقضت الشهور الأولى ولم أستطع أن أقصد شيئاً يذكر . وشعرت إثر انقضائها بشيء من اليأس في نجاح ما اعتزمت . وبدأ لي آني لوسلكت خطة أخرى ، فهاجمت زوجي في سمعته الطيبة - وبخاصة فيما يتصل بعنايته بصديقتي وبميراث أطفالها - فقد أختصر الطريق إلى غاييتي ، ولعلني أشرت إلى شيء من هذا في حديث جرى بيني وبينه في نوبة غضب لم أملك معها صوابي . فقد جاءني صديقتنا يوماً متجهماً ، فلما سألتها عن سبب تجمعهما قال : « هو هذا الجنون الذي قام برأسك وجعلك تهددين زوجك بتحطيم سمعته . بل بتحطيم حياته ، أولاً تعلمين أن ما بمس زوجك بمس طفليك في صميم حياتهما ؟ . . إنهما ابناه رضىت أنت أم أبيت ، فإذا حاولت أن تشوهي سمعته أو تحطمي حياته فاعلمي أن الحجر الذي تقذفينه بصيهما قبل أن يصيبه ، ولن يقول الناس يومئذ إنك زوج غاضبة أو عاقبة . بل يقولون إنك أم شريرة . وقد يقولون أكثر من هذا ، وقد جئت الآن لتقسمي أمامي بحياة طفليك أنك لن تجازي بشيء من هذا الجنون ، الذي يضر بك قبل أن يضر بأي إنسان آخر . ولن أقبل يميناً أخرى غير حياة هذين الطفلين العزيزين عليك ، فأنا أعلم أنهما أعز عليك حتى من نفسك » .

ووجمت برهة غير قصيرة تردد في أثنائها أمام خيالي طيف الطفلين فانحدرت من عيني دمعة قلت بعدها : « أعدك بالأأ فعل ، وأرجيك في

ألا تلج على في هذا القسم الذى تطلب . فلن أستطيع أن أقسمه . لكن هذا
الوعد الذى بذلته لك وعد قطعتة ولن أخل به إلا أن يكون ذلك بعلم منك . !
ويظهر أن موقفي هذا قد كان له أثره ، فقد بدأ زوجي يسخو في نفقة
سخاء لم يكن لي به من قبل عهد . لم أكن أطلب شيئاً للمزئول أو لي أو
للطفلين إلا أجاوبني إلى ما أطلب ووضع في يدي من المال أكثر مما أرغب فيه .
بذلك بدأت خطتي المرسومة تنجح على نحو لم أتوقعه . وبذلك أخذ رصيدي
المخاص في البنك يزداد شهراً بعد شهر : وأخذت أشعر أنني أمهد بالفعل
لاسترداد حريتي . وأن شيئاً من الصبر كفيفل بأن يفتح لي باب الخطوة الحاسمة
لاستكمالها ! . .

وتوفي والدى وأنا في صميم هذه المعركة الصامتة أناضل نضال امرأة
مست عزتها وجرحت كرامتها . وقد حزنت أشد الحزن لوفاة هذا الولد البر
الحنون الذى لم يذكر والدى يوماً بسوء ، وطالما أسدى إلى أصدق النصح وأحكمه .
على أن وفاته قربتني من الأمل الذى كان يداعبني في استرداد حريتي . ولم يكن
ذلك لأني ورثت عنه مالا يعتمد عليه ، فقد رزقت زوجه الثانية عديداً من
الأطفال . فت تركته وجعل الاعباد على حصة كل وارث فيها غير مستطاع
لمن كان في مثل مكاتي ، ولكنني أحسست بوفاته أنني أصبحت طليقة من
قييد معنوية ، كان وجوده يفرضها عليّ .

على أنني رأيت أن أدع العيدين يمران على وفاته قبل أن أتخذ أى موقف
حاسم . وذلك إرضاء لذكراه ، وحتى لا يقول الناس إنه ، عليه رحمة الله .
هو الذى كان يحمل زوجي على إمساكي . بذلك انقضت شهرسة تابعت

في خطتي . وازداد خلافاً وصيدى في البنك . ورأيت بعدها أن أخصر
نخبة الأخيرة . أضطره بها أن يتزل على كل ما أريد .

استغرقت خطتي منذ بدأت تنفيذها إلى ذلك اليوم ما يزيد على ثلاث
سنوات خيل إلى أن ما أتمته فيها كفيف بأن يثير زوجي ويحملة على التسبيح
من غير قيد ولا شرط . فقد عزلته في غرفة في أقصى المنزل نقلت إليها سرير
نيمه وكتبه وأدواته الطيبة . وكنت أتناول الطعام أحياناً وأخرج من المنزل قبل
أن يحضر . وكنت أقص عليه أحياناً في ازدهاء وعلوماً يغمرني به المعجبون
من عبارات الشاء التي تثير غيرته . وكنت أبالغ في الإنفاق مبالغة ينوء بها
يراده من عمله . وإيراده من ثروته . وتحمله من غير شك على الاستدانة .
وكنت أفعل هذا كله متعمدة إساءته ، وإثارته . وكنت أحسب أنه سيجيء
يوماً وقد قاض معين حلمه وطار صوابه ليقتلني أو ليضربني غير عابئ بالنتائج .
أو أنه سيقول لي يوماً : « لك ما شئت على أن تنفصل وأتخلص من هذا
السعر الذي أعيش فيه » . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . بل ظل الرجل
يتحمل كل ما يلقيه مني في صبر ، وكأن حبنا المتبادل أو زواجنا لا يزال
يملا قلبه . وكان ما أوجهه له في وجود أصدقائنا وصديقاتنا لا يحرك شعرة من
إبائه وكرامته . ولقد عجبت لهذا الإذعان المطلق من جانبه حتى ظننت يوماً
أنه مدبر أمراً ضلدي ، وفكرت ما عسى يكون هذا الأمر لأفسده . ولكن مر
الأسابيع والشهور أقنعتني أن إذعانه عجز . وأنه أضعف من أن يقف رافعا
رأسه أمامي .

وأعجب من ذلك أنه لم يكن يناقش قط في أثناء هذه الفترة الأخيرة

في أمر الطفلين وطريقة تربيتهما وتعليمهما . بل كان يقر كل تصرفاتي بشأنهم من غير بحث . فكانا ينسان كما أشاء . ويذهبان إلى المدرسة التي أختار . وكان لمريئتهما رأي تأخذ وتعطي فيه معي حين لا يقول هوشياً . وكان الأمر لا يعنيه . وكأنهما ليسا ولديه .

وكانت حالته هذه تثير إشفاقي عليه أحياناً . فقد بدا لي أنه انحلت همته . وتضعف عزيمته . وتداعت إرادته فأصبح كأولئك الذين يصيبهم الانبهار العصبي . فهم يبتون كل إنسان شكواهم . ولا يعرفون كيف يواجهون الحياة وأعباءها . وهم يخشون يومهم وغدهم ويحسبون الخطر في كل لحظة يهدد وجودهم . وطبيعي أن تأثر بهذا الاضطراب عمله في عيادته . وتزعزعت ثقة مرضاه به . ولكني مع ذلك لم أكن مستعدة لتخفيف طلباتي المالية منه . لذلك اضطر أن يلجأ إلى كبير في الدولة يرجوه أن يسند إليه منصباً طيباً فيها . وكان هذا الكبير يعلم من أمره لكثرة ما سمع به ومنه ما أثار شفقتة . فأسند إليه عملاً محترماً لا يحتاج إلى مجهود فكري ، فهو إشراف إداري على طائفة من الأطباء الناشئين في مصلحة كبرى . وما لبثت حين علمت بذلك أن اطمأننت إلى أنني في حل من أن أمتص مرتبه هذا أو معظمه ، فطفلاي أولي به من أبيهما ، ومن الواجب عليّ وحدي أن أفكر في مستقبلهما .

تري هل بقيت فيه بعد كل الذي مر به بقية للنضال ، أم تراه أصبح كالجلدار المتداعي ، لا يلبث حين تعصف به الريح أن ينقض وينهار . . . لقد خيل لي يوماً أنني لو طلبت إليه أن تنفصل بالطلاق فإنه لن يتردد في ذلك ، بل يتلقاه شاكراً متفهماً للصعداء مؤمناً بأنه قد آن له أن يتنقل من

النجح إلى المطهر في انتظار يوم تم عليه مغفرة الله فيه . لكنني خشيت إن
أنا أقدمت على هذه الخطوة بنفسى أن يعاوده عناد الفلاح فيرفض لغير شئ
إلا التثبث بهذا العناد ، لهذا آثرت أن ألقى على صديقنا هذا العبء .
فإن نجح فيه في غير مشقة فذاك ، وإلا أقدمت على الخطوة الحاسمة التي
اعترمتها .

ودعوت صديقنا واتفقت معه على أن يذكر لزوجي أن الحال التي
يعانيها لا تحتمل . وأنه رحمة به يرى أن يخاطبني في أن تنفصل بالطلاق . فإن أنا
قبلت ذلك ولم يدفعني العناد إلى للد في الخصومة كان ذلك خيراً له ولي .
واضطلع صديقنا بهذه المهمة وخاطب زوجي كما اتفقنا . لكنه عاد يذكر
لي أن زوجي أجفل حين سمع كلمة الطلاق وقال له : « وماذا يقول الناس عنا ؟
وماذا يكون مصير طفليتنا ؟ إنني احتملت وأحتمل ما تعلم ، وأكثر مما تعلم .
حتى لا يشمت الشامتون بنا ، وحتى لا يشعر الطفلان بأنهما ليسا كغيرهما
من أبناء طبقتهما ، وأنا لا أزال أطمح في أن يرد الصبر إلى زوجي رزاتها
وحكمتها ، بل إنني لأعتقد أنها لو خطبت في هذا الأمر الذي تخاطبني فيه
لكانت أكثر مني إنكاراً له وتقززاً من الكلام فيه » ! . .

وعجبت لما سمعت . . لقد كنت أتوقع أن يغتبط الرجل بفكرة انفصالنا ،
وها هو ذا يفرع منها وينفر أشد نفار ، ولست أحسبه يفرع وينفر تعلقاً منه بي ،
أو تلبية منه لداعي مجبته إياي . فلو أنه أحبنى كما أحب ليلى المجنون لما بقي
قلبه أنارة من هذا الحب بعد الذي صنعه معه ! . .

وهنا برقت أمامي فكرة آمنت بأنها التصوير الصحيح لما بعته على أن

يرفض طلاقى ، لقد خيل إليه أن صديقنا يريد أن تنفصل لأن تروجه . فقد
أذاعت صديقتى هذا الحديث بعد انقطاع ما بيننا وألحت فى إذاعته ، وأكبر
ظنى أن ما تذيعه صديقتى يؤمن به زوجى ، ولذلك عاند وتشبث بعناده . .
نعم . . ! ذلك باعته على رفض ما عرض عليه أن تنفصل بالحسنى . أما وذلك
شأنه فلم يبق لى مفر أن أنفذ خطتى . ولا أظنه يستطيع مقاومتها . ولو جمع
فى نفسه مكر الفلاحين جميعاً ، بل مكر النساء جميعاً .
وقررت أن أنفذ هذه الخطة منذ غد ! . .

الانشغال السابع

لزوجي أصدقاء كثيرون من خيرة طبقات القاهرة يجتمع بهم في ناد من أنديتها ، وقد كان يتناول طعامه في هذا النادي في أثناء غيابنا في أوروبا ، كما كان يتناول بعض وجباته فيه إذا اضطره عمله للتخلف عن الحضور إلى المنزل في الظهر أو المساء ، أو لو حملته على أن يتناول أكثر وجباته هناك ، ومُعتت بذلك في إبعاده عنا وعن المنزل ، أولاً يشعر بالوحدة شعوراً يهين عليه أن يقبل الانفصال الذي أريده .

وتفليلاً لهذا التصميم كنت كثيراً ما أطلبه في المساء في النادي وأبلغه أن المنزل لا طعام فيه ، وأنه إن شاء أن يتناول طعاماً فليتناوله في النادي . ولعله لم يكن يضيق بذلك ويتأذى منه ، ولعله كان يجد فيه فرصة لإطالة المقام بين أصدقائه ، فإذا جاء إلى المنزل في موعد النوم لم يزد على أن يبادلني تحية المساء ويذهب إلى غرفته . ولم أكن صادقة في كل المحادثات التليفونية معه ، فكثيراً ما كان يتناول العشاء معي في تلك الليالي أصدقاء وصديقات يسر زوجي بالوجود معهم ، وفي هذه الليالي كنت أشد حرصاً على بقائه بعيداً عن المنزل حتى لا يجد ما يجيبه فيه ويدعوه إليه ! . .

وللمصادفات في حياتنا الإنسانية تصاريف عجب ، فقد كلمته ذات

مساء ليتناول طعامه في النادي ، وكانت عندي ليلتها وليمة دعوت إليها عدداً من أصدقائي الذين يسرون بلاقائه ، فلما حضروا ودعينا إلى المائدة سألت بعضهم عنه فذكرت أنه اعتذرت في اللحظة الأخيرة لأمر طرأ عليه . وإننا لتتناول الطعام إذ دخل هو علينا ووقف واجماً ينظر إلى هذه المائدة الفاخرة ويذكر قبلي له إن المنزل لا طعام فيه ، وأخذت حين رأيته في موقفه منها وكذت أضطرب ، لكني ملكت نفسي وقلت في عبارة حاسمة إنه لا مكان له على المائدة ، ولأراد بعض الحاضرين أن يفسح له مكاناً فقلت في لهجة الحزم : « فليبق كل في مكانه ، أما هو فلا مكان له بيتنا » . وساد الحضور ، وبينهم صديقنا ، وجهم استمر حتى خرج زوجي من قاعة الطعام معتذراً في ابتسامة متكلفة بأنه أكل قبل أن يحضر إلى المنزل ، ثم عدنا إلى أحاديث تافهة نقطع بها جو هذا الوجوم .

وفي الغد تناول زوجي طعام الظهيرة خارج المنزل ثم جاء مبكراً في المساء فألقاني وحيدة في غرفة نومى وقد تزينت لسريري زينة كلها الإغراء . وقد ألف بحكم مهنته أن يجلس على سرير المريض حين يفحصه ، وكثيراً ما كان يجلس إلى جانبي هذه الجلسة فيما مضى . أما اليوم فلم يفعل ، بل جر كرسياً إلى جانب السرير جلس عليه وارتمى على وجهه من سباب الحزم مالم أتعبه منه قط ثم قال : « اسمعى ، إننى أريد أن أحدثك في هدوء فأياك أن تفلسدى على هدوئى ! . . إن ما حدث منك أمام ضيوفك أمس لا يصدر عن سيدة ولا عن امرأة من حثالة الناس . . لقد تحملت منك ما تحملت حتى اليوم لغير سبب أعلمه ، ولقد تحملت لا خوفاً منك . ولكن خوفاً عليك .

وخوفاً عليك من نفسك . فأنت امرأة مريضة النفس . لا تنظرين إلى الحياة بالعين التي ينظر بها الأصحاء . بل متأثرة بعاملين هما مصدر عثلك وسبب مرضك النفسي ، هذان العاملان هما : الغرور والغيرة ، برغم ذلك أحبتك ولا أزال أحبك ! . . . وحيي إياك ، من أجلك ومن أجل طفلك ، هو الذي يجعلني أحتمل منك ما احتملت ، وأن أصبر عليه ما بقى أمره بيني وبينك . آملاً أن يشفيك الله يوماً فيثوب إليك رشذك . أما أن يبلغ الأمر إهانتى على نحو ما حدث أمس فذلك ما لا قبل لي باحتماله ، ويجب أن تعلمي أن هذا البيت بيتي أنا . وأن الذين يدخلونه يدخلون بيتي أنا : وأنت تقيمين فيه وتدعين أصحابك إليه لأنك زوجتي وأحبك تقرين هذا ولا تجهلينه ، فلو أننا انفصلنا غداً بالطلاق كما طلب إلى صديقنا أن أفعل لما بقى لك في هذا البيت مكان . ولا استطعت أن تستقبلي فيه أحداً .

كنت أسمع كل كلمة من كلماته هذه وكأنها خنجر يطعنني في صميم كرامتي . ولكنني كظلمت غيظي وجبست دموعي حتى إذا أتم مقاله أجبتني في هدوء . . . « وماذا عليك إذا أرحت نفسك وأخرجتني من هذا البيت ليكون لك وحدك ، أولم يرضى قلبك أن يحل فيه مكاني . . . »

لم أكد أتم هذه الكلمة حتى رفع يديه وقال : « الآن أيقنت أنني أخطئ في تقديري ، فصديقنا لم يحضر ولم يكلمني في طلاقك من تلقاء نفسه ، بل اتفقنا معاً لغرض تضميراته ، لكنني لست من الساذجة بما تزوهمان ، إنني لن أنيلكما ما تبغيان ولن أجعل نفسي وأجعلك وأجعل طفلينا أهدونه الناس ، كلا ! . . . لن أفعل ، لن نطلقك وإن تحملت في سبيل إمساكك أضعاف

ما تحملت . . كلا ! . . لن أنيل هذا الجاحد للأخوة الخائن للصدقة ما يريد .
أوتستطيعين أن تقول كيف عرفته . . أو لم يكن صديقي المحمم وأنا الذي قدمته
إليك والتمسته على شرفي وعرضي واتخذت منه أختاً فخا مودتي وتسلم إلى
قلبك مكاني . ياله من غادر مخادع ! إني أحذرك مغبة السبر وراءه والانخداع
بمعسول كلامه . . إنك لا تزالين في أعين الناس السيدة المحترمة الشريفة التي
تحمل اسمي فلا تدعي هذا الماكر الخائن ينفث في قوادك سمومه . وبدع
الناس يتقولون عليك ما أنت بريئة منه ، ويتهمونك باطلا وأنت الطهر والعفاف
والكرامة والشرف » ! . .

وهنا بدأ الرجل يضطرب كأن به الحمى . وأمسك برهة عن الكلام ،
ولم أجد وهو في هذه الحال ما أجيبه به ، فقد غلبتني الرأفة بحاله وخشيت
إن أنا قلت شيئا أن يزداد اضطرابه .

وبدا عليه شيء من الهدوء الظاهر ، لكن نفسه كانت تتعذب ، وكانت
عيناه تتهان عن هذا العذاب الذي يتأجج في صدره ، ولقد مر بخاطري في
أثناء صمته أن تمنيت لو أنه ثار هذه الثورة منذ شهر وسنين ، وتمنيت لو أنه
يومئذ حطم كبريائي وإن أدت به الحال أن يضربني ، فلو أنه فعل يومئذ
لاعتقدت أن لي عنده مكاناً وأنه يريد أن يدافع عني غيرة على . . وإني
لتمرني هذه الخواطر وأشباهاها إذ رأيته يمد يده ويسحب يدي في رفق ويقول .
وقد تندت عيناه ، وانخفض صوته : « بالله خبريني ، لم تعامليني هذه
المعاملة ؟ . . إني لا أزال أحبك كما أحبيتك يوم زواجنا ومن قبل زواجنا ! . .
وهذا الحب هو الذي يجعلني أحتمل منك ما لا يمكن - لولا الحب -

نحبه ! . . أوبرضى قلبك أن ينخدع بصديقنا فينكر ماضينا وينكر أيقى
نضيقنا ؟ بالله عليك ! بحق هذين الطفيلين العزيزين ! . . إلا ما راجعت نفسك
ونقيت الله في نفسك وفينا جميعاً » ! . . .

كدت أشفق عليه وأضعف لضعفه ، بل كدت أنلطف معه وأعتذر
عما بدر منى أمس له . ولكنى ما لبثت أن رأيت ضيف صديقتى يشدى فى
خيالى ويخفف فى عيني عبرات كانت توشك أن تنحدر . عند ذلك سمعت
يدى من يده واستوتت جالسة فى سريرى ونظرت إليه بعينين انقلب حناهما
حزماً . بل قسوة . وقلت : « يرحمك الله يا صديقى ! لقد كدت تمس قلبى
كما لم تمسه من قبل قط ، فما عهدتك فى كل ما خلا من سنى حياتنا تتفن
التمثيل المسرحى وتستطيع أن تتلاعب بالمواطن ! . . أما اليوم فما أبرعك
ممثلًا تتفن الأدوار المتناقضة ، فأنت « روميو » وأنت « عطيل » فى وقت
معاً . أترك لعب بك إغرائى ، وأنا فى هذا السرير فانتقلت من التهديد الذى
حفظت دوره قبل أن تحضر إلى ، إلى الاستعطاف وإلى الحديث عن الهوى
والغرام . وإنى لأسأل نفسى ، ولك هذه المقدرة : أى دور تمثل حين تلقى
صديقتى ؟ . . أحسبك حين تراها لا يبقى أمامك من الوجود كله سواها ،
فهى أمامك الشمس والقمر ، ولعلها فى نظرك أبهى من الشمس والقمر » ! . .
أيقظته عبارتى الأخيرة فنظر إلى بعينين فيهما عطف وفيهما حزم وقال :
« حسبك الله ياظالة ، فأنت تعلمين أنى لو أردت أن أتزوج صديقك بعد
وفاة زوجها لما عزت نفسها على ، وأنتى لو أردت أن أتزوجها بعد أن بدا اليأس
لها من صديقنا لاستجابت فى غير تردد ، وأنتى لو أردت أن أتزوجها اليوم

أوغداً لقلت في اغتباط أى اغتباط ، لكنى لم أفكر قط في أن أتزوجها .
ولن أفكر في ذلك . . فهى لى منذ مات زوجها بمثابة الأخت المحرمة على .
وأنت تعلمين أنى أعرفها وأعرف أسرته منذ بدأت أمارس مهنة الطب . ولعلى
فكرت في أن أتزوجها قبل أن أعرفك وأن يكون بيننا من الود ما أدى إلى
زواجنا ، ولم أجرب عليها من يومئذ إلى اليوم ما يمس شرفها وعفافها برغم
ما تبهم به من خفة وبرغم جمالها الفاتن ، فبالله عليك لا تسرق في تصوير
عواطفى نحوها ، فعواطفى كلها لك ، وليس بينى وبين صديقتك إلا الإخاء
يدفعنى إليه سابق معرفتى بها وبأسرتها وبزوجها « ! . .

دهشت لهذا الدفاع الحار عن امرأة قاطعتنى وأذاعت في كل مجتمعات
القاهرة ما أذاعت عنى ، فلأن عواطف زوجى كانت كلها لى كما يقول لغضب
لى من صديقتى ولا ذكر جمالها الفاتن وريقه يتحلب ، وكأنما يريد أن
يطير إليها ليستمتع بنظرة من عينيها الساحرتين ، لذلك قلت له : « إنك
يا صديقتى لست ممثلاً بارعاً وكفى ، بل أنت محام بارع كذلك ، وكنت أود أن
تكون قضيتى أقرب إلى قلبك من قضية صديقتى فتدفع تخرصاتها عنى في
كل مجالسها بهذه الحماسة التى تدافع بها عن عفافها وشرفها « ! . .

وبعد هنية أردفت : « ولو أنتى أردت أن أدافع عن صديقتنا - كما تدافع
أنت عن صديقتى - لما أعوزتني الحجة الصادقة . فهو لم يخنك كما تزعم
ولم يحاول التسلل إلى قلبى ، ولكنى أشعر بأن حديثنا الليلة طال ، وأن من
الخير أن تسحب أنت إلى غرفتك وأن تدعنى أسريح في مخدعى « ! . .
وابتسم هو وقد بدا عليه شيء من الاطمئنان ، أو من الإذعان ، وأطفاأت

نا مصاييح الفرة : وحاولت أن أنام فذهبت محاولتي عبثاً : فقد أخذت
استعيد الحديث الذى دار بينى وبين زوجى كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ، ثم أخذت
أفكر كيف أواجه هذا الموقف . فلو أن هذا الحديث جرى بيننا قبل أن أوجه
إليه فى وجود أصدقائنا تلك الإهانة التى أدمت قلبه ودفعته لما فعل لكان لى
فيه رأى . أما وقد شعر بأنى أتعهد إخراجها : فأراد بما فعل أن يفسد خطي
فلن أمكنه مما أراد ! . . لقد تحطم ما بيننا منذ عهد طويل ، وهو قد واجهنى
خلال هذا العهد كله بجمود يدل على أنه لا يحس نحوى بأى عاطفة ،
فبعيته اليوم بعد اللطمة القاسية التى نالته منى يتحدث عن قلبه وجهه ليس
إلا أحبولة يتوهم بها القدرة على تغيير ما استقر عليه عزمى ، وذلك مالا سبيل
إليه ! . .

وفكرت فيما عسأى أفعل فى هذا الموقف الذى خلقه هو بأسلوب لا يتخلو
من براعة ، واستقرى الرأى بعد طول الروية على أن أكتب إليه خطاباً يكون
عريضة اتهام ، وإنذاراً نهائياً فى الوقت نفسه ، وأردت بالفعل أن أبدأ الكتابة
رغم تقدم الليل ، ولكنى شعرت بالجهد : فأطفاأت الأنوار من جديد ولزمت
سريرى ! . .

وكان النهار ضحى حين استيقظت فى الغداة أجمع أعصابى المهدمة ،
وسألت عن زوجى فإذا هو قد استيقظ وتناول فطوره وخرج كعادته إلى عمله ،
وشعرت بالضيق يكاد يخنقنى وبال الحاجة إلى الهواء أتنتسه ، وكأن المنزل
على سعته لم تبق فيه أثارة من هواء . . ولذا قمت فتناولت فنجاناً من اللبن
والقهوة واكتفيت به عن كل فطور ، وخرجت إلى الشوارع ألتمس فيها

متنفساً ، وجعلت أسير حتى انتهيت إلى حدائق الجزيرة ، هنالك وقفت على شاطئ النيل أستششق الهواء ملء رئتي أسرد به نشاطي وهدهو أعصابي . فلما ردت إلى حيويتي أخذت أفكر فيما حدث أمس وفي الخطاب الذي أكتبه إلى زوجي .

ولم تطاوعني نفسي على العودة إلى المنزل ساعة الظهيرة ، وتابع السير حتى بلغت حديقة الحيوان ، فدخلتها وذهبت إلى جزيرة الشاي وتناولت فيها طعام الغداء ، جالسة إلى مائدة على حافة بحيرتها الصغيرة ، ونظرت كله إلى الماء وإلى الطيور الجميلة التي تعوم فيه ، وفكرت مشئت يحاول أن يجمع ما يحويه خطائي إلى زوجي ، فلما كانت ساعة الشاي أقبل قوم وعليهم سيار المرح وفي أصواتهم زين المسرة ، وأفسدت ضججتهم الطروب على خلوتي فغادرت مكاني وخرجت من الحديقة وناديت سيارة أقلتني إلى المنزل ! . .

فلما احتواني المنزل عاد الضيق يأخذ بخنأتي ، فذهبت إلى غرقتي ، وجلست إلى نضد زيتي وهيات منه مكتباً ، وأخذت أدون ما أريد أن أكتبه لزوجي . لقد كانت الكتابة تستعصي عليّ حين أبدأ إلى الحجة والمنطق ، فإذا أرخيت العنان لعاطفتي وما تتنفس عنه اندفع قلبي لا يكبو ولا يتعثر ، وسطرت بضع صفحات أعدت قراءتها فإذا هي ليست عريضة اتهام وكئي ، بل تأنيباً موجعاً في لهجة مقدعة لا تتفق ومألوف رزائتي واتزانتي ، ولا مع الهدوء الذي حاول زوجي به أن يصوغ كلامه لي ، لذلك أعدت الكتابة وحاولت التخفيف من حدتي . لكنني لم أستطع أن أكون هادئة ولا موجزة .

بل كتبت عشرات من الصحف كانت سطورها تتدافع إلى قلبي ولا تكاد
يبنى تجاريتها في سرعة تدفقها لتدون كل كلمة من كلماتها . فلما فرغت من
تدوين الكتاب وراجعت بعثت به إليه وأقمت أنتظر النتيجة التي يربتها عليه .
ولست أريد أن أنقل نص ذلك الكتاب إلى هذه القصّة . وأنا كلما
تلمّته بعد السنين التي انقضت على كتابته خجلت وتولّنت الدهشة كيف
استطعت أن أفرغ كل ما فيه من قحّة وإقذاع ! وحسبي أن أذكر أنني قلت
فيه إني لم أشعر بالسعادة منذ زواجنا يوماً من الأيام ، وإن مسلكه فيما ادعاه
من معاونة صديقتي للحصول على ميراثها وميراث أبنائها كان معيياً دنياً .
وإنه أهملني وأهمل ولدينا وكأننا من سقط المتاع ، وإنه عاملني كما لو كنت
خادمة أبيه . وإنه كان يغبط بسفري إلى أوروبا ليخلوله الجولندفع في نيار
أهوائه ومفاسده . وإنه ضيق الفكر ربنى العقلية إلى الحد الذي جعله يقول
لي في آخر حديث له إن هذا البيت بيته وإني أقم فيه بأمره وإذنه وتسامحه .
وذكرت أنني لن أبقي في هذا البيت ولن يعرف هو بعد ذلك مفرى ، وأنه
يستطيع إن شاء أن يطلبني إلى بيت الطاعة ، وإني أتحداه أن يفعل ليتيح لي
فرصة الدفاع أمام القضاء عن نفسي وعن حياتي التي حطّمها ، ولأتمكن بعد
ذلك أن أطلب الانفصال عنه ، ويومئذ لن يردد قاض في الحكم لي ،
ثم يعلم الناس كم قاسيت في سبيل المحافظة على سمعته وسمعتي ، لا حباً
إياه ولا حرصاً على الحياة معه ، لكن من أجل طفلينا حتى لا يصيبهما
رشاش من مسلك أبيهما المشين .

ولم أخرج حين الحديث عن معاونة صديقتي في أن أصفها بما أعتقد

أنها أهل له ، وأن أذكر أن صلاته بها أوجت بها الأهواء ولم توح بها المروءة
ولا الإنسانية ! كما أنتى ذكرت له أنه سبى سباً قبيحاً حين تكلم عن صديقنا
وزعم أنى دبرت معه أن يتحدث إليه فى أمر طلاقى منه لغرض فى نفسنا .
وأعدت فى خاتمة الكتاب أنتى لن أراه ولن أسمع له بأن يرانى . وأنتى لن أبى فى
بيت يسميه بيته ، وأنه لن يعرف لى مقراً ، وأنتى أحترق نفاقه حين يزعم
لى أنه لا يزال يحيى ، وأنا أعلم علم اليقين أن قلبه لغيرى ، هذا إن كان قلبه
يعرف الحب ، أو يملى عليه عاطفة كريمة صادقة ! . .

ماذا كان شعوره حين قرأ هذا الكتاب ؟ لا أدرى ، لكن صديقنا جاءنى
بعد أيام يقول لى إنه التقى بزوجى مصادفة ، وإنه رآه فى حال من الهم والأسى
تثير الشفقة ، وإنه تحدث إليه محاولاً أن يخفف عنه فإذا عيناه تدمعان ،
وإذا هو يخرج من جيبه خطابى ويدفعه إليه ويطلب إليه أن يقرأه . قال
صديقنا : « وقد تصفحت بعض صحفه فأدهشنى أنه لم يحضر إليك ولم
يضربك ولم ينتقم لنفسه من بداعة لم أقرأ ولم أسمع قط مثلها من سيدة أو
امرأة من السوق أو سواد الدهماء ، ولو أنه فعل لما استطعت إلا أن تعتذرى
له عن هذا الطيش الجنونى الذى أملى عليك ما كتبت ، أنت حرة فى أن
تكريه أو تحبيه ، لكنك لست حرة فى أن تهينه وتسيه » . . .

قلت : « أتراك عاودتك نزواتك السابقة حين أردت أن تتزوج من
صديقتى ، وأن هذه النزوات هى التى دفعتك للتطاول على الساعة » .

نظر الرجل إلى فى صمت حين سمع منى هذا الكلام نظرة تأنيب وعتاب .
ثم استدرك هذه النظرة بعد برهة وقال : « وماذا يعنىك أنت من أن تعاودنى

تزوجتي أولاً تعاودني ؟ أم تريدني أن تسمعي مني مرة أخرى أتى لن أتزوج صديقتك ؟ إذن فاعلمي أتى لن أتزوجها ! . . نعم ! . . لن أتزوجها . وليس ما تتوهمين من تزواني هو الذي دفعني لأخاطبك بهذه اللهجة التي خاطبتك بها . لكنك أسرفت في إهانة رجل لا يسوغ لك أن تهينه وأنت لا تزالين زوجته وله عليك حقوق أوفاء احترامه ، فالزوجة قد لا تستطيع أن تحب زوجها . ولكنها لا حق لها بحال أن تهينه . أفهمت الآن سبب ما سمعته تطاول عليك ؟ . . »

هذه كلمات قاسية لم أسمع من قبل مثلاً . لكنها نزلت عليّ برداً وسلاماً : أكان ذلك لأنه أكد من جديد أنه لن يتزوج صديقتي ؟ . . أم لأنه خالف بيزجره إياي ما ألفت من جمود زوجي ؟ لا أدري . لكنني ابتسمت حين أتم كلامه وقلت : « ما أظرف حديثك وما أرق فلتات لسانك » . ثم نظرت إليه في خبث نظرة حرصت عيناى على أن تكذب بها لسانى وأضفت . . « وأنى شأن لى إن أنت تزوجت صديقتى ، اللهم إلا أن تكون حريصاً على أن نجىء معك لزيارتي » . . وازدادت ابتسامتى وضوحاً ونظرتى خبثاً وزدت . . « هذا إلا أن تخشى أن يكون عندى قريبي الذي رأيته معها في السيارة » .

وكان كل جواب الرجل : « دعيني من صديقتك فقد انقطع ما بيني وبينها كما انقطع ما بينك وبينها ، لكنك ذكرت في خطابك لزوجك أنك لن تبقى بهذا البيت ، قالى أين تذهين ؟ . . وهلا تخشين ما يقولو الناس عليك وأنت لا تزالين في عصمة زوجك ، ولا يزال هو مصراً على إمسالك ؟ . . » قلت : « أما أتى سأترك هذا البيت فذلك أمر قرره ولا رجعة فيه »

ولست أخشى ما يقوله الناس لأنهم لا يعلمون ما قاسيت هنا ، فقلوب الناس كالبحجارة ما دام الأمر لا يمسهم ، وإن أوقف هذا الأمر من يعنيه على حافة اليأس ودفعه إلى الانتحار ، لقد دبرت أمري في سر ، ولعل لا أضن عليك أنت بسرى ، يوم يصبح أمراً مقضياً ، فأنت وحدك الذى أجد فى التحدث إليه السلى عن بلوى ومقذى من عزلة يحاول زوجى أن يضرب نطاقها حول بما يذكره إلى أصدقائنا عني ، فأنا أعلم أنه تحدث إلى غير واحد من هؤلاء الأصدقاء عن الخطاب الذى بعث به إليه وذكر لهم شر ما فيه ، لكن ما يقوله لم يعد يعنني وقد انحسم ما بيننا ولم يبق سبيل إلى غير انفصالنا .

وتركني صديقتنا بعد حديث حاول به أن يردني إلى ما سماه الصواب ، فلما خلوت إلى نفسي أخذت أقلب صفحاتها وأنا مضطربة الخاطر حيناً ، هادئة حيناً ، وعدت بذاكرتي إلى حديث زوجي الأخير معي ووقفت منه عند كلامه عن مرضي وعلتي ، وأن الغرور والغيرة هما مصدر هذه العلة ، عند ذلك ثارت نفسي وسمعت بأذني صوتي وأنا أقول : « يا بؤسى لهذا الرجل ! . . أولو صح ما يزعم أفلا يرضيه أن أغار عليه ! . . أم يريد أن أصنع صنيعه فأختار رجلاً غيره أصفيه مودتي وأهبه قلبي ، أم تراه يحسبني بعض متاع هذا المنزل ، يسكن إليه متى شاء ، ويدعه متى شاء ، ويركله برجله أو يلقيه من النافذة إن أراد ؟ ! .. إن يكن ذلك رأيه فليبحث عمن توافقه عليه ، ولألقين عليه درساً لن ينساه ما عاش ! . . »

وشغلت بالتفكير في ترك هذا البيت الذى يسميه بيته ، فأين أذهب ؟ . . وكيف أنفذ ما ذكرته له من أنه لن يعرف لي مقراً ؟ . . ليس ذلك يسيراً إن

أنا بقيت بالعاصمة . . وليس يسيراً كذلك في مدينة صغيرة تثير أفعه الحوادث فيها طلبة ساكنها ، فهم يتحدثون عنها . وتلوكها ألسنتهم ويتناقضونها ، فلا يبقى فيهم صغير ولا كبير لا يعرفها ! . . إذن فليكن مقرى الجديد بالإسكندرية ولأذهب إليها أبحث فيها عن مسكن لى ولطفلين . فالإسكندرية مدينة فسيحة الأرجاء ممرامية الأطراف ، وحسبى يوم أقيم بها ألا أختلط بأهلها وأن أجعل مقامى فى حى ناء من أحيائها ، وأسأتحلف صديقتنا يوم ابوح إليه بسرى ألابوح به لأحد ، ولن أقبل منه إلا أن يقسم بقبر أمه ، فذلك قسم لا يبحث هوبه أبداً .

فلما صح منى العزم ترددت على الإسكندرية ، ثم اخترت فى ضاحية من ضواحيها النائية بيتاً صغيراً أنيقاً تحيط به الأشجار ، وكأما بناء صاحبه للغرض الذى أقصد إليه ، وبعد أيام مربى صديقتنا فأخبرته بما فعلت بعد أن أقسم لى بقبر أمه أنه لن ابوح بسرى ، وبعد أيام جاءت إلى المنزل عربية من عربات نقل الأثاث حين كان زوجى فى عمله فنقلت ما أخذت إلى الإسكندرية وقبل أن يحضر زوجى كنت قد سافرت أنا والمرية والطاهى إلى مقرنا الجديد ! . .

وتفتست الصعداء حين نزلت بيتى أنا ، لا بيت زوجى ، وشعرت كأن عبثاً ثقيلاً قد انزاح من فوق صدرى . واستنشقت رشاى هذا الهواء الجديد ، هواء الحرية المطلقة ، وخيل إلى أن السعادة أصبحت فى متناول يدى ، وأنتى ألقيت ما كان يساورنى من هموم فى لجة البحر المترامى بموجه المصطبخ أمام نظرى . وزاد فى غبطتى أنى رأيت طفلى مغتبطين بهذا الانتقال كأما

كانا يعانيان ما كنت أعاني وبضيقان بالجو الخائق الذى كنت أضيق به .
وبعد أسبوع أو نحوه جاء صديقتا يزورنى ، فلما رأى المنزل ونظامه
هتأنى على حسن اختيارى ، ثم تحدثتا فى شئون حرص من ناحيته وحرصت
من ناحيتى على ألا نشوبها بشىء من ذكرى الماضى ، وقد حمدت له
عنايته بسؤالى عن الطفلين وأية مدرسة اخترت لهما ، ونصحته إياى أن أحفظ
بمرييتهما . وانقضى الوقت وأنا أقص عليه فى مرح كمرح الأطفال ما أجده
فى هذه الحياة الجديدة من مسرة ، أيسرها جلوسى إلى شاطئ البحر ، أسمع
إلى صريف أمواجه ، وأستشق طيب هوائه ، وأمد بصرى إلى آفاقه التى
لا تنتهى ، والتى تحجب فى طياتها غيب السموات والأرض .

أتاح لى هذا الهدوء الذى اشتغلنى أول مقامى بالإسكندرية ، لبعده
عن موطن النضال وما يثيره النضال فى النفس من غضب ، أن أسبر غور
نفسى لأستظهر عواطفى . لقد بذلت الجهد فى مقاومة صديقتى ، أريد أن
أستخلص من برائتها زوجى لأختصه خالصاً لى ولولدى ، غير مطمئنة
لتوكيده المتكرر لى أنه لا يحبها ولا يحب غيرى ، وأن تردده عليها عناية بشأن
أولادها لا تشوبه قط رية . وقد بقيت أمقتها برغم شعورى فى أعماق روحى
بأن حجاباً قام بينى وبين زوجى يحول دون تألفنا وامتزاج قلبينا ، وقد بلغت
قسوى فى مقاومتها ذروتها يوم أوجيت إلى صديقتنا فذهب إلى الصحراء فألفاها
فى سيارة مع قريبى ويدها بين يديه ، ورأسها على كتفه ، فأفسد ذلك عزمه
على التزوج منها ، وكان هذا الزواج موشكاً أن يتم . وأنا إن أحسست فى
نفسى ميلاً لصديقتنا واستلطافاً ، فلم يبلغ هذا الميل وهذا الاستلطاف مبلغ

نحب 'التي يجيز لصاحبه أو لصاحبه المغامرة بمثل ما فعلت . ولا أحسب
غيرتي من جماعها باعني على هذا النضال . وهل ترائي تحركني غيره من مثله
ولم يقف جماعها الساحر حائلاً دون فتنة المعجيين في وقد قنته جاذبي وذكائي
وسحر حديثي وسائر مواهي ! . . وحسبي أن أذكر الألمانى الذى كان يعالسا
معاً بالأقصر وكيف دفعه ذكاؤه وواسع علمه وسعة أفقه ففتن في وسحره حديثي
ولم يفتن بها ولم يسحره جماعها . فما الذى حركني إذن إلى هذا النضال ؟ .
لم أهتم إلى جواب على هذا السؤال بعد أن جهدت أياماً حوسماً الشمس
الجواب عليه . وعند ذلك آثرت أن أدعه واثقة أن الزمن سيكشف لي عن
هذا الجواب . وعدت إلى طمأنيتي السابقة الجميلة . وقد زادت حياتي
الجديدة في سعادتي بها واستراحتي لها .

كان صديقنا يزورني في عطلة آخر الأسبوع مرتين على الأقل في كل
شهر . وإنما يوماً لتحدث إذ فتح الباب . ورأينا زوجي وكأنما يريد أن يدخل
علينا . وأجففت لمرآه وتولتني الحيرة ماذا أصنع ؟ لكنه لم يدع لي فرصة
للتفكير ، فإنه مالبث حين رأنا أن ارتد على عقبه وأن أقفل الباب الذى فتحه .
وأن هرول مسرعاً إلى خارج الدار حتى خلت أنه طيف لا حقيقة له . وأن
خيالي هو الذى صور له . لكنني صدمت بهذه المفاجأة صدمة هزت
أعصابي ، واضطر صديقنا أن يدعو المربية لتسغني . وانقضى وقت غير قليل
قبل أن أستردهدوئى . فلما سكنت نفسي ، واستطعت أن أفكر وأن أنكم قلت :
كيف اهتدى هذا الرجل إلى المنزل ، وكيف سولت له نفسه أن يصعد
إلى هنا ؟ . .

ولم يكن صديقنا أقل منى حيرة ولا دهشة ، فهو لم يرزجى منذ أطلعه على خطابي ولم يحدث له من أمرى ذكراً . من ذا الذى هداه إذن إلى بيتي ؟ . وهل تراه يريد أن يفسد على حياى من جديد بعد أن تركت له العاصمة كلها . وما فيها ومن فيها ؟ . لقد كان يخشى قالة الناس فينا إذا هو سرخنى ولم يمسكى . أما وقد حسمت ما بينى وبينه بهذا الانفصال من غير طلاق فما مطارده لى : كآنتى سجين هارب من سجنه ، ولا مفر من إعادة القبض عليه ! ؟ .

انصرف صديقنا حين أوشك النهار أن يولى ، بعد أن حاول ما استطاع أن يهون على ما حدث . فلما خلوت إلى نفسى ارتسمت أمامى صورة زوجى ساعة فتح الباب علينا ووجدنى فى خلوة مع صديقنا . وكاد يتولانى الدوار من جديد ، ترى أى ظنون قامت بذهنه لهذا المنظر الذى لم يكن يتوقعه ؟ أم تراه جاء وهو يعلم بوجود صديقنا عندى فأراد أن يظهرنى على أنه يعلم من أمرى ما أردت ستره ؟ . أم أنها المصادفة البحتة هى التى ساقته فى تلك الساعة وأوقفنى منه موقفاً أرتج على فيه فلم أستطع أن أقول كلمة ، ولم أستطع أن أزجره لاحتحامه على بيتا هوينى وليس بيته ولا شأن له به ؟ . وكذلك أخذت أقلب هذا الأمر فى نفسى ، ثم ترسم بين آونة وأخرى أمام خيالى تلك الصورة التى أثارت انزعاجى ، ترى أين ذهب بعد أن ولى مدبراً وأقل الباب وراءه ؟ . هل ذهب يدعو من يشهد ما رأى ؟ لكن أحداً لم يحضر ، وهل تراه غادر الإسكندرية أم بقى بها ؟ . وهل أستطيع أن أراه لأؤنبه على فعلته المنكرة ؟ . وجفا النوم مضجعى تلك الليلة لكثرة ما فكرت فيها عساى أصنع وكيف

أستطيع أن أعلم كيف عرف زوجي مقرى . ولم يغمض لي جفن حتى المخرج
 الأخير من الليل . فلما استيقظت ضحى الغد ناولتني مربية أولادى خطاباً
 عرف لأول ما رأيت عنوانه أنه من زوجي . وتوقعت قبل أن أفتح أن أقرأ
 فيه من فحش القول وهجر الكلام مالا أستطيع الرد عليه . وما لزوجي كل
 العذر في أن يقوله . فلما فتحته وتلوته انقلبت مخاوفى دهشة وعجباً . وتولانى من
 الحيرة ما كاد يذهلنى ، فهو كتاب مرجز كل الإيجاز ، وفيه يقول زوجي بعد
 تحية رقيقة إنه لم يحضر إلى بيتي لظنة قامت بنفسه كما قد أتوهم . ولكن
 عليه واجبات بصفة كونه زوجاً وأباً لا يمكن أن يهملها ، ولا بد له من أدائها ،
 ويسألنى أن أفكر لصحتي وصحة الولدين أن أسافر إلى أوروبا هذا العام
 ليعث لي نفقات السفر كما عودنى ؟ ويختم خطابه : زوجك الوفى المخلص .
 لم أصدق عيني حين تلوت الكتاب ، فأعدت تلاوته مرة ومرة ومرة
 ثم شعرت بعد هذه التلاوة وكأننى هويت من أعلى السحاب ! يا عجباً ! . . .
 أولو كانت في يد هذا الرجل طبخجة أفرغها في وفى صديقنا ، أفكان يلومه
 أحد ؟ . أولو كانت معه هراوة أدارها علينا ثم طرد صديقنا كما يطرد
 الكلب ، أفكان الناس جميعاً يرونه محقاً ؟ . أولو كان قد وجه إلينا أقيح
 الشتائم وأقذع السباب ، أكان في مقدورنا أن ندافع عنا بكلمة ؟ لكنه لم
 يفعل من ذلك كله شيئاً ، بل انسحب وكأنه لم يرنا : بها هو ذا يبعث إلى
 بذلك الكتاب العجيب يريد أن يؤدى واجب الزوج والأب : ويعرض على
 أن أسافر إلى أوروبا . . . أستطيع مع ذلك أن أهمل الرد عليه ؟ وإذا رددت
 فإذا أقول ؟ ! . .

وأُسندت رأسي برهة إلى مقعدى أفكر فى الأمر . على أننى ما لبثت أن مرغبتى أن يكون هذا الخطاب أجبولة نصب لى شباكها . فلو أننى قبلت ما عرضه لكان ذلك أقوى سند له إذا أراد أن يكرهنى بحكم القضاء على العود إلى بيته وإلى طاعته . . أرفض إذن ؟ . . ولكنى إن رفضت أسقطت حججى فى مطالبته بنفقتى ونفقة الطفلين إذا اقتضى الأمر ! . . وإنى لأفكر فى هذا كله إذ جاء صديقنا يبلغنى أنه عائد إلى القاهرة ، ويسألنى أى حاجة أنا لأى رأى أو معونة ، ولعله أراد أكثر من هذا وذلك أن يرى الأثر الذى تركته مفاجأة زوجى فى نفسى بعد انقضاء يوم كامل عليها ، فلما أريته الخطاب وتلاه وتلاه من الدهشة ما تولاى ، وأخذ يقلب الأمر معى على وجوهه بعد أن ذكرت له ما ثار عندى من ظنون . . ثم إننا اتفقنا على أن أكتب له فى إيجاز كتاباً أقول له إنه أدرى بواجبه أكثر منى ، وإن طبه يسمح له بأن يقدر حاجة الولدين للسفر إلى أوروبا . فإن رأى ذلك ورأى أن أسافر معهما للعناية بهما فإننى لن أقصر فى القيام بواجب الأمومة ، وسأنهض به كما ينهض هو بواجب الأبوة ، أما إن رأى بقاء الطفلين بمصر فلا اعتراض لى على ذلك . فصحة الولدين غاية همة ، والعناية بهما مصدر سعادتى وهنائى . على أن كتاب زوجى وردى عليه لم يهديانى إلى جواب عن سؤالى : كيف عرف مقرى ؟ . . وقد عرفت من بعد أنه علم بتقود صديقنا إلى الإسكندرية فأيقن أنى أقمت بها ، فاتصل بمحافظها ، وكان صديقه . وطلب إليه أن يدلّه على عنوانى . ولم يجد المحافظ مشقة فى الاهتمام إلى حيث أقم ، إذ سأل رجال الإدارة فى أحياء الإسكندرية جميعاً فجاءه من أقم فى

حيه بالعنوان فأبلغه إلى زوجي ، عند ذلك أيقنت أن من يعيش في جماعة منظمة يصعب عليه أن يحتفظ بأسرار حياته ، وبخاصة ما كان منها واقعاً تحت نظر الدولة ورجالها كمحل السكن ! . .

وأقمت أنتظر تصرف زوجي بعد ردى على خطابه . ولم يطل انتظاري . فبعد أيام تناولت كتاباً به تحويل على أحد بنوك الإسكندرية بنفقة إقامتنا . وفي الكتاب أن محل كوك أصدر تعليماته إلى فرعه بالإسكندرية ليعطيني تذكرة السفر إلى ولولدين وللمرية إلى أوروبا وإلى حيث أريد التنقل بين أرجائها ذهاباً وإياباً حتى عودتي إلى مصر ، وأنه يريد أن يعرف الزمن الذي أعترم قضاءه في تلك الربوع ، ليعث إلى تحويل بالنفقة اللازمة له .

لم تكن دهشتي إذ تلوت هذا الكتاب بأقل من دهشتي يوم تلوت الكتاب الأول ، فلواتني كنت مكانه حين وآتي أتحدث في خلوة مع صديقنا لأكلت الغيرة قلبي . ولما ملكت نفسي ، ولما استطعت أن أضبط أعصابي ، وما هو ذا يبعث إلى بالنفقة كأن أمراً لم يحدث ، وكأني لا أزال أهلا لعطفه وجهه . أي إنسان هذا الرجل وكيف ظل واقفاً في ليوقع كتابه إلى : « الزوج الوفي المخلص » وكأني لست دونه إخلاصاً ولا وفاء ، أم يحسب نفسه قديراً على أن يشتريني بالمال ! . . إن يكن ذلك ظنه فقد خاب رجائه فلست بالجامعة التي تستطيع أن تتحكم في أعصابها وعواطفها كما يتحكم هو في أعصابه وعواطفه؟! وألقيت نفسي . بعد أن تلقيت كتابه الأخير ، أمام الأمر الواقع . لذا ذهبت الغداة إلى البنك فقبضت التحويل ، ثم ذهبت إلى كوك لمخاطبتهم في أمر السفر ، واستعنت بهم في تصوير خطته وبرنامجه ووعدهم أن أعيد ٢٠١

الغداة لأبلغهم مطالبي ، وأخذت وأنا في طريق عودتي أفكر من جديد في زوجي وجموده أمام منظر يثير الغيرة في نفس أكثر الناس جموداً وأشدهم لزوجه - التي لا تزال على ذمته - كراهية واحتقاراً ! . .

على أنني سمعت إذ ذاك صوتاً يناديني متبعثاً من أعماق نفسي : « لك الله يا ظلمة ! . أو تظنين أنه كان يحمل على نفسه كل ما حمل ويكلف نفسه عبء سفرهم وحالته المالية ما تعلمين : لولا أنه أراد أن يفرق بينك وبين صديقنا من غير ضجة تفضحكما وتسيء إلى ولديكما ؟ . خفي إذن من غلوائك واعلمي أن غيرتك الحمقاء وكبرياءك الغرورهما علة ما أنت فيه . وأنتك لولاهما لاستطعت أن تكوني أسعد النساء » .

أزعجني هذا الصوت ، فلم يبق في قلبي ذرة من عطف على هذا الرجل . أو عاطفة تقربني منه ليفرق بيني وبين صديقنا . وإذا صح أن غيرته هي التي دفعته ليحمل على نفسه ويحتمل عبء سفرنا إلى أوروبا فأين كانت هذه الغيرة من سنوات مضت ؟ وإذا كان يظن أن هذا السفر يصلح ما أفسد فما أفحش خطأه ! لقد تنافروا قلبينا فلم يعد إلى نجائهما سبيل . أما غيبي عن صديقنا أشهر الصيف فلا أثر لها في نفسي ، فليس بيني وبين الرجل إلا أنه كان شهماً ذامروءة ، سددني في أوقات محنتي ، وأظهر من الرجولية إزاء صديقتي ما لم يظهره زوجي . وأبدى من العطف على ولدي منذ انتقال إلى الإسكندرية ما استحق ثنائي الجميل .

ومر بخاطري برهة أن أرفض السفر وأن أظل بالإسكندرية كيداً لزوجي وامتنحاناً جديداً لغيرته ، ولكنني خشيت إن فعلت أن يتمسك عليّ بهذا الرفض

ويتخذ حجة لأمر بدبره ضدى . فذهبت الغداة إلى كيك ورتبت معه برنامج رحلتنا وطلبت إليه أن يعد تذاكر السفر كلها . ثم مررت به بعد يومين وأخذت كل ما أعده . وأبلغ المحل الرئيسى زوجى ما حدث فبعث إلى بكتاب أرفق به تحويلاً جديداً لتفقات السفر . وبعث معه بالجوازات اللازمة لى ولطفلين والمربية وتبنى لنا رحلة سعيدة موفقة .

وجاء صديقنا قبيل السفر يودعنى ويذكر أنه كان يريد أن يراى ساعة السفر ، لولا مخافته أن يلتقى بزوجى على الباخرة لقاء تخشى مغيبته . فلما كان يوم الرحيل وذهبنا إلى الميناء ألقيت زوجى فى انتظارنا . فلما رأنا أقبل علينا وقبل الولدين وسلم على وحيًا المربية ، وصعد معنا الباخرة واطمأن معنا إلى حجراتنا منها وإلى موضع متاعنا بها ، ثم ذهبنا جميعاً نسير فوق ظهر الباخرة فسرت أمامه وسار خلفى ممسكاً كلا من الولدين فى إحدى يديه حتى أجلسهما معه على مقعد طويل . ولقد أخذ يداعبهما ، ويقبلهما وأخذت أرق له وأرثى لحاله . وإننا لذلك إذ فاجأتنا المصادفة بمنظر ارتاع له قلبى ، رأيت صديقتى مقبلة علينا وحوطها عديد من معارفها والمعجبين بها وهى توزع بينهم نظراتها الساحرة وابتساماتها المشرقة وتبادلهم فى صوت خافت عبارات لم أتيناها . وأشحت وجهى حتى لا أراها ، ومرت هى بى فى استخفاف وكأنها لا تراه ، ولكنها وقفت عند زوجى وحيته وقبلت ولدنا وبادلته عبارات فهمت من مجموعها أنها تسأله إن كان مسافراً معنا ؟ وأنه يحببها أن عمله لا يسمح بهذا السفر . إذ ذاك تضحكت فى دلال وقالت بصوت مسموع : « كم آسف لذلك ، فقد كانت رقتك تسعدنى ولو لم تطل لأكثر من الأيام

التي نقضها على ظهر السفينة حتى نصل إلى جنوا ! ! .

هي إذن مسافرة معى على الباخرة . وقد كان زوجى يعلم لا ريب بموعد سفرها . أتراه جاء اليوم ليودعنا . أم اتخذنا سلماً ليودعها ؟ . . ها هي ذى تنظر إليه كأنما تريد أن تلتهمه بعينها . وهو يحدثها ملقياً بنظره إلى الأرض كأنما خجل من أن أراها يتحدثان ! . . وحانت منى التفاتة إلى مربية أولادى فهتت منها ما أريد فأسرت إلى الولدين وجاءت بهما عندى . وصديقى تتعمد إطالة الحديث حتى استغرق دقائق خلتها دهرأً أوهفت أذنأى فى أثائه لأسمع ما يدور بينهما من حديث . ولا حظت منذ جاء الولدان عندى أن زوجى يريد أن ينهى هذا الحديث ليعودا إليه . وأدركت صديقتى ذلك من ردوده المقتضبة فسلمت عليه سلاماً حاراً وودعته بنظرة بارعة وقالت فى ابتسام ساحر : « أرجو أن أراك حين عودتى مستريح البال موفور العافية » . فلما عاد إلى مجلسه على مقعده الطويل نظر إلى ولديه وأوماً إليهما برأسه ففهرولا نحوه مسرعين ، وأجلسهما معه كما كانا من قبل وعاد يقبلهما ويداعبهما . فلما أعلنت الباخرة المودعين بصوتها الضخم تؤذّنهم بالانصراف ضم كلا من الولدين إلى صدره ثم مسح عينيه بمنديله وأقبل نحوى فلم على وعلى المربية وقصد نحو السلم يهبط عليه إلى رصيف الميناء ! ! .

وجرى ولداى مع المربية إلى الناحية الأخرى من الباخرة حيث السلم ليتمكنا من رؤية أبيهما حين انصرافه ، ومكثت أنتظر عودتهما . لكنهما طال غيابهما لأن أباهما وقف يشير إليهما ويناديهما ويلوح بمنديله الأبيض حتى تحركت الباخرة واستدارت نحو مدخل الميناء إلى فسحة البحر . عند ذلك

عدد قفديهما وقلبي يدق وكأنما يقول في دقائقه : تستطيعين أن تفصلي عن هذا
 تُرجل يمسكك ، لكنك لن تستطيعي أن تفصلي حياتك عن حياته . وهذان
 الطفلان يربطان بينكما بأوثق رباط . . .

وتحطت الباخرة الميناء إلى البحر وأطلقت لحركاتها العنان . وأخذت
 الإسكندرية تتوارى شيئاً فشيئاً في حجاب الأفق ، فلما لم يبق أمام ناظري
 إلا السماء والماء تخطيت على مقعد طويل وحاولت أن أخلى خاطري من كل
 شيء . وأن أدع نفسي تموج مع نسيم البحر العليل في عوالم مبهمة لا يشغل
 الخيال ولا الدهن شيء مما فيها . وإنني لكذلك إذ مرت صديقتي مستندة
 إلى ذراع أحد المسافرين وهي ترسل الحين بعد الحين ضحكات ناعمة
 تشهد بما يملأ قلبها من مرح ومسرة . قلت في نفسي : ما أسعد هذه
 الأرملة الطروب بالحياة اليوم . وهي هي التي كانت من سنوات مضت
 صورة ناطقة لمعاني الهم والشجن . وهما وشجنها بالأمس هما مصدر مرحها
 وسعادتها اليوم . فلولاها ما بذل صديقنا وزوجي ما بذل من عناية حتى
 استخلصا ميراثها وميراث أبنائها وأتاحا لها هذه الحياة الناعمة التي ترحبها .
 ولا شغل صديقنا ولا شغل زوجي بها إلى اليوم . وهكذا الحياة . مجموعة من
 المتناقضات يسعد بها قوم ويشقى آخرون : صحة ومرض ، فقر وغنى ، شقاء
 وسعادة : وهذه المتناقضات تتداولنا دراكاً فتسعد ثم نشقى ، ونشقى ثم نسعد ،
 ويتوالى ذلك علينا حتى يدركتنا الأجل المحتوم ! . . .

لست أدري لم أثار مرور صديقتي هذه المعاني الفلسفية في نفسي وجعلني
 أفكر في ضعف الإنسان أمام الحياة حتى لترعجه أنفه الأشياء كما تسعده

أنفها . قد يكون موج البحر الممتد أمام النظر إلى مدى الأفق . والذي يسر في طياته من الغيب مالا أعلم ، هو الذي أثارها . وقد يكون هواء هذه الساعة برقته وما يهيئ للنفس من استرخاء وسكينة هو مبعثها ، على أية حال فقد بقيت بعدها كأنني في حلم متمطية على مقعدى ، أفتح عيني وأغمضهما كما أهوى ، وأشعر بنوع من تخدير الأعصاب الذى يسبق النوم ! . .

فلما حان موعد العشاء وحان للناس أن يبدلوا ملابسهم ارتدبت للسهرة ثوباً بسيطاً ثم صعدت إلى سطح الباخرة تلمع عليه أضواء الكهروءاء ، وبينما أسير ذهاباً وحيث مرت بى صديقى من جديد وقد ارتدبت للسهرة ثوباً بارع الجمال ، وقد تزينت زينة كلها الإغراء ، وقد أمتست بحمالها وزينتها وثوبها تلفت نظر كل رجل وكل امرأة مرت به أو مر بها . ونظرت إليها إذ ذاك وأطلت النظر وذكرت كلماتها الأخيرة لزوجى : أرجو أن أراك حين عودتى مسريح البال موفور العافية ! . .

وتناولنا طعام العشاء ثم أديرت بعده حفلة رقص شهدتها إلى منتصف الليل ! . . وقد رقصت صديقى مع كثيرين كانوا يستبقون إليها ويطلبونها للرقص معهم ! . . وكانت لا تأبى أن تلبى من يتقدم إليها لراقصه ! . . ثم كان جمالها وكانت زينتها حديث الرجال جميعاً ، وكان مرحها وكانت ابتسامها أشد إثارة لإعجابهم من ثوبها ومن زينتها ! . . وقد خيل إلى ساعة غادرت هذه الحفلة إلى مخدعى إن الرجال جميعاً جنّوا بها جنونا وأنهم لن يدعوا الحفلة تنتهى حتى مطلع الفجر ! . .

وخلعت ثيابى وارتدبت ملابس النوم واستلقيت فى سرىرى وصورة

صديقتي - وهي موضع الإعجاب بل موضع التقديس عند الجميع - لا تبرح خيالي ، وأغمضت عيني أحاول النوم فإذا هذه الصورة تتوارى لتحل محلها صورة صديقتي يوم التقينا بالأقصر بعد عام من وفاة زوجها . لم تكن يومئذ الأرملة الطروب التي يراها الرجال اليوم ويعجبون بها . بل كانت سيدة يادية الحشمة ، تؤمن بجمالها من غير أن تعرضه نزهة للناظرين ، بل كانت تبدو وكأنها تستحي منه ، وتود لو تستطيع أن تواريه عن الأعين . يومئذ كنت أجلس إليها وأراها شابة جميلة ساذجة لا تجيد أن تتكلم ، ولا تجيد إلا أن تنظر بعينيها الساحرتين إلى من يحالسا ومن يمر بها . ويومئذ لم أربأماً بأن يهتم صديقتنا بأمرها وأن يعنى زوجها بشؤونها وشئون أبنائها . أما منذ خلص لها ولأبنائها ميراثهم وحسبت أنها اطمأنت إلى الحياة تبدلت حالها غير الحال وأصبحت امرأة وقاحاً لا تطاق ، ظنت أنها تستطيع أن تنافس في سلامة العبارة ، وجمال اللفظ ، وأنها تستطيع أن تسحر بهما الناس فوق سحرها إياهم ببارع جمالها وساحر فتنها . وقد بلغت من ذلك أن فكر صديقتنا في أن يترجها ، وأن قبضت على ناصبة زوجي واستبقت مودته .

وكانت صورتها تتبدل أمام بصيرتي وأنا مستلقية في مرقدي : كلما تصورت حالا من أحوالها التي أثارتني بها وانتهت إلى القطيعة بيني وبينها : وكنت أزداد حقاً على هذه الصور وعلى صاحبها كلما هفا إلى مسمعي صوت موسيقى الرقص آتياً من ناحية بهو الباخرة ، وهي الليلة في ذروة مجدها وانتصارها .

وأصبحت فتناولت فطوري في غرفة الطعام وصعدت إلى ظهر الباخرة .

ووقفت أستشقى هواء البحر لعله يذهب عني جهد الأرق الذى لازمني معظم ليلتي ، وبعد قليل وقفت إلى سيدة جيتي بالفرنسية ثم أخذنا تتبادل الحديث المألوف في مثل هذه الأسفار عن الجو والبحر ، والرجاء أن يظل هادئاً إلى نهاية السفرة . وأنا لني حديثنا إذ مرت صديقتي مشرقة الوجه باسمه الثغر كأنها نامت كل ليلتها وسعدت بأجمل أحلامها ، وكأنها لم ترقص إلى قرابة الصبح ، ونظرت إلى ساعة مرت بنا نظرة تعال وكبرياء وكأنها تقول لي : « أرايتي ليلة أمس . وهلا تزال الغيرة تأكل صدرك مني ولا تقتئين تطمعين في منافستي ؟ . . إن يكن ذلك فهذا البحر أمامك فاشرب مني أو ألقي نفسك بين أحضانه لتتخلص من غيرتك ويأسك » .

وسألني محدثتي ، وكنت قد علمت منها أنها فرنسية ، أعرف هذه السيدة الجميلة ؟ . قلت : نعم أعرفها وإن لم تكن أصدقاء ، وهي كثيرة المعارف . والأصدقاء وأصحابها في مصر يسمونها « الأرملة الطروب » ، ففيها خفة تقارب الطيش ، وتذكرت وأنا أتكلم أن صديقتي مصرية ويجب لذلك ألا أخرجها ، فاستطردت في كلامي : « لكن أصدقاءها يذكرون أنها طيبة القلب ، وأن خفتها ويرحها لا يتعديان المجتمع إلى حياتها الخاصة ، أما معرفتي بها فقليلة وليس من حق أن أحكم لها أو عليها » .

وعلفت محدثتي الفرنسية على كلامي فقالت : « أنت على حق يا سيدتي ، فأنا أعرف في باريس نفسها سيدات اشتهرن بالخلاعة وهن مع ذلك مثال الشرف والسمو عن الابتذال ، وتقولين أنت الآن إن أصدقاء هذه السيدة المصرية يقولون ذلك عنها ، ولا أحسبني في ريب من ذلك بعد الذى رأيته

أمس . لقد تركتنا أمس منتصف الليل والسهرة لم يحرم وطيسها . ولو أنك
 بقيت إلى نهايتها لرأيت عجباً . شرب بعض الشبان حتى ثملوا وعرضوا على هذه
 السيدة أن تشرب ولو قليلاً من الشمبانيا فأبت إباء مطلقاً . معتذرة بأنها
 تشرب في حياتها . وأن دينها يحرم عليها الشراب . وألقى هؤلاء الشبان
 الثملون أنفسهم على أقدامها . وزعم أحدهم أنه شاعر إنجليزي وألقى مقطوعة
 ادعى أنه نظمها لساعته من وحى عينيها الساحرتين . وذهب آخر إلى غرفة
 الطعام وجاء بما فيها من الأزهار ونثرها عليها . ولم يكن القبطان أقل الحاضرين
 افتتاناً بها . فقد عرض عليها وهو في نشوة شرابه إن لم تكن تعجبا قمرتها .
 أن تأخذ قمرته وصالونه . وضحكت هي لهذا العرض وقالت إنها ستفكر
 فيه متى أصبحت وأصبح القبطان . والحق أشهد أنها كانت برغم مرحها
 وطربها شديدة الاعتزاز بنفسها وبكرامتها . وإن لم تكن أقل من ذلك اعتزازاً
 بجملها وبسحرها . وسكتت لمحدثي قليلاً . ثم قالت : « ألا ليتك
 تستطيعين يا سيدتي أن تحدثي التعارف بيني وبينها ! » .

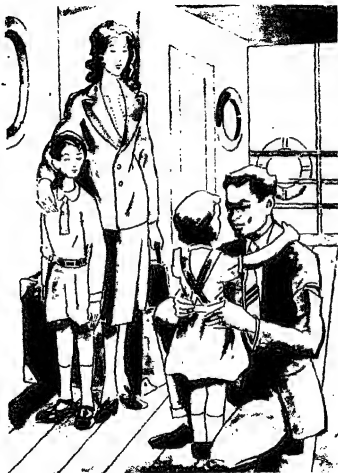
وأخذت لهذه العبارة الأخيرة . فلن يحملني اعتباراً كان على المتحدث
 إلى هذه المرأة التي سلبتني هناءً وسعادتي . بل سلبتني كل ما في الحياة من
 نعمة وجمال . على أني سارعت مع ذلك وقلت لمحدثي : « أنت يا سيدتي
 في غير حاجة إلى من يقدم لك . وحسبك أن تبادلها الحديث بإطراء
 جمالها لتكسب قلبها ، وهي طيبة القلب كما ذكرت لك ، ويسرها لذلك
 أن تعاملها من غير كلفة ولا رسميات ! » .

لا أستطيع أن أصف ما أثاره هذا الحديث في نفسي من غيرة ومن حيرة .

لقد كان هذا الانتصار الباهر الذى أحرزته صديقتى خنجراً مسموماً صوب
إلى صدرى ، ولكنى كتمت موجدى واتخذت من طفلى مسلاة لى أنسى بهما
همى وكربى .

وتناولنا طعام الظهيرة وذهبنا إلى بهو الباخرة نتناول القهوة فإذا إعلان بخط
واضح أن الآنسة الإيطالية ، ضاربة الكمان الشهيرة فى الأساط العالمية
جميعاً ، تفضلت بإحياء سهرة هذا المساء فى بهو الباخرة . وتبدأ الساعة
التاسعة والنصف ، والجميع مدعون .

أقبل المساء وبذل المسافرون ملابسهم لطعام العشاء ، فإذا صديقتى
أبدع ثوباً وزينة مما كانت عليه أمس ، وإذا العيون تنبها ساعة دخلت قاعة
الطعام . وعجب الناس حين رأوها تتخطى المائدة التى كانت تجلس عليها
لليلة الماضية إلى مائدة القبطان لتجلس إلى جانبه . عند ذلك دوت القاعة
بالتصفيق مما أجبلى مصرى . فلما فرغنا من الطعام وذهبنا إلى البهو
إذا رجال الباخرة قد استحدثوا فيه منصة للاعبة الكمان ، وإذا على هذه
المنصة كراسى ثلاثة لم نعرف لمن وضعت . وبعد قليل أقبل القبطان وعن يمينه
لاعبة الكمان وعن يساره صديقتى . وإذا هم يصعدون جميعاً إلى المنصة .
ويجلس القبطان بين السيدتين ، فلما سكن تصفيق الحضور وقف القبطان
يقول : « لا حاجة لى إلى تقديم الآنسة ربة الكمان وشهرتها تغنيها عن كلامى ،
وكمانها الذى سستمعونه عما قليل أبلغ عبارة منى فى تقديمها ، أما السيدة
المصرية فقد عرفتوموها جميعاً ليلة أمس ، بعد أن قدمها لكم جمالها وظرفها
وقلبها الكبير ، والكلمة الآن للكمان البارع ! . . »



فلما كان يوم الرحيل ودّعنا إلى الميناء أقبلت زوجي في انتظارنا ، فلما
رأنا أقبل علينا وقبل الولدين

ولعبت الآنسة عدة مقطوعات لعبت معها بالعقول والقلوب ، فكانت كل مقطوعة تنتهى تدمى الأكف بالتصفيق . . ولست أذكر أنى سمعت موسيقى بلغت من الإعجاز ما بلغت موسيقى تلك الليلة . سمعنا مقطوعات لبتهوفن ، ولوزار ، ولفانجر ، وأمثالهم من الخالدين الذين أشاعوا فى جوارح العالم أبداع الأنغام وأعذب الألحان . فلما فرغت الآنسة من إيقاعها البارء البديع الذى سما بنفوسنا إلى أجواء الفن العليا وقف القبطان يشكرها لما أسعدتنا جميعاً به من تلك الموسيقى السهاوية ، ثم قال : « ولم أرد أن أروعكم ساعة بدأت هذه الحفلة ، فقد صادف بدؤها بدء عاصفة لعبت بالباخرة ، وستحسونها جميعاً عما قليل ، لكن هذه العاصفة وعبثها بالباخرة لم يكن لهما أى سلطان على الآنسة ، لأن قتها ملكها فى أثناء لعبها فلم يكن لغيره ، ولم يكن للعاصفة ، سلطان على أصابعها البارة ، ولا على جسمها الذى استطاع أن يحتفظ بكل توازنه أكثر مما استطاعت باخترى أن تحتفظ بتوازنها .

« ولم تقف قدرة الآنسة عند هذا الحد ، فقد أنستكم جميعاً ببراعة قتها أن البخرة تميل يمنة ويسرة ، لأن أنغامها أمسكتكم فى مقاعدكم تطربون لها وتستمعون إليها ، أفلا يوجب هذا كله علىّ وعليكم أن نضاعف شكرنا لمن أباحت لنا هذا الفن الجميل وأنستنا غضب البحر وهياجه ! . . فباسم هؤلاء الحاضرين واسمى أقدم لك يا سيدى خالص الشكر وجزيل الشاء ! . . »
واندفع الحاضرون نحو المنصة يحيون الآنسة ويشكرونها ، ولكن الأعجب من هذا أنهم كانوا يتجهون بعد تحيتها إلى صديقتى يحيونها هى الأخرى ثم يقفون حولها يبدون من الإعجاب بمجالها مثل إعجابهم بالمكان ولاعبته

وحاوت صديقتي أن تنصرف حين انصرف القبطان فإذا المحيطون بها قد ضربوا حبلًا نطاقاً يتعذر اختراقه . ولم ينجها من هذا الموقف إلا أن أعلنت أنها بدأت تشعر بالدوار وأنها في حاجة إلى الهواء الطلق أو تهبط إلى قعرها ، عند ذلك أفسح المحيطون بها طريقاً لها وكلهم يكررون آى إعجابهم بحماها وحبها وظهرها ! . . .

وكنت أشهد ذلك مشدوعة . لا دهشة أعظم من دهشتي . ولا حيرة أعظم من حيرتي وغيرتي . ولو أن زوجي اختار لها أن تسافر معى على هذه الباقرة كيداً لى ، لقد بلغ من كيده ما أراد وأكثر مما أراد . أما إن كانت المصادفة هى التى ساقط ذلك كله إلى فيالبيوسها من مصادفة مشرقة .

وخرجت مع الناس إلى ظهر الباقرة وكأنى أشعر بالدوار بعث بى . فهبطت مسرعة إلى قمرقى وقضيت بها ليلة نابغة . فلما أصبحت كان البحر قد استرد اترانه فسكن هياجه وعاد سلساً كما كان . والتقيت بالفرنسية بعد الفطور وتبادلتا التحية وأخذت تحدثنى عن موسيقى الآنسة الإيطالية وروعيتها . ثم قالت : « وصاحبتنا المصرية ، أرأيت تهافت الرجال عليها واستسلامهم لفئة جمالها ؟ » . قلت : « نعم رأيت ذلك ولم يدهشنى . ذلك شأن الرجال ، يترامون على المرأة ترامى القراش على الثور . ثم لا يعينهم أن تحرقهم بنارها وتذرى بقاياهم فى الهواء يبددها كل ربح . »

وقالت محدثتى : « وأعجب الأمر أن أكثر الرجال رزانة وحكمة لا يمتازون فى هذا الشأن عن أكثرهم طيشاً ونزقاً ، وإن اختلفت أمزجتهم فى ذوق الجمال وصاحبته ، وأعجب من ذلك أن البريق الظاهر يفتنهم وبغيرهم

أكثر مما يفتنهم الجمال الحق في المرأة الكاملة ، ولا شيء يدل على هذا ما يدل عليه افتتانهم بشباب المرأة وحليها وظاهر زينتها ، وأنهم مع ذلك يذكرون أن المرأة هي التي تخلع على هذه الأشياء جمالها ورونقها . وأما إن رأوا سيدة بسيطة الثياب قليلة الزينة فقل ما يلفتهم جمالها ، وأقل من ذلك أن يلفتهم ما تنطوي عليه روحها وجسمها من كريم المعاني ورائع الجمال ؛ ثم يقول الرجال بعد هذا إنهم أولو حكمة ، وإن كانت حكمتهم أغلب الأمر هي السخف كل السخف ، ولم يكن لها من سند إلا سخرية المرأة منهم وفتنها إياهم » .

أعجبني هذا الكلام فانصرفت أكرره في أعماق روعي ، وتبدلوا من خلاله صررة زوجي وعطفه على صديقتي ، فلا يزيدني ارتسامها أمامي إلا ازدراء له ومقتاً إياه ، فهو الذي أفسد حياتي ودفعني للفرار من بيتي باصطفائه صديقتي على رغم علمه بحقيقتها وطيشها .

كانت ليلتنا المقبلة آخر ليالينا على الباخرة ، إذ كانت ترسو الصباح بمرفأ جنوا ، ولهذا أقيمت في المساء حفلة تنكرية لم أرد أن أشرك فيها ، لأن صديقتي بارعة في التنكر ، تتكر له من الأزياء ما لا يرد بالخطر ، وما يلفت الأنظار إليه ويمسكها عنده ، ولست حريصة على أن أشهد الاحتفال بانتصارها الساحق للمرة الثالثة . لهذا أويت إلى قمرتي وأعددت متاعنا وقضيت بعض الوقت أقرأ وأنا في سريري ثم أطفأت مصباحي .

واستيقظت بكرة الصباح وصعدت إلى ظهر الباخرة فإذا هي ترسو . وانتقلنا ترواً إلى محطة السكة الحديدية ، فلما انطلق القطار ولم تكن به

صديقتى تنفست الصعداء وحمدت الله أن استعدت حريتى . وتنقلنا بين
شمال إيطاليا وسويسرا وفرنسا وألمانيا مبتعدتين عن المدن ما استضعنا . مستمتعين
من هواء الجبال والبحيرات بما رد إلى هدى وطمأنيتى . وزادنى هدوءاً
أنى اتيت إلى تصميم حاسم أن انفصل بالطلاق عن زوجى . وإن كلفنى
ذلك ما كلفنى . فلم يعد يعينى ما يقوله الناس عني إذا لجأت إلى القضاء .
فالأمر لا يتعلق بسعادتهم بل بسعادتى . ولم أعد أعبأ بما كان يذكره صديقنا
من تأثر ولدى بهذا الطلاق . فالوضع الحاضر أسوأ أثراً على نفسيهما وأكثر
إساءة لهما . وإذا اضطررت عناد زوجى إلى التشهير به فلن يكون ذلك ذنبى .
ولن أكون آخر امرأة طلقت ولا آخر امرأة تطلق . ولن يكون لى من وراء
هذا الطلاق إلا أن أستعيد حريتى وأن أحيا كما يحيا كل من ملك حريته .
من يوم صبح على هذا الرأى عزمى شعرت بديب الحياة السعيدة يعبرى
فى عروقى . ورأيت الجبال أبهى منظراً بالخضرة التى تكسو سفوحها .
والبحيرات أبرع جمالا بأضواء الشمس والقمر تنعكس على صفحاتها .
ثم شعرت بنوع من النعمة لم أكن أشعر به من قبل . شعرت بكمال شخصيتى
وبقوة أنوثتى .

وعندنا إلى مصر فألفيت زوجى يصعد إلى الباخرة وهى لا تزال فى عرض
البناء . وأقبل علينا وجلس إلينا بعد أن قبل الطفلين وضمهما إلى صدره وقبل
يدى وسلم على المرية وكأنه مشوق إلينا أعظم الشوق . وبعد أن اطمأن بنا
المجلس وتبادلنا السؤال عن الصحة وكيف قضينا سفرنا نظر إلئى ف عطف
وحنان وسألنى : « ألا تريدان أن نعود جميعاً إلى القاهرة ؟ » . فأجبت فى

هدوء وحزم : « أشكرك يا صديقي فلم يبق إلى حياتنا المشتركة من سبيل وأنا
أطلب إليك منذ اللحظة أن تسرحني . ولن أضن عليك بما تطلب لقاء
طلاق . فإن أجبتني إلى ذلك شكرت لك . وإن أبيت فلن تحمد من بعد
إيائك . »

ووجه الرجل لما سمع . ولم يتبادل بعد ذلك كلمة حتى خرجنا من الجمر
وذهب إلى بيتي بالإسكندرية . وعلى باب البيت ودعنا ولا يزال واجماً
كثيراً . وعاد إلى القاهرة وعدت إلى حياتي أنتظر ما الله فاعل به وبى ! . .

افضل الشاكرين

بعد ثلاثة أيام من مقامنا بالإسكندرية جاء صديقنا يسلم علينا ويرحب بنا . وإنما علمت بمقدمه حين سمعت طفلي يستقبلانه أول وصوله بالبشر والتهليل كأنه أعز عزيز عليهما . وصعدا معه إلى وجلسا من حوله ينظران إليه بعينيهما البريئة نظرات كلها الحب الخالص . واهتز قلبي لهذا المنظر غبطة وطرباً ، وبني هويدا عليهما نارة ويحدثني نارة أخرى وأنا سعيدة ببقائه أعظم سعادة . واستأذن يريد الانصراف قبيل موعد الغداء فدعوته ليتناولوه معنا فاعتذر بأنه على موعد مع أصدقائه من أهل الإسكندرية سبقوني إلى دعوته إذ كانوا معه في القطار الذي قدم فيه . ثم قال وهو يدعني : « سأعود إليك بعد الظهر لحديث طويل بيني وبينك » .

وحاولت بعد انصرافه أن أتوهم ما عسى يكون هذا الحديث فذهبت محاولتي سدى . وأوجيت إلى المربية بعد أن تناولنا طعام الغداء أن تأخذ الطفلين إلى حديقة التزهة وأن تعود بهما ساعة المغيب ليخلو الجول لصديقنا في أثناء حديثه ، وبعد قليل من خروجهم جاء صديقنا فألفاني وحدي فقال : « حسناً فعلت حتى يكون لي مطلق الحرية فيما جئت إليك بشأنه » .

قلت : « كل آذان صاغية بعد أن حاولت عبثاً أن أعرف ما تريد

منى ! . . . »

قال : « إذن فاسمعي ، أنت تعلمين أني لم أر زوجك ولم يرنى منذ انتقالك إلى الإسكندرية ، فقد اتهمني يومئذ أنني حرصتكَ ضده ، وأعتنك عليه ، ولذلك قاطعتني وشهر عند أصدقائي بي - وإنني لني منزل أول من أمس إذ رأيته يدخل على محمر العينين ، ممتنع الوجه ، متهاكاً على نفسه وكأنه لم يذق طعم النوم منذ عدة أيام ، وقمت إليه مشفقاً عليه راثياً لحاله فعانقته كما لم أعانقه منذ سنين ، ورجوته أن يجلس وأن يطمأن من نفسه وأن يذكر لي سبب همه وكربته ، فكثت صامتاً زمناً ثم قال : « معذرة يا صديقي أن لجأت إليك بعد أن قاطعتك ، لقد فكرت طويلاً فيمن ألتجأ إليه لتفريج بلوأي فلم أجد سواك ، فأعني يرحمك الله ولا أذاقك ما أذوق أنا الآن من مرارة قاتلة . لقد ذهبت أستقبل زوجي وطفلي بالإسكندرية ساعة عودهم من أوربا ، فلما لقيتهم رجوت زوجي أن يعود جميعاً إلى القاهرة ، فكان جوابها أنه لم يبق إلى حياتنا المشتركة سبيل ، وأنها تريد مني أن أطلقها ، فإن أبيت فلن أحمد من بعد إبائي . ولست أدري ما ذنبي عندها ، لقد أحببتها ولا أزال أحبها حب تقديس ، بل حب عبادة ، أحبها لنفسها ، وأحبها لطفليتنا ، أحبها وأزداد إعجاباً بها كلما رأيت غيرة بطري ذكاءها ورقها وسحر حديثها ، لم تأخذني الغيرة يوماً عليها لأني أؤمن بشرفها وكبريائها ، كما يمانى بالله وبشرقي وشرف مهنتي ، وقد غاضبتني بعد أن استخلصت بمعونتك ميراث صديقتها ، غاضبتني وهي التي كانت تحرضني على ذلك وتدفعني إليه ، وأنت تعلم أنه لم يكن بيني وبين صديقتها يوماً ما بشيئ ، وأقسم بالله وبشرقي وبشرفها وبرأسي طفليتنا أنه لم يكن بيني وبين

هذه السيدة قط ربية توجب أن تغاضبني زوجتي . . فلما غاصبتني صبرت وصاربت مؤمناً بأن الزمن سيفعل فعله . لأن حبي إياها لا يزال اليوم كما كان يوم تزوجنا . . مع ذلك أصرت على مغاضبتي . كما تعلم . وبعثت إلى ذلك الخطاب الذي أطلعته عليك . ثم هجرت بيتها وذهبت إلى الإسكندرية . وعدت فصبرت وصاربت ولم أقصر قط في حقها أوحق ولدنا . ودفعتها إلى السفر في هذا الصيف الأخير إلى أوروبا لعلها تعاود التفكير في أمرنا وأمر ولدنا فكانت نتيجة هذا التفكير ما ذكرت لك من إصرارها على الطلاق » .

« وسكت زوجك برهة بعد ذلك استرد فيها هدوءه . ثم تابع حديثه قائلاً : « أنا لا أريد قط أن ألومها على شيء من ذلك كله ، لا أريد أن ألومها على مغاضبتي ، ولا على ذهابها إلى الإسكندرية ، ولا على طلبها الطلاق ، لكنني أريد أن أستغفرها ولا أزال أطمع في عفوها . أريد أن أعترف لها في غير موجب للاعتراف ، بأني مذنب وبأني هفوت ، بل أخطأت ، بل أئمت في عنائي بصديقتها وفيما تقول من أنني أعطف عليها ، أو أميل إليها ، أريد يا صديقي أن أفرض هذا كله صحيحاً ! ألسنا جميعاً معرضين لأن نخطئ ؟ . . وهل يستطيع الناس أن يعيشوا وأن يتفاهموا إذا لم يغسل العفوينهم حوبة الخطيئة ؟ إن المرأة لتخون زوجها حتى ليرتاب في ولده منها ثم تطمع مع ذلك في عفو ومغفرته ، ولو أن زوجتي تهمني بأن الأمر بلغ بيني وبين صديقتها هذا المدى ، ولا أحسبها تبلغ من الرية هذا المبلغ ، أفلا أستطيع مع ذلك أن أستغفرها ؟ تستطيع أنت يا صديقي أن تذكر لها أنني أقسم بأني لن أرى صديقتها من بعد قط إذا أعدنا حياتنا سيرتها الأولى . أمن المعقول

أن تجزى هذا الحب الخالص لها بكل هذا المقت الذى تواجهنى به ؟ . .
 وهل يبلغ من أمرها وهى الرزينة الحكيمة ، أن تنسى ما يحرق انفصالنا على
 ولدنا من ضياع يفسد كل حياتهما ؟ . . إذا لم ترد أن تسمع فى أمرى إلى
 صوت الزوجة فلتسمع فى أمر ولدنا إلى صوت الأم ، إننى أدع بين يديك
 يا صديقى بقية رجاء فى أن تعيد إلى أسرة بائسة قسماً من نور الأمل فى وجه
 الله ، أفتقبل هذا الرجاء ؟ . . »

« وما كاد زوجك يتم كلامه حتى انخرط فى البكاء ، كأنه الطفل . .
 وانقبض قلبي لبكائه وكادت الدمة تنحدر من عيني رثاء له وشفقة عليه .
 أنت تعلمين كم تعينى سعادتك وسعادة طفليك ، وأستطيع أن أؤكد لك
 صادقاً أنه لم يكن بين زوجك وصديقتك ما يريب ، فإن لم تصدقيه ولم
 تصدقيني ، فهو بعد الذى كان منه ، وبعد حديثه هذا معي ، أهل لعفوك
 وغفرانك . أفأنت مع ذلك لا تغفرين ، إن لم يكن من أجله فن أجل
 ولدك ؟ . . »

أنصت إلى هذا الكلام وتأثرت به فأطرقت وأطلت الإطراق وفى
 إطراق ذكرت يوم قلت لزوجي إنه ممثل بارع ، وإنه عطيل ورويو معاً ،
 فلما طال بصديقنا انتظار كلمتي نبهني بقوله : « سمعت الآن ما جئتك فيه ،
 فإذا تقولين ؟ . . أم تريدين أن أنظرك إلى غد حتى تفكرى فى الأمر وتقليه
 على شتى وجوهه » .

قلت : « لا حاجة بي إلى الانتظار يا صديق . . لقد قلبت هذا الأمر
 وفكرت فيه شهوراً إن لم أقل منذ سنين . . . وقد عدت إلى تقليه فى

أثناء سفرى الأخير إلى أوربا فإزداد تصببى على رأى ثباتاً وقوة . وأنت تعرف هذا الرأى . لست أخفيك أن ما ذكرته لى الآن قد ترك أثره فى نفسى ، برغم اقتناعى بأن زوجى ممثل بارع . . وقد يكون صحيحاً ما رواه لك من أنه يحبنى ، وأنه لم يكن بينه وبين صديقتى ما يريب ، ولكن الأمر فى هذا الموضوع لا يتعلق بروايته وصحتها أو بطلانها . إنما يتعلق بما أحسه أنا ، وأنا أرى هذه المرأة بينى وبينه كلما مرت بخاطرى صورته . أراها بينى وبينه فى يقظتى وفى منامى ، أراها بينى وبينه لابساً ثيابها وعارية كيوم ولدتها أمها . أراها بينى وبينه تنظر إليه بعينها الساحرتين ، وتطوق عنقه بذراعيها العاريتين ، أراها بينى وبينه حتى فى سرير نومي . أدع هذا الذى أقوله لك ما شئت . سمه تحريفاً ، سمه طائفاً من الجنون تحكم فى بصرى وبصيرتى وفى أعصابى . لكنه الواقع من أمرى . لقد أصبحت هذه الصورة لا تبارحنى ، وكأنما سرت مسرى الدم فى عروقى ، فتأثرت بها أعصابى وتأثر بها عقلى الباطن ، فلم يبق لى فكاك منها ، أما والأمر ما ترى فإننى أقول لك فى شيء كبير من الأسف إن ما تطلب إلى لم يبق إليه سبيل .

وحاول صديقتنا أن يعاود الكلام فى الأمر معى فقلت له : « لا تحاول المستحيل وأبلغ زوجى أنه إن أراد بنفسه وبى وبطفليتنا الخير فليسرحنى سراحاً جميلاً ، وأنه إن فعل ذكرت له هذه المنة ما حييت ، ولن يكون لى عنده مطلب من المطالب » .

وغادرتى صديقتنا عائداً إلى القاهرة كاسف البال أسفاً : فلما استدار الأسبوع عاد إلى ولا يزال الأسف بادياً عليه ، فلما جلسنا نتحدث قال :

« أشهد أن زوجك أكرم منك ألف مرة ، وأنه رجل مروءة لا حد لمروءته ،
لقد قصصت عليه ما داريننا وذكرته له أنتى رويت لك حديثه كلمة كلمة ،
وصورت له إجابتك أدق تصوير ، فاغرورقت عيناه وقال : « أما وذلك
شأنها فلا أرى الصبر ناجحاً في علاجها ، وليس لى إلا أن أنزل على إرادتها
وأن أدع لها بعد ذلك حرية الاختيار كاملة » . ثم إنه رجاني أن أحضر صبح
الغد لأجد المأذون عنده فيطلقك أمامى طلبة واحدة بائلة لا يمكن معها
ردك إليه بغير رضاك . وعدت إليه فى الموعد الذى ضربته فألفيت المأذون عنده
فأتم الطلاق كما قال ، ولما انصرف المأذون أعطانى قسيمة الطلاق لأوصلها
إليك وقال : أبلغها أنتى عند رأيا ما حييت ، إن شأته يوماً أن تعود إلى
عصمتى فهذا البيت بيتها ، وإن أرادت أن تتزوج بغيرى فذلك شأنها
ولن أقصر فى نفقة ولدينا ، كما تقدرها هى ، إلا أن يقعدنى العجز عن أدائها .
ثم إن صديقنا سلمنى قسيمة الطلاق وقال : والآن فأريك يا سيدتى ؟ ! . .
فلم أملك نفسى بعد الذى سمعت منه وبعد أن أمسكت بقسيمة الطلاق فى
يدى أن بكيت حتى علا بالبكاء صوتى . فلما عاودنى بعض هدوئى : قلت :
أشكرك ، والآن عد أنتى إلى القاهرة ، فإذا حدثتك نفسك يوماً أن تزورنا
كنت قد رويت فى أمرى ، فأخبرك بما يستقر عليه رأيى .

وانصرف الرجل وهو يقول : « أرجوك من الله التوفيق والسداد ! . . . » .
خلوت بعد انصرافه إلى نفسى فقرأت قسيمة الطلاق وأعدت قراءتها
وأخذت أفكر فيما يكون بعد أن بلغت غايتى ، على أنتى سرعان ما سألت
نفسى : أينما انتصر بهذا الطلاق ، أنا أم صديقتى ؟ لقد كنت أراها بينى وبين

زوجي . وهأنذا الآن نحيث نفسي فأصبحت وحدها معه ، في ثيابها أو
عازية كيوم ولدتها أمها ، ألا تفسأ لها فاتنة الرجال ! نعم هي التي انتصرت .
أما أنا فأصبحت وحيدة لا سند لي . أعيش من نفقة هذين الولدين
وبما اقتصدت . وهانت علىَّ عبرتي من جديد فأسلمت لعيني العنان ، وخشيت
أن يحضر طفلاي وأن يرياني على هذه الحال فدخلت غرفة نومي وأوصدت
بابها ، ودقت المرية الباب فناديتها من مضجعي : إني متعبة . وطلبت
إليها أن تدعني أسريح .

ولقد شعرت بنفسى متعبة مهلودة بالفعل ، ورأيت بعد قليل أنني عاجزة
عن التفكير ، وكأن ذهني خلا من كل ما يشغله ، وإن لم تطاوعني أعصابي
إلى الهدوء الذي أبتغيه ، فتناولت مسكناً أسرع بي إلى عالم النوم ! .

استيقظت صبح الغد وأنا أحسن حالا مما كنت : واستعدت حين صحت
ما دار بيني وبين صديقنا من حديث منذ أسبوع ، وذكرت ما رواه على
لسان مطلق من أنه لم يحب صديقتي ولا يحب غيري ، فخف على العباء
الذي أثقلني أمس ، حين تصورت أن هذه المرأة انتصرت على بطلائي من
زوجي ، وشعرت بأن هذا الرجل المسكين قد أصبح بعد تطليقه إياي في
عزلة تامة ، لا يؤنسه أحد ، ولا يؤنسه ولدها وهما بالإسكندرية معي .

ونخرجت من غرفتي ألقى الطفلين ، فلما قبلتهما ورأيتهما في صحتهما
ونضارتهما ازددت هدوءاً وطمأنينة ، وذكرت صديقات لي مات أزواجهن
وهن في ريعان شبابهن وتركوا لهن صبية ضعافاً فكرسن حياتهن لأبنائهن
ثم سعدن بهم إذ رأينهم يكبرون بعنايتهن ورعايتهن . أما وقد رزقني الله هذين

الصبيين الجميلين فأى سعادة غيرهما أبغى ! إن واجبي أن أكرس لهما حياتي ولا أفكر في شيء سواهما لأراهما يكبران أمام ناظري فيصبحان قتي وقتاة ملء العين ، ثم رجلا وامرأة يحملان عبء الحياة بأحسن وأسعد مما حملته .

وسكنت نفسي إلى هذا الخاطر فضاغت عنائتي بالصبيين وشغلت بإدخالهما المدرسة وعاهدت نفسي على أن أنقطع لهما ولعاوتهما في دروسهما وأن أنسى كل شيء فيهما . ففي ذلك هناء في وحسن أداء واجبي في الحياة ، وانقضت أيام وأنا على هذه الحال ، لا أكاد أفكر في أيهما ، بل لا أكاد أفكر في نفسي ، مؤمنة بأنهما أصبحا كل شيء في حياتي ، وبأن ما سواهما لم تبق له أية صلة بي .

وكان لذلك أثره الحسن في صحتي وطمانيتي . أذكر إذ ذاك يوماً جلست فيه إلى شاطئ البحر أرقب أمواجه ، فرت بخيالي صورة مطلقي وقد التقي بصديقتي ووقفا يتحدثان . لم ترعجني الصورة قط بل هزرت كئني وقلت في نفسي : « ليس ذلك شأني ، فهذا الرجل لم يبق زوجي ولم يبق لي أن أحاسبه ، لقد أصبح بطلاقي حراً كما أصبحت أنا بهذا الطلاق حرة ، وكما أستطيع إن شئت أن أتزوج وأن أختار السيرة التي أرضاها فهو كذلك حر في أن يختار لون الحياة الذي يرضيه ، وهذه المرأة حرة هي الأخرى ، إن صح أن التقيا يوماً فليفعلا ما يشاءان ، حسب سعادة بالطفلين ، ولغيري أن يبحث عن سعادته كما يحب ويهوى » .

وبعد أسبوعين رأيت صديقتنا يدخل عندي ويسألني بعد أن بادلتني التحية . « أما فكرت من جديد في استئناف حياتك مع زوجك . لقد

نقيته في انعادي منذ يومين فدعاني إليه وسألني : ألك في هذا الأمر رأى ؟
 ولا قلت له إنني لم أرك منذ أعطيتك قسيمة الطلاق . رجائي في زيارتك
 والتحدث إليك في الموضوع . وأدهشني هذا الكلام فقلت في حدة : « وهل
 ترائي كنت أعيب يوم طلبت الطلاق ، ذلك أمر لا رجعة فيه ولا محل
 للحديث عنه » . قال : « الأمر في ذلك لك : وقد توقع هو أنك ستجيبين
 كما أجبت الآن . أما وقد صح تقديره فإنه يستأذنك في أن يرى ولديه
 ولا يشك لحظة في أنك تأذنين » . وأجبت على الفور : « هذا حق ولن أحرمه
 منه . لكن لي شرطاً واحداً ، ذلك ألا يرايني ولا أراه ، فإذا فكر في المجيء
 ليراهما فليخطرني بموعد حضوره . وعند ذلك أدع له البيت ليلقي طفليه
 فيه » ! ! . قال صديقتنا : « أنا أشكرك بلسانه . وسيحضر في الأسبوع المقبل
 بأول قطار يغادر القاهرة يوم الجمعة ثم يعود إليها بآخر قطار في اليوم نفسه ! ! . »
 وانتقل صديقتنا بعد ذلك بالحديث يسألني ، وقد ذكرت له أنني لن
 أستأنف حياتي الزوجية مع مطلئي ، عما اعترمت أن أفعل بعد انقضاء
 عدتي . . ! قلت : « لا شيء . . كرسيت حياتي لهذين الطفلين اللذين رزقني
 الله بهما . وأكبرهما أرجو أن يساعدني على القيام بواجبهما على نحو يرضيني ،
 ويطمئن له قلبي ! ! . » قال صديقتنا : « فليعانك الله وليوفقك فيما تقصدين
 إليه » ! ! .

وفي يوم الجمعة الذي تلا هذا الحديث غادرت المنزل قبل موعد وصول
 قطار القاهرة إلى الإسكندرية ، وقلت للمربية ساعة خروجي : إنني سأناول
 غدائي في الخارج ، وذكرت لها أن والد الطفلين سيحضر ليراهما فلتبقي

معهما في البيت حين حضوره ، حتى تنقل إلى عند عودتي ما يدور بينه وبينهما من حديث . فلما عدت ساعة المغيب ذكرت لي أن الدكتور حضر بعد قليل من مغادرتي المنزل ، وأنه ما لبث حين رأى ولديه أن قبلهما وعانقهما طويلاً وعيناه مغروقتان ، وأنه دعاهما ودعاها للتزهر ولتناول الغداء في مطعم على شاطئ البحر ، وأن الصبيين كانا سعيدين بأبيهما كل السعادة ، وأنهم قضوا جميعاً يوماً من أسعد الأيام وأمتعها ، وأنه عاد معهم إلى المنزل ، فلما حان موعد سفره ودع الصبيين في تقبيل وعناق تأثرت المربية لهما غاية التأثير ، ثم أعطاهما ساعة خروجه هدية قيمة هي ثلاث ساعات ذهبية ، فلما سألته المربية عن الساعة الثالثة لمن تكون قال إنها لأُمهما ، ثم وعد أن يزورنا في مثل مواعده بعد أسبوعين . وقالت له بنتنا : ولم لا تزورنا كل أسبوع يا والدي ؟ فأجابها بأنه يكون أسعد الناس بذلك إذا أذنت والدتك به . وأخذت الساعات الثلاث وقلبتها في يدي فإذا هي هدية قيمة بالفعل ، وإذا الساعة التي خصني بها أجملها وأقيمها ، ولقد دهشت لهذا التصرف من جانبه ، فإله ومالي بعد أن طلقني تزولاً على إرادتي ! أو لو كان يميل إلى صديقتي ، أفأكانت أولى هي بهذه الهدية مني ؟ . إنها لم تنتصر إذن علي ، والموقف لا يزال في يدي .

وابتسمت لهذا الخاطر ، وجاء ولدائي قبل نومهما يقبلانني ويهديانني مساء الخير ، فلما قبلتهما وأذنت لهما بالانصراف إلى حجرة نومهما قالت ابنتي : « لم لا تأذين يا أماه لأبينا أن يزورنا كل أسبوع ، إنه ظريف ويحبنا ، لقد قضينا معه سحابة هذا النهار أسعد ما نكون ، ولعل هدية الساعات الثلاث

أعجبك ؟ » ، فقبلتها من جديد وقلت لها : « اذهبي إلى مخدعك وسيكون لي في الأمر رأى » .

وشعرت لساعتي بأننا لن نستطيع أن نفصل حقاً وهذان الطفلان بيننا ، وإذا أردت أن أنفصل عنه انفصالا حاسماً فيجب أن ينسياه لكنهما لا يزالان في حاجة إليه . على الأقل لتفقتهما . وليس بمعقول أن أكلفه هذه النفقة وأن أحرمه رؤيتهما ، ولست أشك في أنه سينفق عليهما كل ما أطلب منه ولو أرقه ذلك من أمره عسراً ! . .

وانقضى الأسبوعان وجاء الرجل من القاهرة يرى ولديه ، وقد تركت له البيت كما فعلت المرة الأولى ، فلما عدت إلى المنزل بعد انصرافه علمت أنه حمل إلى الولدين من الهدايا ما جعلهما يتصايحان ساعة دخولي ، يعرضان عليّ ما جاء به والدهما ، ويذكran كيف قضيا معه نهراً سعيداً ، وأعطيني المربية خطاباً منه فتحته فإذا فيه تحويل على البنك ، ورسالة يذكر فيها أنه آثر أن يحول هذا المبلغ الكبير دفعة واحدة ، حتى لا يبعث إلى بتحويلات شهرية ، وأنه يرغب إلى أن أحيطه علماً متى تقد هذا المبلغ ليعث إلى بتحويل جديد .

وأنار تصرفه هذا حيرتي . فأننا أعلم من حاله المالية مالا أشك معه في أنه يستدين الكثير من هذه المبالغ التي يبعث بها إلينا ، سواء تحويله اليوم ، أو تحويله حين سفرنا إلى أوروبا ، أو تحويله الأول ، هذا إلى جانب ما يتفق لحياته الخاصة ، أفلا يحملني ذلك على التفكير من جديد في الأمر حتى لا أشق عليه إلى هذا الحد ، ولا أحمله ما لا يطيق ؟ ! . .

وجاء صديقنا بعد أسبوع ، فذكرت له ما صنع . مطلقاً . ورجوته أن يبلغه أنني لا أريد إرهابه ، وأني أفضل أن نتفق على مبلغ شهري لنفقة الطفلين ، لأتني لا أقبل منه شيئاً لنفسى ، وأنا مصممة على ألا أعود إلى الحياة معه أبداً .

قال صديقنا : « أولاً تزالين تظنين أن له بصديقك علاقة ، أو أن له إليها ميلا ، أو أن شيئاً من ذلك كان ؟ . . . » .

قلت : « كلا . إني مطمئنة الآن كل الاطمئنان من هذه الناحية وإن لم تعد تعينى ، فلو أنه تزوج صديقتى غداً لما اهتر لذلك منى عصب ولا طرفت لى بسببه عين ! . . . » .

قال : « أما وقد زال ما كان قائماً بنفسك من هذه الناحية ، فما هذا التشبث السخيف بأن لا تعودى أنت ووالد ابنيك سركما الأولى ، فتجعمى بذلك أسرة تشتتين أنت اليوم شملها وتبددين سعادتها وهناءها ! . . » .

لم أملك نفسى حين سمعت ذلك منه أن ثارت كبريائى ، فقد أصاب كلامه عزى بطعنة أهاجت كرامتى ويجرح أدمى نفسى فصحت به :

« أو تحسبنى طفلة غريرة لا تعرف ما تريد ! وهل تظننى حلفت يوماً بصديقتى إلى حد أثار غيظى منها لعناية هذا الرجل بها ؟ . لقد كان الأمر بينى وبين زوجى أعمق من هذا . وإذا كنت قد حدثك عنها وذكرت لك أنني أراها بينى وبينه فلا أتى لم أرد ولن أريد أن أكشف عن مستور نفسى وحقيقة سرى ، فأرجوك يا صديقى وألح عليك ألا تعود إلى الكلام معى فيما ذكرت اليوم ، فلا طاقة لى بسماحه من أحد ، ولا طاقة لى بسماحه منك أنت خاصة ! » .

لست أدري كيف أفلتت هذه الجملة الأخيرة من بين شفتي . فلتقد خشيت بعد أن تلفظت بها أن يحملها صديقنا معنى بذاته . فعدت إلى هدوئي وقلت له : انتهي لوانقة بأنك أشد الناس حرصاً على شعوري وأكثر معرفة بما تنطوي عليه نفسي إزاء هذا الرجل . فلو أن غيرك قال ما قلت أنت خان على سماعة . أما وأنت تعرفني حق المعرفة وتعلم أنني لا أصدر في تصرفاتي عن طيش ولا عن نزق . فقد أثارني كلامك وجعلني أظنك تناسيت ما لا يجب أن تنساه .

ورحنا بعد ذلك إلى الحسني . وتناول كلامنا من الشئون ما لا شأن له بي . فلما انصرف صديقنا حمدت ثورتي أن جعلت العود إلى هذا الموضوع محالاً ! . .

وتوالت الأسابيع والشهور بعد ذلك وزادني تواليها اقتناعاً بأن المربية أقدر مني على العناية بالطفلين ومعاونتهما على استذكار دروسهما . لذلك بدأت أشعر بخلو حياتي وبدأ الملل يعاودني . كيف أملاً إذن أوقات فراغي ؟ . . لا شيء يستنفد الوقت ما تستنفده القراءة ! . لذا أكببت أقرأ ما لم أكن قرأت من أمهات كتب الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية . وما ترجم إلى هذه اللغات من أمهات الأدب في غيرها من الأمم . وأعيد ما كان موضع إعجابي مما قرأت من قبل . . وكثيراً ما كنت آخذ كتابي وأجلس إلى شاطئ البحر أستمع مقفلة العينين إلى صريف أمواجه المتكسرة على الشاطئ كما يستمع المخني إلى ألحان الموسيقى قبل أن يبدأ أدواره . فإذا امتلأت أجنحة الخيال فتحت كتابي وأخذت أقرأ فاستغرق في القراءة فتأخذني روائعها عن

كل ما حولي من ضجة الحياة وأحس أنني اندمجت مع المؤلف ومع أفكاره ومع أبطاله ، وأصبحت في جوه هو ، وأصبح الجو من حولي مسرحاً لهذه الأفكار ول هؤلاء الأبطال لا يعرف غيرها وغيرهم ولا يتحرك فيه شيء سواها وسواهم .

وطال بي ذلك زمناً استغرق أسابيع بل شهوراً . على أتى شعرت بعد هذا الزمن أنني في حاجة إلى أن أستجم وأستريح . وماكدت أقضي أياماً في راحتي واستجمامي حتى بدأ الشعور بالملال يعاودني . فكرت أنه لا بد من شيء آخر غير القراءة أطرد به هذا الملل وما يحره من سامة ، ودار بخاطري أن أستغني عن المربية وأن أقوم أنا بدورها ، لكنني أشفقت من هذه الأمانة وأبيت حملها بعد أن سبقت لي تجربتها ، واقتنعت بأن المربية أقدر مني على إجادتها . ماذا أصنع إذن لأملأ أوقات فراغي ؟

شغلت نفسي بما تشغل به كثيرات من الأمهات وقمن فبدأت أطرز لطفلي بعض ملابسهما ، لكنني سرعان ما برمت بهذا العمل وألقيته جانباً . فهو يشغل اليدين ويترك الذهن في حيرة فراغه ، وهو بعد ليس الإنتاج الذي يليق بمثلي وقد تعودت أن أبتاع للطفلين هذا النوع من الملابس الجميل الذي لا يكلف باهظ الثمن . فأى شيء أصنع يليق بي وملاً أوقات فراغي ؟ . بدأت أعبط هاتيك النسوة الفقيرات بائعات اللبن أو الخضراوات أو العائلات في المزارع والمصانع أو في المنازل ممن يستيقظن مع الفجر ليؤدين واجب الحياة ولا يشعرن بما أشعر به من ملال وسأم . وبدأت أعبط مربية أولادي إذ تنهض بعبء حياتها ويترينها وتعليمهما، وتولاني الأسف أن لم أتم دراستي

ليكونَ بَرمها في الموقف الدقيق الذي أقفه اليوم وسيلتي لعمل مشرعاً فراغ
وقتي . فلست أنا من طراز هاتيك النسوة أمثال صديقتي ممن يستغفرون أن
يقضين تهاذهن وجانباً غير قليل من ليلهن في التزين وفي فتنة الرجال استجداء
لعصفتهم واستغلالاً بحمايتهم . أما وذلك شأني فما عساي أصنع لأملأ
أوقات فراغي ؟ . . .

شغلت بهذا الأمر أيما شغل . وزادني اشتغالا به ما أعلمه عن الناس
وألستهم الحداد يسلقين بها امرأة مثلي تعيش منفردة مع طفلين في حي ناء
من أحياء الإسكندرية . ولئن كانت أحاديث الناس لا تعينني فأبني مع ذلك
لجد حريصة على مكاتبي وعلى سمعتي وعلى ألا يشمت الشامتون بي .
وجاء صديقنا يوماً فألّفاني في هذه الحال القاتلة كاسفة البال :
فألّني : ما بي ؟ . . .

قلت : لا شيء . قال : إن وجهك ينم عن شدة حيرتك وقلقك . فهل
جد ما يزعجك ؟ . . .

قلت : كلا . ولكنه الفراغ يقتلني . لقد كنت قبل طلاق أناصب زوجي
الخصومة وأناضل أوهاماً تقوم برأسي فكان لي من هذا النضال ما يشغل وقتي
كله ، أما اليوم فلم يبق لي في الحياة شاغل ، ولست أطيق هذا الفراغ فهو
يأخذ بخنأتي : دعك ما يتيح للناس من فرصة الرثرة على والتندر في ذلك
لا يعينني .

قال صديقنا : أما فكرت في العود إلى القاهرة تستأنفين فيها حياتك
الماضية . إن لك بها لأصدقاء يسره أن يروحوا عنك ويذهبوا ملاكك وسأمتك .

ولو أنك عدت إليها لسرني أن أكون في مقدمة هؤلاء ! . .

قلت : لم تعد هذه الحياة تروقني : لقد اتخذتها يوماً وسيلة لغاية هي أن أثير غيرة زوجي ليعود إلى حظيرتي : أما أن أجعلها حياتي اليومية وأن أطلق بذلك ألسنة الناس في غير موجب . فذلك حمق لا أرضاه .

قال صديقنا : لا أريد أن أحدثك من جديد في استئناف حياتك الزوجية الأولى بعد الذي سمعته منك في شأنها . فلم لا تتزوجين رجلاً آخر تبين معه شيئاً جديداً وحياة جديدة ؟ . .

فأطرقت طويلاً ثم قلت : ذلك أمر لم أفكر بعد فيه . أنا بطبيعة الحال حرة في أن أفعل إن شئت ، لكنني . . لم أفكر في الأمر .

والواقع أن هذه الفكرة كانت قد بدأت بالفعل تداعبني ، وأنتي كـ - أفكر بالفعل في صديقنا : لكن اعتراضات قوية ردتني عن هذا التفكير : أولاً ما دأبت صديقتي على إذاعته في جميع أوساطي قبل زمن طويل من طلاق من أتى أريد أن يطلقني زوجي لأتزوج من صديقنا ، فلو أن هذا الزواج تم اليوم لصدق الناس ما كانت تذيبه ، ولقال الناس في ما شاءت لهم أهواؤهم فصدقهم الأمر الواقع .

وثاني هذه الاعتبارات وأهمها في نظري أنني أريد أن أنسى ولدي أباهما حتى يكون انفصالنا حاسماً ، ولن يكون ذلك إلا إذا تبناهما من أتزوجه فتسميا باسمه . وليس يسيراً أن يقبل رجل هذه التبعة أمام نفسه وأمام الناس .

ولما ذكرت لصديقنا أنني لم أفكر في أمر الزواج بعد قال : لعلك تفكرين فيه ثم نعود إلى تقليبه معاً ، وساعد من القاهرة في الأسبوع المقبل ! . .

مذا: ترانى أقول له يوم يعود ؟ قضيت طيلة الأسبوع ألتمس جواباً لهذا
السؤال ولم أكن قد اهتمت إلى جواب حين عاد . فلما فاتحنى فى الموضوع
قلت له : لقد فكرت فى الأمر فلم يهمنى تفكيرى إلى رأى . فهل لى أن
ألتمس هذا الرأى عندك ؟

فكث طويلاً صامتاً ثم قال : لم أكن أحسب الأمر دقيقاً بهذا المقدار .
فلم يعهد الناس أن تقول سيدة إنها تريد أن تتزوج . وإنما عهدهم أن يخطب
الرجل السيدة فتقبل أو تافى .

قلت : أرايت ! . . هانتذا وضعت يدك على جوهر الأمر وله . أما ولم
يخطبنى حتى اليوم أحد إلى نفسه . فلا يجوز لى أن أفكر فيما أريد وما لأريد
وأطرق الرجل طويلاً ثم رفع رأسه وقال : أصارك بأتى لست راضياً
عن هذه الحياة التى تحينها . سواء رضيت بها أنت أم يرمت بها . . فأجيبنى
بصراحة .- أترضينى زوجاً إذا أنا خطبتك إلى نفسى .

قلت : وما عسى أن تقول صديقتى يومئذ ؟ . . إتنى منعك من زواجها .
وبذلت جهدى ليطلقنى زوجى حتى تتزوجنى .

قال : دعيك من صديقتك وما يمكن أن تقول . وإذا كان هذا كل
اعتراضك فما أهونه ، أنت اليوم امرأة حرة من عدة أشهر . فإذا تزوجت دل
ذلك على أنك سيدة عاقلة . وأنتك تؤثرين الحياة الكريمة على هذه الحياة
الماجنة التى تحياها صديقتك منذ سنين .

قلت : إذن فاسمع . إتنى أرحب بخطبتك وأشكرك عليها إذا قبلت لى
شرطاً لا أفكر فى أن أتزوج من لا يقبله . إتنى أريد أن أحسم كل صلة بينى

وبين مطلقى . ولا يكون ذلك ما بقى هذان الطفلان منسوين له . فلا بد أن يتبناهما من أتروجه وأن يتسميا باسمه . فإن قبلت أنت ذلك قبلت الزواج منك .

وجم الرجل وتولته الدهشة لهذا الذى طلبت إليه . وبعد أن فكر فى الأمر ملياً قال : لك ما تطلين ، فالأمر فى ذلك أمرك أنت . وإذا وجه الناس فيه لوماً فسيوجهونه إليك ، على أننى أوتر ألا نعجل فى ذلك . وألا نعجل فى إعلان زواجنا حتى لا يعرفه مطلقك ، فإذا انقضت على زواجنا بضعة أشهر انتقلت إلى بيتى بالقاهرة ، وديرنا أمر الطفلين فى هذه الأثناء . عند ذلك أجبت : إذن فأنت وما تريد ! . .

ولم يقض هذا المساء حتى كان قد أحضر المأذون فأطلعه على وثيقة الطلاق فعقد زواجنا ، وانهت بذلك حيرتى وقلقى إذ أصبحت فى عصمة رجل أثق به وأطمئن إليه ، وله إلى ذلك الفضل فى أنه هو الذى عرض نفسه لينقذنى من هذه الحيرة وهذا القلق ، برغم ما يمكن أن يتهمه الناس به من أنه خان عهد الوفاء لصديقه ، وخفر ذمته وسلبه زوجه .

وعاد الرجل الغداة إلى القاهرة وكان شيئاً لم يحدث ، وأخذ يردد علينا كل أسبوع متحاشياً يوم يحىء مطلقى يرى فيه ولديه ، وانقضت الأيام والأسابيع والأشهر بعد ذلك وقد سكنت نفسى وهذا بالى واطمأننت إلى الحياة ولم يعد يشغلنى من أمرها إلا أن ندبر كيف ننسب الطفلين إلى زوجى . ولم يكن تدبير هذا الأمر مستطاعاً قبل أن يعلم مطلقى بزواجنا ، وقبل أن نقطع صلته على وجه حاسم بنا .

وبقيت أنتزول من مطلقى ما قرره لنا من نفقة حتى عدت إلى التدهرة .
وحتى علم بأننى تزوجت صديقنا . هنالك جن جنونه وأيقن أننى لم أفسد
زواج صديقتى بصديقنا إلا لأتوجه أنا . فأنا إذن كنت أحب الرجل الذى
تزوجته اليوم إذ كنت فى عصمته هو . وأنا لم أغاضبه ولم أناصبه العداوة إلا
لهذا السبب . وأن صديقنا حرضنى على ذلك وأعانتى عليه . كما حرضنى على
هجرية الزوجية والفرار إلى الإسكندرية . ولم يترك مطلقى وسطاً من الأساط
التي يغشاها إلا طعن فيها على صديقنا أشد الطعن . ورماه بالخيانة والغدر .
وبكل منقصة تنكرها الرجولة وتأبأها الكرامة ! . .

ولم يقف أمره عند هذا الحد . إنه يعلم تعلقى بولدينا وحي لهما حب العباد .
لا حب الأم . لذا بعث إلى من يخبرنى أننى لم أعد أصلح للقيام عليهما
بعد أن تزوجت وأنه يطلب أن أسلمه إياهما بالحنى . وإلا قاضانى لضمهما
إليه . وطلبت إلى رسوله أن يبلغه أننى لا أنزال أطمع منه فيما عودته من عطف
ونيل . وألا يحرم الولدين من حنان أمهما وقد تعوداه . وأننى سأبعث بهما
إليه يوماً من كل أسبوع يقضيان سحابة نهارهما عنده . وتوسلت إلى الرسول
كى يقف مدافعاً عني عند مطلقى وقلت له : « بالله عليك ! أكان يرضيك أن
أبقى بلا زوج فتكثر قالة الناس في وتجرحنى بالباطل ! لقد نذرت نفسى
غداة طلاقى لهذين الطفلين أريهما ثم لا أتزوج ما عاشا . لكننى رأيت
نفسى بعد شهر عاجزة عن الوفاء بنذرى . معرضة لما تتعرض له امرأة فى مثل
موقفى من سوء القالة وإثم الظن ، ولولا أن عرض صديقنا نفسه ليقتدبنى مما كنت
معرضة له لبقيت بنهشنى الناهشون ويدسون إلى قلبى سمومهم حتى أموت

كمداً ، لكن هذا الرجل كان صديقاً لمطلقى قبل أن أعرفه ، ثم كان مطلقى سبب التعارف بيننا وتوثيق صلتنا ، إذ قدمه لى على أنه أكثر أصدقائه وفاء ومروءة . هذا الرجل أدرك حرج مركزى فقدم نفسه منقذاً لى فتشبثت باليد التى مدّها إلى إبقاء على سمعة طاهرة ما تعرضت يوماً لكلمة سوء ، أليس حقاً على مطلقى أن يحمّد هذا الصنيع ؟ أم يكون جزاء ولدى أن يحرمنا من حنان أمهما وأن يعيشا مع مرييتهما يتيمين ؟ . .

« ناشدتك المروءة يا سيدى إلا ما رجعت إلى صاحبك وأقنعت به أن ولدينا عندى أعز من عيني ، بل أعز من حياتى ، وأنتى سأتى مدينة له بهذه الحياة لقاء تركهما فى أحضان عنايتى ، أنا أم يا سيدى فلا تكن علىّ فى حرمانى من حبة قلبى ، بل كن لى ولك شكرى وثنائى ، وادع الله معى أن يوفقك فيما أرفع إليك أكف الضراعة فيه » ! . .

كانت نبرات صوتى فى أثناء هذا الحديث تصور ما ينبض به قلبى . وكنت فى ختامه قد رفعت كفى المرتعشتين ضارعة إلى رسول مطلقى ليكون عونى . فلما أتممت كلامى ألقىت رأسى بين ذراعى أخفى دموعى التى انهملت وفضحتها بكائى . . ثم رفعت رأسى فإذا الرجل كله التأثير كاد يبكى لبكائى ، فلما استرجعنا بعض سكينتنا قال :

« ليتنى أستطيع فى الأمر شيئاً يا سيدتى ، ولو أنك رأيت ثورة مطلقك لعذرتنى ، ولو أنتى عرفت قوة حجبتك لما قبلت رسالته ! . . صحيح أنه حذرني من سحر حديثك ، وحديثك ساحر لا ريب . . . ولست أدري والأمر ما أسمع وأرى كيف طابت نفسه بتطليقك ، على أنه ذكر لى أنك لو كنت

تزوجت شخصاً غير هذا الذى خان عهده : وأبعدك عنه لما ثار بك هذه الثورة . مع هذا سأكون رسولك إليه . كما كنت رسوله إليك . وأرجو أن أوفق معه إلى ما يرضيك برغم ما فى ثورته من عناد وعنق ! . . . » .

انصرف هذا الرسول ولم يعد إلى . وحسبت أنه وفق فى إقناع مطلق بما أردت لأننى لم أسمع عن هذا الموضوع حديثاً أسابيع متعاقبة . بل لقد بعث إلى مطلق بنفقة الطفلين بعد ذلك بما ثبت عندى النفس بأنه أجاب رغبتي . على أنى علمت أنه سافر بعد ذلك إلى الإسكندرية لغير سبب أفهمه . ولم أعن نفسي بالتماس العلة لهذا السفر ، ولم أتتبع خطواته فيه . ولم يدر بخاطري أن له بحياتي هناك أية صلة ، وكان من أثر سكوته الظاهر عني أن استراح ضميري إذ قدرت أن أمر الطفلين انتهى إلى ما أريد ، وإن اضطررت ما حدث للتنازل عن مطالبة زوجي بأن يتبناهما حتى لا يثور الأب من جديد ، لإهدار أبوته فيعود إلى المطالبة بضمهما إليه .

وإننى فى مخدعي ذات صباح بعد هذه الأسابيع إذ حمل إلى المخادم إعلاناً قال إن أحد المحضرين جاء به واستمضاه على أصله . وقرأت الإعلان فإذا هو من مطلق يطلبني به أمام المحكمة الشرعية لسماع الحكم بضم ولديه إليه . لأننى تزوجت وأصبحت لا أؤمن عليهما . . عند ذلك طاش صوابي وتخيل إلى أن انتزاع الصبيين منى معناه انتزاع حياتي من بين جنبي . ولعنت الساعة التي قبلت فيها أن أتزوج من صديقتنا ، وحسبت أنى إذا انفصلت عنه بالطلاق حلت هذه العقدة واستبقيت ولدى فى أحضانى . . لكن ماذا يقول الناس يومئذ عني ؟ وبالشهامة صديقتي إن حدث مثل هذا الأمر . إنها يومئذ

لندق الطبول ونقيم الأفراح وتنادى بأن القدر انتقم لها من مؤامري عليها .
رباه ماذا أفعل وأى سبيل أسلك ؟!

وإني لني حيرتي إذ أقبل صديقتنا - زوجي - فناولته الإعلان فقرأه ثم رده
إليّ ، وبعد هنيهة قال : « ياله من ذنبي ! . . أبحسب قاضياً يحكم بما يطلب
ليقيم الطفلان في بيت لا يرعاها فيه أحد ؟! سأوكل عنك أرفع المحامين
الشرعيين يسبقونه في الحكمة بالسبهم الخداد ولا يدعون له أديماً صحيحاً
حتى ينزقوه إرباً إرباً ، وسيعلم يوم يحكم القضاء برفض دعواه ومضاعفة نفقة
الطفلين أنه اختار أسوأ ميدان يمكن أن ينازلك فيه ! . . . »

وبعد الظهر أخذ الإعلان وذهب به إلى محام شرعي من أصدقائه وكله
عني ، ويومئذ أبقت أتي عدت مع مطلتي إلى خصومة لا تنفع فيها مغاضبة
ولا ملاينة ، لأنها انتقلت إلى عناد عنيف بين زوجي القديم وزوجي الجديد .
ولم يخطيء ظني ، فقد شغل زوجي بهذه المسألة إلى غير حد ، حتى لقد
كان يذهب إلى المحامي بعد الظهر من كل يوم ، ثم يجيء إليّ يقص ما دار
بينهما ويذكر أن المحامي واثق من كسب الدعوى لا محالة .

مع هذا كانت المخاوف تساورني ، أو لو قضى لمطلتي بضم ولديها فاذا
عساي أفعل ؟ . . أو سلمهما له في سر وإذعان لأتبي إن لم أفعل تسلمهما
بقوة القانون ؟ . . لكن حياتي تصبح بعد ذلك جحيماً لا يطاق ، ويعلم الله
بعد ذلك ما يكون بيني وبين زوجي في حياتنا الحاضرة ! . .

وبدأت أعصابي تضطرب لكثرة تفكيرى في هذا الأمر ، وأدى ذلك بي
إلى صنع ما كنت أسخر منه حين يصنعه غيرى ، بدأت أزور الذين يقرأون

الكف وينظرون في فئجان القهوة لعلهم يطمئنوني على مصير الولدين .
وقيل لي إن شيخاً من أولى البركة يستطيع بتعاونه أن يكفل لي كسب قضيتي
فذهبت إليه من غير أن أعلم زوجي . وكنت كلما رأيت الطفلين أمامي بكيت
كأنما أصبحا يتيمين . وكنت أختلف مع زوجي وأغاضبه لسبب ولغير سبب .
وكان هويدرك علة اضطرابي وما أنا فيه فلا يغضبه غضبي بل يبذل كل جهده
ليهن علي الأمر ويرد إلي الطمأنينة .

وتأجلت القضية غير مرة بطلب محامي . ثم جاءت جلسة المرافعة فيها
فأردت حضورها ، فألح علي زوجي ألا أفعل مخافة أن تصدر مني كلمة من
غير قصد تكون سبباً في ضياع حقنا . وترافع المحاميان في الدعوى ، وقالوا في ،
وفي زوجي : وفي مطلق ما قال مالك في الخمر . وحجزت القضية بعد ذلك
أسبوعاً للحكم فازددت اضطراباً . لقد أفهمني زوجي أن دعوى مطلق
سرفض في الجلسة وفي وجهه : فما هذا التأجيل ! .

وقضيت الأسبوع كاسفة البال كثيرة التفكير : فلن يتغير شيء في حياتي
إذا رفضت المحكمة طلب مطلق ، أما إذا حكمت له فالويل لي !

وجاء موعد النطق بالحكم فإذا هوي يقضي بضم الولدين إلي أبيهما . وقعت
الواقعة إذن وأقر القضاء ما وجه إلي وإلى زوجي من مطاعن . قال زوجي
حين رأى جزعي وبكائي : « لا تجزعي فسنستأنف الحكم . وأمل المحامي في
الاستئناف كبير » ! . . قلت : « وقد كان أمله كبيراً عندما تسلم الإعلان
الأول ، وما نحن أولاء خسرنا القضية في الجولة الأولى ، ولا أريد بحال أن
نغامر أمام الاستئناف فنخسرها مرة أخرى ، إنني أريد أن أرى مطلق

بنفسى ، وأنا واثقة من مروته وطيبة قلبه . . . قال : « الأمر لك . فاصنعى ما تشائين ! لكن الاستئناف يجب أن يرفع بعد أن أصبحت أنا هدفاً لمطاعن لا يمكن أن أقبلها » ! . .

وأعلننى مطلقاً بالحكم ، وكان مشمولاً بالنفاذ المعجل ، وقال فى الإعلان : إننى إن لم أسلمه الطفلين لضمهما إليه فسيخذ إجراءات التنفيذ . قلت فى نفسى : أصبح الأمر يقتضى الحكمة وحسن الحيلة ! وهبى ذهبت إليه بنفسى فأبى أن يقابلنى ، أو قابلنى فى جفاء وأصر على تنفيذ الحكم ! أليس خيراً أن أبعث إليه رسوله الذى خاطبنى فى أمر الولدين ، والذى تأثر بحديثى وكاد يبكى لبكائى ؟ !

وبعثت إلى هذا الرسول أرجوه مقابلتى ، فلما حضر عندى قلت له : « لقد حسبت سفارتك عنى أقنعت مطلقاً بالعدول عن ضم ولديه ، وما هو ذا قاضى فى أمرهما ، وحكم له القضاء بضمهما ورضيت بذلك كرامته ، فأطمع منك مرة أخرى فى المرافعة عنده نيابة عنى ؟ أرجوك أن تؤكد له أننى لم أكن أريد السير فى مخاصمته ، وأن زوجى هو الذى اندفع فوكل محامياً عنى لأن عريضة الدعوى مسته فى كرامته وإيائه ، وأن تذكر له أننى طوع إرادته فى كل ما يريد إذا هو ترك الطفلين يكبران بعينى فى رعايتى وحنانى . إنه يعلم أنه قاتلى لا محالة إذا انتزعهما منى ، فإذا قدر لى أن أعيش قضيت ما بئى من أيامى شقية بائسة ، فإن أرضى ذلك مروته ورحمته وما عودنى طول حياى معه من بر وعطف فذلك شأنه وذنبى فى رقبته ، وإن غلبه ما أعرف من بره فترك لى الطفلين ، فأنا رهن إشارته ، إن شاء أن يطلقنى زوجى فله



وہ آیت اُن یحییٰ ماما، حسین پوتہ میں سے تھی۔

ما يشاء ، وإن أراد أن أهجر القاهرة إلى أى مكان يختاره فأننا طوع إرادته .
 إنتى أقبل كل شىء ما بقى الولدان فى أحضان عنايتى وحنانى . إنتى أم يا سيدى
 فارحموا أمومتى ، ارحموا هذه العاطفة التى أودع الله تكويننا معشر الأمهات
 وجعل منها نور أعيننا وسبب حياتنا . ارحموني فإنتى اليوم على حافة اليأس ،
 فإن فعلوا شكرتكم ، أو يكون قضاء الله بينى وبينكم » ! .

وإنى لأحدثه وعيناي تسحان بالدمع إذا الصبيان يدخلان علينا
 ولا يكادان يريان ما أنا فيه حتى يرتيمان على ييكيان وهما يقولان : « نحن
 قدأؤك يا أماه » . وبكى الرسول ليكائنا ، فلما هدأت ثورتنا قال : « لك على
 أن أكون عند مطلقك رسول هذين الصبيين قبل أن أكون رسول أمهما ،
 فإذا أحوج الأمر فسأطلب إليه أن يدعوها ليسألها أبيضان معك أو يعيشان
 معه ، والله يوفقنى لما يرضاه وترضيه يا سيدتى » ! .

وانصرف الرجل بعد أن شكرته فى توصل تنطق به دموعى أبلغ مما ينطق
 به لسانى ، ولم يبطئ الرجل على غير ثلاثة أيام ثم عاد إلى مهمل الوجه يقول :
 « بشراك يا سيدتى ! لقد نجحت سفارتى عنك كل النجاح » ، ثم أخرج
 الرجل من جيبه ورقة دفعها إلى وقال : « وهذا هو الحكم الذى صدر لمطلقك
 بضم ولديه إليه وقد كتب عليه بخطه وتوقيعه بالتنازل عنه لمصلحتك وبقبوله
 إبقاء الصبيين فى رعايتك . »

ولقد كدت أطير فرحاً حين تناولت منه صورة الحكم وقرأت تنازل مطلق
 عليها ، وكدت لولا الحياء أن أقبل الرسول ، ثم إنتى شكرته من أعماق قلبى
 وسألته : « وفيم كان انقطاعك عنى كل هذه الأيام الثلاثة ؟ أترى مطلقى لم

يقتنع لأول ما حدثته ؟ « وتردد الرجل وطلب مني إعفائه من الجواب عن
سؤالي . فزادني ذلك شوقاً لمعرفة ما كان وإلحاحاً في السؤال عنه . فكان
جوابه : « لم يكن انقطاعي هذه الأيام الثلاثة . لأن الدكتور أبي أو ترود
منذ اليوم الأول . فقد ذكرت له رسالتك بكلماتها فدفرت عيناه الدمع وقال :
« مسكينة هذه المرأة ! لولا غرورها وغيبتها لما جرت على نفسها وعلى
ولدينا كل هذا البلاء . هي تعلم . أنني أحببتها ولا أزال أحبها . لكنها لم تطق
إلى جانب محبتي إياها أى عاطفة من جانبي لغيرها : ولا عاطفة الصداقة .
ولا عاطفة المروءة . وإني ليعز على أن تتألم وأن أكون أنا سبب ألمها . ولست
أريد منها شيئاً قط . لتبقى مع زوجها الخائن ليمتعها الله بحياتها وحياته .
وتحفظ بالولدين فلن أحرمها منهما وأنا أعلم أنها من دونهما لن تطيق الحياة .
ومد مطلقك يده إلى مكتبه يريد أن يخرج الحكم منه ليكتب عليه بالتنازل .
وإنه ليجر درج المكتب إذ دخلت علينا صديقك ورأتني . وإذا كانت قد
سمعت حديثي إليه دفاعاً عنك قبل أن يرفع الدعوى فقد أدركت أنني جئت
إليه بسفارة منك . لذلك صاحت به وى : « ماذا تفعلان ؟ ! » . . وقص
عليها مطلقك ما رويت له من حديثك فقالت : « يا للفاجرة ؟ ! » . . أنفست
ما صنعت معك كل هذه السنين ؟ لقد غاضبتك برغم إكرامك إياها لغير
شيء إلا لغيرتها مني غيرة حمقاء . وقد فرت منك إلى الإسكندرية . فلما
أردتها على أن ترجع إليك أبت منك هذه الكرامة . مع ذلك بالغت أنت في
إكرامها وبعثت بها وبولديها إلى أوروبا ، وأرادت المصادقة أن أكون وإياها
على باخرة واحدة ، ولو أنك رأيتهما إذ ذاك وكيف أدت بها الغيرة إلى حديث

السوء عني مع مسافرة فرنسية كانت معنا ونقلت إلى أقوالها لأيقنت أنها أصيبت في عقلها ! فقد أنكرت أنها صديقتي وذكرت لهذه الفرنسية أن أصدقائي يسموني (الأرملة الطروب) ، فلما عادت لم تعرف لك بالفضل ، بل ألحت عليك في أن تطلقها ، فلما طلقها تزوجت هذا الوغد الذي خانك وخفر ذمة صداقتك ، أهي هذه المرأة التي لا زال حبها يسيل دموعك ، وينيلها كل برك وعطفك ؟ ! . » .

واستطرد الرسول بعد ذلك يقول : « هنالك رد مطلقك درج مكتبه وأقله وقال : « بالله عليك يا أخي إلا ما تركني أفكر في الأمر سحابة هذه الليلة ! . . » فلما عدت إليه الغداة ألقيت صديقتك عنده ، وقد أخذت لدخول عليهما وظهر عليها بعض الارتباك دليلا على أنها كانت تتكلم في موضوعنا ، عند ذلك قلت موجهاً الكلام إليها ، وكأنها معي في الحجرة وحدها . . » حنانيك يا سيدتي ورفقا بهذين الصغيرين ! . . إنك أم وتقديرين حاجة الصغير إلى حنان أمه ، إنني لا أخطب الدكتور باسم مطلقته ، وإنما أخطبه باسم ولديه ، باسم هذين العصفورين اللذين لا يزالان في حاجة إلى دفء هذا الصدر وعطفه ، صدر الأم الحنون التي ترى فيهما روحها وحياتها ، فكري في الأمر يا سيدتي من هذه الناحية وانسى المرأة التي تكون قد أساءت لك . انسى غريمتك التي أثرت غيرتها وأثارت غيبتك واذكري أبناءك أنت ! أفتظنين أن يحرموا من حنانك ثم تطمئنين عليهما ، واسمحي لي بعبارة قد تريحها قاسية : أولوخيرت لا قلل الله بين أن تفقدى جمالك هذا الفاتن أو تفقدى أبناءك فأى النكبتين تختارين ؟ . . أرجوك يا سيدتي أن

تكوني مع الصغيرين لا عليهما فهما لم يسيئا إليك إن كانت قد بدرت من أمهما إليك مساء . . ثم إنني توجهت بالكلام إلى مطلقك وقلت له : « وأنت يا صديقي ! أتسيغ رحمتك أم يسيغ عدلك أن يتحمل هذان الصغيران وزر صديقك وخيائنه عهدك ! إنك لن تستطيع أن تقطع لهما وعملك يشغل نهارك وبعض ليلك . وليس لك أم تحنو عليهما حنو أمهما . وقد أنصفك القضاء وحكم لك . وهذه مطلقتك لا تطمع إلا في مروءتك وكرمك ونبلك . أفردني إلى الصغيرين وإليها خائبا ؟ حاشاك أن تفعل ! » . فنظرت إلى صديقك ملء عينها اللاتنتين وقالت : « ما أرى إلا أن حديث هذه المرأة سحرك كما سحر غيرك ، وقد أدليت بحجتي وأدليت أنت بحجتي . فلتنصرف بسلام ولتترك الأمر لصاحبه . »

قال مطلقك : « فعد إلى يا أخي غداً نتناول الغداء معاً . وعندها أقول لك كلمتي الحاسمة ! . . » وانصرفت وانصرفت صديقك . فلما دخلت عليه في موعد الطعام سلمني صورة الحكم وعليها تنازله كما سلمتك إياها ، فلما قرأتها وشكرته قال : « لا حيلة لي في ذلك يا صديقي . فأننا لا أملك إغضابها وأنا لا أزال أحبها ، وبذلك انتهى الكلام بيننا في هذا الأمر ! » . فلما أتم الرسول حديثه قلب له : « إنني أكرر شكرى لك يا سيدى من أعماق قلبي ، ولست أدري كيف أستطيع أن أجزيك بما صنعت . فالله يتولى جزاءك » .

وودعت الرجل إلى الباب حين انصرافه أكرر له عبارات الشكر . فوقف قبل أن ينحط إلى الخارج وقال : « لا تشكريني يا سيدى بل اشكرى

مطلقك . اشكرى هذا الرجل ذا القلب الكبير الذى لا يعرف الحق
ولا القسوة . ولو اعتقدت أنك تستطيعين لأشرت بأن تذهبي إليه بنفسك
وتبذلي نه خالص الشكر على سمو نفسه وعظيم مروءته » .

وفاض بي السرور حين رأيت نفسى وحيدة فى غرفتى فارتفع صوتى
بالغناء ، وإننى لكذلك إذ دخل على زوجى فجأة وسألنى ما لى ؟ فأعطيته
صورة الحكم فقرأ التنازل الذى عليها ثم قال : « لم يبق إذن للاستئناف
موضع ، ولم يعد فى مقدورى أن أنتقم من هذا الرجل الذى أساء إلى
بلسان محاميه شراسة ! » . قلت : « لا عليك يا عزيزى ، لقد كسبنا
الدعوى من غير أن نستأنفها والخاسر اليوم هما المحاميان ، فلم يبق لمحامينا
أن يمزق أديم مطلقى ، ولم يبق لمحاميه أن يمزق أديمنا ، فكفانا ما كان من
ذلك أمام المحكمة الابتدائية . ولنحتفل اليوم بأن الولدين ظلا فى أحضاننا ،
فاليوم عندنا هو خير عيد مر بى فى حياتى . »

وأسلمت نفسى بعد هذا اليوم إلى فيض من الغبطة أعتاض به عن
قسوة الأيام التى مرت بى منذ بدأ الحديث فى فصل ولدى غنى ، وكذلك خلا
بالى وغمرتى من الحياة نعمة أنستنى كل ما مر بى من متاعها ، وما أيسر
ما ينسى الإنسان البأساء والضراء إذا مسته نعمة لم يكن يتوقعها ! . .

وأقبل الصبيان فأخذت أقبلهما كأنهما كانا فى سفر طويل ثم عادا
اليوم منه ، أو كأنما كنت فقدتهما ثم لقيتهما ، وشعر الصبيان ، برغم عبرات
جادت بها عينائى ، أننى فرحة مستبشرة فغمرانى بقبلاهما وأمسكا يدي
يعبان فى نشوة وطرب ، ويدعوانى بأعذب الأسماء التى تمر بخاطرهما .

وكذلك عمت البيت كله نشوة لم تكن المربية أقلنا غبطة بها واشتراكاً فيها .
 ومرت الأيام وهذه الغبطة تملأ البيت بشراً وجوراً . وأنا لا أفكر في
 شيء إلا فيما غمرنا من نعمة الرضا ، وأحسب أن أيام الحميم قد ابتلعها الهم في
 جوفه ، وأن المستقبل كله سيكون معطراً بشذا السعادة . بعد أن بدأت
 أزهيره تفتح عن الأمل الباسم .

الفصل التاسع

لم يكن لي بد من أن أشكر مطلقى على ما أسدى إلي من بد وطوق عنى به من كريم مروءته ونبله . ولم أكن أستطيع أن أذهب إليه بنفسي وأنا في عصمة صديقنا ، وأنا معرضة إن فعلت أن ألقى عنده صديقتي فأضطرب للقرار من وجهها فلا يحمد الرجل أدبى وأنا لا أملك في هذه الحال إلا القرار . لهذا رأيت أن يكون ولدانا رسولى إليه عني وعن نفسيهما . فلما كان الموعد الذى يذهبان إليه فيه كل أسبوع علمت ابنتى ما تقول لأبيها وجعلتها تكرره حتى حفظته عن ظهر قلبها . فلما عاد الصبيان من عند أبيهما ذكرت لي ابنتى أن أباها بلغ منه التأثير غاية حين قبلت يده وقالت له : « إن والدنى تشكر لك برك ومروءتك من أعماق قلبها » . وأنه ازداد تأثراً حين قبلت هى وقبل أنحوها يديه وقال له ممأ : « ونحن كلانا نشكر حنانك وعطفك ! » . فقد أجلسهما عند ذلك إلى جانبه وأوسعهما تقييلاً ولم يستطع وعبراته تهمل من عينيه أن يقول كلمة واحدة .

تعاقت الأيام بعد ذلك وأنا في غبطة بما ظفرت به من بقاء طفلى في كنفى وتحت جناحى ، فلقد كنت أراهما نهارى ، فإذا جاء موعد نومهما ذهبت إلى غرفتهما أتحنسهما بيدي أريد أن أطمئن أطمئناً

مادياً إلى أنهما يجانبي وتحت سقفي ، كأنما كنت أخشى أن يختطفهما
أثم فيحرمني متاع عيشي وموجب حياتي .

وفعل الزمن فعله فهدأت بمرور الأسابيع نفسي وعدت سابق سيرتي .
لكن الزمن لا يرضيه أن يبق مطمئن في طمأنينته ولا سعيد في سعادته .
فقد عاد الصبيان من عند أبيهما يوماً فذكرا أنهما رأيا هناك صديقتي ومعها
كبرى بناتها ، وأنها نظرت إليهما وقالت - توجه الكلام إلى أبيهما : « ما شاء
الله ! . . لقد كبر الصبيان وترعرا » ! . . لقد انتفض جسمي كله حين
سمعت ما ذكرا . أكان ذلك لأتني خشيت أن تحسدهما عيناها الجميلتان ،
أم أن وجودها مع ابنتها عند مطلق أثار نفسي وحرك ما كاد يندمل من شجوني ؟ ..
لست أدري ، لكن عاطفة الشكر لمطلق بدأت من هذه اللحظة تضطرب في
نفسي . وبدأت أشعر بأنني لم أخلق لأكون يوماً على وفاق معه .

وأخذ ذهني يفتق من السبات المسعد الذي كان قد استراح إليه ،
وجعلني أستعيد ماضي حياتنا وآخر أحاديثه عني للرسول الذي كان سفره
إليّ وسفيري إليه . . ولقد وقفت عند كلمة قالها لهذا الرسول وقالها من قبل
ذلك لي ، إنه لولا غروري وغيرتي لما جررت عليه وعلى نفسي وعلى ولدينا
ما أصابنا من المتاعب ، وإنه مع ذلك لا يزال يحبني ولن يحب غيري .
وابتسمت حين استعدت هذه العبارة وتخيل إلى أنه لولا هذا الغرور وهذه
الغيرة لما أحبنى ولا ظل متشبهاً بحبي برغم ما أذقته من أهوال . لكن ابتسامتي
لم تلبث على شفقي غير لحظة ثم تلاشت ، لأن طيف صديقتي تعرض
أمامي وكأنها تقول : « لا تخدعي نفسك ، فما يدور بخاطرك الساعة

ليس إلا أثراً من آثار غرورك وغيرتك ! . . » وأزعجني هذا الطائف ودفعني لأن أتساءل : « إذا كان مطلق لا يزال يحبني وإن لم أحبه فما تردد هذه المرأة عليه ؟ وما استأعاه لها حتى كاد يتردد في إجابة مطلبي بقاء ولدي في كنف ورعايتي ؟ ! » .

واضطربت في نفسي عاطفة الشكر لمطلق حتى بلغ من اضطرابها أن عدت ألحن يوم تزوجنا . وأبأس نفسي كيف استطعت حينذاك أن أحبه ، وكيف استطعت أن أعيش معه السنين التي عشناها جنباً إلى جنب ، ولم يكن قد جد ما يحرك هذا الشعور عندي إلا إحساس بأنه يخدعني حين يذكر أنه لا يزال يحبني وإن كنت لا أحبه . فلو كان ما يقوله صحيحاً لأقصى عنه صديقتي ولا سمح لها بزيارته منفردة أو مع ابنتها ، ولا سمح لها بأن تتدخل في أخص شئونه . لعل كنت ظالمة . أو على الأقل كنت مبالغ في ثوري هذه برجل أحسن إلي ولا يزال يظهر لي خالص الود بإحسان معاملته ولديه ، ولعل كنت يومئذ لا أجِد جواباً إذا سألتني سائل : وماذا تقولين إذا تزوج مطلقك صديقتك كما تزوجت أنت صديقه ؟ وهلا يكون يومئذ قد جزاك أعدل جزاء ؟ بل لقد كان حقاً أن أذكر أنا ذلك وإن لم يسألني عنه أحد ، لكني لم أفعل ، وبقي طيف صديقتي يتبدى الحين بعد الحين أمامي ليزيد ثوري احتداماً وليزيلني حقناً على الرجل ومقتاً له وغضباً منه ! . .

على أنني لم أكن أستطيع أن أجاهر بثوري هذه أو أبرز لها في الخارج أثراً ، وهل تراني كنت أستطيع حجب ولديه عنه إعلاناً لغضبي ؟ إنه لم

يقصر قط في حقهما ، فلو أننى فعلت لاتبعتى الناس جميعاً بالجلود وإنكار الجميل ، ولم يبق بينى وبينه غير الولدين : فلاكم إذن حفيظتى فى قلبى حتى إذا حانت فرصة لإظهار هذه الحفيظة من غير أن يلومنى الناس لم أتركها واتهمتهما .

لقد كنت أعلم أنه عسير أن تحين هذه الفرصة ، فلم يكن الرجل يقصر فى حق الولدين ولا فى نفقتهما ، وكانا كلما ذهبا إليه أغدق عليهما من فيض حنانه وبره ما يجعلهما يعودان إلى لسانهما بلهجان بالثناء عليه ومحبة ، فلا بد لى من أن أصبر ، والصبر وحده يحسم الأحداث والنوب ! . .

وتراخت الشهور يتلو بعضها بعضاً وتكاد نفسى تضيق بها ، وإننى كذلك إذ عاد ولدائى يوماً من عند أبيهما متجهمين وفى أعينهما أثر البكاء ! . . قلت : « ما بكما ؟ » قالوا : « إن أبانا مريض اشتدت به الحمى ولم نستطع المكث معه إلا قليلا ، ولم نستطع مغادرة بيته قبل الموعد الذى نعودنا أن نغادره فيه ! . . » ونخيل إلى أن هذه فرصة سنحت لمتعهما من الذهاب إليه محافظة على صحتهما حتى لا تمتد إليهما العدوى منه ، وجاء زوجى فذكرت له ما مرّ بخاطرى فقال : « ليس هذا من حقلك إلا أن يمنع الطبيب دخولهما عنده . لقد أكرمك الرجل فلا تشقى عليه فى علته ، وأسأفهم عن الطبيب الذى يعالجه حتى نستطيع تتبع أخباره ، والله أرجو من كل قلبى أن يتم شفاؤه ! . . » وبدت على الدهشة لما قال فأردف : « إننا يا عزيزتى عرضة كلنا للسقم والعجز والموت ! وليس يشمت بإنسان فى هذه الحالات

إلا نذل وضع ! . . وقد كان مطلقك زوجك كما كان صديق ! . .
وإذا جاز لنا أن نخاصمه وهو في صحته فأقل ما توجهه المروءة علينا أن نتألم
لحاله وهو في علته وأن نرجوله الشفاء . .

وأطرقت لسماحه وتولاني العجب أن تصدر عنه هذه العبارات بعد
الذي عرف من اتهام مطلقى إياه بخيانة العهد ونخر ذمة المروءة ، وبعد أن
كان حريصاً على أن يستأنف الحكم الذى صدر لمصلحة مطلقى ليتنقم لنفسه
منه فى مراعاة محاميه .

عند ذلك أيقنت أن فى بعض النفوس الإنسانية عنصراً يسمو على
الحقد ساعة عسرة الصديق ، وأن للصدقة قدسية لا يكفر بها إلا الجاحدون ! .
وأخبرنى زوجى الغداة أنه عرف الطبيب المعالج الذى يتولى العناية
بمطلقى ، وأنه سأله عن حاله فقال له إن ما به من حمى لا يمكن تبين نوعه
قبل بضعة أيام وقبل التحليل ، ولما سأله : أتجوز زيارته ؟ طلب إليه أن
ينظره خمسة أيام ثم يبدى فى الأمر رأياً ، وفى ختام الأيام الخمسة قال إنه
لا يرى بأساً بالزيارة على ألا تطول . ونهت المربية إلى ذلك وقلت لها إنها
إن استطاعت أن يبقى الولدان لا يدخلان على أبيهما حتى يغيى الطبيب
فدخولان معه كان ذلك خيراً . ونفذت المربية ما ذكرت ثم عادت مع
الولدين الموعد الغداء فأخبرتنى بأنها تأثرت أشد التأثر حين رأت مطلقى وقد
هذه المرض وأضسته الحمى .

وبعد أيام دق التليفون وأخبرنى المليونير أنه يريد أن يراى . وجاءنى
فى الموعد الذى ضربته له وأخبرنى أن مطلقى دعاه إلى سرير مرضه وطلب

إليه أن يدفع إلى نفقة الولدين ، وأضاف أنه يخشى على حياة الرجل من هذا المرض . فلما رآى المليونير صامته قال : « ولست أدرى إذا أصابه المقدار كيف أقتضى ديني ، لقد باع كل ما يملك جزءاً بعد جزء ، وقد أصبح مستغرقاً ، ولولا مرضه ، ولولا أن ما طلب إلى أن أدفعه اليوم يتعلق بنفقة طفلين بريئين ، لما قبلت أن أدفع عنه شيئاً إلا أن يجئني بضمان ملى يتضامن معه في سداد ديونه . وسكت بعد ذلك هنيهة ثم قال : « أوتقبلين يا سيدتي أن تضمنيه أويضمته زوجك ولك ما تشائين ؟ » .

فابتسمت ابتسامة ساخرة وقلت له : « ليتك لم تقبل يا سيدتي دفع نفقة الطفلين اليوم لتأخذ مقابلها ضمان تضامن مع مطلقي ، وأنا أعفيك من دفع هذه النفقة إن شئت » . .

قال الرجل : « لقد أسأت فهمي يا سيدتي ، إنما أردت أن تتصل بالعلاقة بيني وبينك ، إذا حم القضاء في هذا الرجل المريض » ! . .

قلت : « شفاه الله يا سيدتي ولا أحوجك أن تتصل هذه العلاقة ، وما أحسب مرضه من الخطورة بما ترى » ! . .

وانصرف الرجل بعد أن دفع نفقة الولدين ، كما أراد مطلقي ، فلما جاء زوجي وأخبرته بما حدث وأظهرت العجب له ، وبخاصة بعد الذي كان يديه المليونير من محبة لمطلقي وإخلاص لصداقته ، قال : « لا تعجبي . . إن رجال المال هؤلاء لا يخلصون لشيء غير المال ، ولا يؤمنون بشيء غيره . . هو دينهم وعبادتهم بعد أن بذلوا للحصول عليه ما يأنف الرجل الكريم من بذله . . ولو أن مطلقك مات ، لا قدر الله ، لرأيت هذا الرجل

يظهر أمامك وفي يده من الوثائق التي احتاط بها لنفسه ما لا يدور بخاطرك .
 وهو إذ طلب ضمانك أو ضامني إنما أراد مزيداً من الاحتياط . . ولعله هو
 الذي اشترى ما كان يملك مطلقك أو أكثره . هذا إذا لم يكن قد ارتبته
 قبل بيعه لديونه ، وحسناً فعلت إذ رفضت ما طلبه منك حتى لا يكون تردده
 علينا من بعد مثارشبهة . أيسر معانيها أننا مدينون له . ونحير عندئذ أن يبيع
 الإنسان بعض ملكه من أن يستدين من هذا الرجل . . »

لم يعني أمر المليونير بعد أن رفضت طلبه . وإنما عانى ما ذكره
 من أن مطلق باع ما يملك جزءاً بعد جزء . أترى اضطره لذلك ما أنفقه
 في أسفاري ، ولإصلاح البيت الذي كنا نقيم به وتجديد أثاثه . ولغير ذلك
 من مطالبي ؟ . . أم أنفقه مذ كان يعاون صديقتي لاستخلاص ميراثها
 وميراث أبنائها ؟ . . وأياً كان سبب إنفاقه . ألم يكن واجباً عليه أن يقلع
 لمستقبل ولديه حتى لا يتركهما فقيرين عالة على غيرهما . ولكن لا عجب ! . .
 فهذا الرجل كما وصفه زوجي من سنين . من طراز الأعيان الذين يبددون
 كل ثروتهم في سبيل التظاهر بأنهم من أهل الثراء . وكل ما أكسبه إياه
 تعليمه العالي ، وما أكسبه إياه أسفاره وتجاربه . لم يزد على طلاء ظاهر
 يستر الفلاح الكامن وراءه ، ثم لم يغير من طبعه شيئاً . أولوحم القضاء فيه
 فإذا يكون مصير هذين الصبيين ؟ ! أحسبني يومئذ في حل من أن أحمل
 زوجي على أن يتبناهما وأن يتسبا إليه ، ثم لا يكون لإنسان أن يلومني على
 ما فعلت وقد أردت خيرهما وكفالة مستقبلهما .

وعنيت بتبني الأبناء عن مطلق وسير مرضه . وقد وثق زوجي صلته

بالطبيب المعالج ، وكان يسأله كل يوم عن حال مريضه . ثم يحمل إلى ما يبلغه من الأنباء . ولقد طال هذا المرض حتى مله المريض نفسه ، برغم تردد أصدقائه الكثيرين عليه وإبدائهم أرق العواطف نحوه ودعائهم له بالشفاء والعافية . لقد كانوا مخلصين في دعائهم ، لأن الرجل كان في نظرهم مثال الطيبة والوداعة ودمائة الخلق ، ولأن عطفهم اشتد عليه منذ طلقت منه ، اقتناعاً من بعضهم بأننى كنت ظالمة له متجنبة عليه ، ومن الآخرين بأنه كان سيء الحظ غير موفق في زواجه ! ..

وفكرت حين طال به المرض أن أحجب ولديه عنه ، محتجة بأنه يشتد تأثيره حين يراها فيسوء أثر ذلك في صحته ، لكن زوجى لم يرض ما أردت ، بحجة أن امتناع الولدين عن زيارة أبيهما يدخل في روعه أن الطبيب هو الذى منعهما خوف العدوى من مرض فتاك ، وأن هذا الوهم إذا تمكن من نفسه فقد يقضى على حياته . وأهاب بي زوجى ، بعد أن ذكر لي حجته هذه ، ألا أحمل هذا الوزر لجسامته ، فإذا قضى الرجل نجه ، لا قدر الله ، بقى ضميرى يؤنبنى ما بقيت من أيام حياتى .

وقبلت حجة زوجى ونزلت على رأيه إكراماً له ، لا خوفاً على مطلقى ، فإن ما عرفته من أنه أصبح مستغرقاً لا يملك شيئاً ، وأنه لن يترك لولديننا ميراثاً قلَّ أو كثر ، قد زاه حفيظتى عليه وغضبى منه . وإننى لأفكر يوماً إذ استأذن على الرسول الذى كان سفير مطلقى إلى وسفيرى إليه في أمر الولدين وحضاتهما ، وأذنت له ، فلما حيانى وتناول القهوة قال : « جئت سفيراً مرة أخرى ، من قبل مطلقك . ما أشد جزعى على هذا الرجل النبيل ذى

المروءة . وما أعظم خوفى على حياته ! . إنه يذبل يوماً بعد يوم ويرى بعينه أجله يدنو . وهو طيب ، وهو لذلك أشد جزعاً على نفسه لأنه يعرف سير علته ، ويذكر فى ألم وحسرة أنه لا براء له منها . وهو يشكر من أعماق قلبه ويكرر هذا الشكر كلما بعث له بالولدين يزوران ويؤنسانه . فهو يرى فيهما صورتك أنت مجتمعة إلى صورته ، ويذكر كلما رآهما أسعد أيام حياته ، ويتولاه الأسى والحزن لأنكما لم تستطيعا أن تعيشا فى هذين الولدين ولما ، ولقد كنت أعجب يا سيدتى كلما ذكر لى أيام صحته وعاقبته أنه لا يزال يحبك ، وكنت أحسبه إذ ذاك يتغنى بحبكما الأول ويتشبث به لأن قلبه لم يعرف حباً بعده ، لكن هيامه بك اليوم ، وهو موشك أن يلقي ربه ، بدلتى على أنه كان صادقاً ، وأن قلبه ظل حياته مليئاً بك ولم يعرف غيرك ، وهو قد أرسلنى اليوم إليك فى أمر لا أدري كيف أصوره ، إنه يريد أن يراك ليستغفرك عن كل ما مضى من ذنوبه ، طامعاً فى عفوك وإحسانك ! .

قلت فى دهشة : « يريد أن يرانى ! . . . » .

قال الرسول : « مهلاً يا سيدتى ، فلا يأخذ منك العجب ، ولا تتوكل الدهشة ، ولو أنك رأيت هذا المريض . المشرف على الموت . كيف ينسى مرضه ، وكيف ينسى الموت كلما ذكرك . وخيل إليه أنك زرتة ، لما ترددت لحظة فى زيارته ، إحساناً منك تبذلته صدقة لوجه الله . فهذا الرجل لم يعد يعرف فى الحياة سواك ، ولم يعد يجرى على لسانه إلا اسمك . أنت القبس الباقى له من نور الدنيا ، والأمل المرجو عنده فى الحياة الآخرة ، أنت حلمه فى يقظته وفى نومه ، أنت مصلر راحته

حين تنحدر به علته إلى هاوية الفناء . إنه حين يرى ولديكما يقول إنه يحبهما لأنهما ولداه ، إنه يناديك باسمك مبتهلاً مستغفراً ، كما ينادى المؤمن ربه في صلاته ! .. إنه يهذى بحبك هذيان المجنون بليل . . أولاً بمس ذلك كله من قلبك أوتار رحمتك وبرك ؟ .. أولاً تحسبن ، وقد وصفت لك حاله ، أن من حق المروءة عليك ، لا أن تزوريه وكفى ، بل أن تلازميه حتى يلفظ نفسه الأخير ! ..

اشتدت في الدهشة وبقيت مشدوهة لا أدري ما أقول ، فلما رأى الرسول حالى قال بعد برهة : « إني عائد إليه الساعة يا سيدى ولن أقول له إني رأيتك . وسأعود إليك غداً في مثل هذا الموعد ، وأكبر رجائى ألا تخيبي أمل رجل أبى على حبك حياته برغم يأسه منك وانفصاله عنك ، قد تكون آخر سويعاته في هذه الدنيا حين يقع نظره عليك ، وحين يحاول أن يرفع إليك يديه مستغفراً من ذنوب يعلم الله براءته منها ، سيقول لك إنه أخطأ ولم يخطئ ، وإن عليه كل الوزر فيما أصابك وأصابه ولا وزر عليك أنت في شيء قط . سيرفع إليك أكف الضراعة لتسامحه فيسامحه ربه . . إن لك قلباً يا سيدى يعرف الرحمة وينسى الموجدة ، فاستشيري قلبك ، وإلى غد في مثل هذا الموعد لتذهب معاً إليه ! ..

قال الرسول هذا الكلام واستأذن وانصرف ، ولم أملك التفكير وأنا فياً أنا فيه من دهشة بلغت الذهول . وكيف ترانى أستطيع أن أفكر وهذا السيل الجارف من عواطف رجل تهدده المتون ينساب نحوى ويكاد يغرقنى ، ونخرجت إلى حديقة المنزل أستنشق الهواء لعله يرد إلى بعض سكينتى . ومع

هذا بقيت عاجزة عن كل تفكير زمني غير قليل ، فلما أردت أن أفكر انتفض -
أمامي طيف صديقتي وكأنما تقول : هأنذا ، وانتفض إلى جانبه شيخ
المليونير يطالب بدينونه ، وأقبل ولدائي في هذه اللحظة قبلتهما على عجل
ثم أسرعت إلى مخدعي مضطربة الذهن لا أرى ما أمامي .

جاء زوجي وشاهد اضطرابي فذكرت له ما جاء به الرسول وقصصت
عليه حديثه ، قال : « الأمر لك يا عزيزتي ، إن شئت ذهبت غداً
معه ، أو شئت التمسيت لنفسك عذراً عن عدم إجابة مطلبه ، ليس عندي
ما أشير به في موقف تملئ فيه العاطفة ولا شأن للعقل به ، ولو أنني وجهت
إلى مثل هذه الرسالة بوضعي صديق هذا الواقف على أبواب الأبدية لحرت
في أمري ولترددت ماذا أصنع بعد الذي كان بيننا آخر الدهر من قطعة
وخصومة ، لكنه أحسن إليك يوم ترك لك ولدك فأنت في غير موقف ،
وهو على كل حال لم يطلب إلى أن أزوره فلا شيء يحملني على أن أفكر في
الأمر أو أعتزم فيه رأياً ، فاصنعي ما تشائين ولا اعتراض لي على أي قرار
تتخذينه » . . .

زاد هذا الحديث حيرتي ، هبني أبيت أن أذهب فبأى عنر أواجه
الرسول ؟ . . أقول إن قلبي لا يطاوعني أن أراه وقد ترك ولديه معلمين
ينفق عليهما من يبعث الله إلى قلبه الشفقة بهما ؟ . . أم أقول له إن ما يعرف
به ليس إلا هذيان الحمى ، وإنه لو شفاه الله كما أرجو لأسف أن جرى
اسمي على لسانه في أثناء مرضه . . وإن أنا قبلت رجاء الرسول وذهبت معه
فإذا يكون موقفى من هذا الرجل المضطرب بين الحياة والموت ؟ . . ما الذي

أستطيع أن أقوله له إذا هو خاطبني باللهجة التي خاطبني بها رسوله . لن أزيد على أنني سامحته ، ثم أضطر أن أرجوه كي يسامحني فيما لعل هفوت فيه . وهبه تأثير بلقائي ولفظ نفسه الأخير في وجودي فأبنة مأساة عند ذلك أواجه ؟... . وقضيت ليلي في حيرة من أمري ، وأرقت ولم يعرف النوم سيلا إلى جفتي . على أنني كنت كلما قلبت الأمر ازدادت اقتناعاً بأنني لا قبل لي بالذهاب إلى مطلق ، ولا فائدة لمطلق من ذهابي إليه . سيقدر الرسول حين أرفض الذهاب معه أنني لا قلب لي ، وسيري أنني أسأت إلى من أحسن إليّ ، ولكن ذلك خير من أن أتعرض ، ويتعرض مطلق ، لموقف لا طاقة لي به ، ولا جدوى له من ورائه .

وجاء الرسول الغداة لموعده ، فلما سلم عليّ قال : لعل الله قد هدى قلبك إلى خير تبدليته لهذا المسكين ، لقد رأيته بعد أن غادرتك أمس فكان أول ما فاتحنى به أن سألني إن كنت قد لقيتك وأدبت إليك رسالته ، فلما أبلغته أن وقى لم يتسع لما أراد انهملت عبراته وقال : « حتى أنت يا صديقي تشكر لصداقتي حين تراني على حافة القبر ، ما ضرك لو ذهبت إليها فرددت إلى روعي بزيارتها أو بوعد منها أن تزورني ! . . لست أكرمك يا سيدتي أنني أوشكت أن أفضي إليه بما حدث بيني وبينك أمس دفعا لاسهامه إياي أنني جحدت حق الصداقة ، ولكنني وعدتك ألا أفعل حتى أعود إليك اليوم آملا أن تنهبي معي قتردي أنت روحه . أفتراني أطمع منك أن تكوني كريمة معه كما كان هو كريماً ذا مروءة يوم خاطبته باسمك في أمر ولدك ؟... . »

قلت بعد هنية : ارجوئى سيدى أن تمنحنى شيئاً من صبرك
ومن حلمك حتى أعرض عليك أمرى . لقد قضيت ليلة لم أذق فيها النوم
أفكر فيما تطلب إلى وأقلبه على كل وجوهه . ولم أنس منذ بدأت تفكيرى
أنتى مدينة بالشكر الخالص لسفارتك الناجحة عني عند مطلقى فى شأن
ولدى ، كما أتى مدينة له بالشكر على مروءته ونبله . ولذا وددت لو استطعت
أن أجيبك إلى ما طلبت منى إن كان فى إجابته أى فائدة . أنت تطلب إلى
يا سيدى أن أزور مطلقى لسمع منى أتى سامحته فيما لعله أخطأ معى فيه
إبان زوجيتنا . إذن فأبلغه عني وهو لا شك مصدقك . أنتى سامحته من كل
قلبي ، وأنتى أطلب إليه كذلك أن يسامحنى وأن يغفر لى . لعل الله يشعلنا
نحن الاثنين بعفوه ومغفرته . أقول ذلك صادقة مخلصه عن نفسى . أما
ولدانا فأمرهما إلى ربهما ولا أملك أنا من ذلك شيئاً . إنه إن اختاره الله إليه
سيتركهما فقيرين إلى عطف أجنبي يكفلهما ، أو يتبناهما . أترانى أستطيع أن
أقول ذلك لمطلقى وهو فيما تقول موشك أن يلغى ربه ؟ وهل يرضيك أن أكنم
ذلك فأبوء بإثم الولدين فى غير ذنب ولا جريرة ؟ وهبى ذهبت معك إليه
ورضيت أن أكنم أمر الولدين إبقاء عليه واندفع هو يذكر أمامى ما قلت أنت
لى من أنه يحبنى ولا يحب غيرى . أفأجيبه صادقة لكنى لا أحبك . أم
أجيبه كاذبة بأنى أحبه وأنه ملء سمعى وبصرى ؟ إنك تحدثنى باسم عواطفه
التي تتحكم فيه ، فهل تريدنى أن أقف أمامه صلدة جامدة أسمع ولا أنطق ، أم
تريدنى باسم الرحمة كاذبة مرائية ! . ثم هبى ذهبت معك إليه فكان
ما تقول وقضى نحبه سعيداً بوجودى عنده فإذا يقول الناس عني ؟ أتتى

أشقيته صحيحاً وقتلته مريضاً ! . . ذلك بعض ما دار بخاطري يا سيدى طول ليلى ، وأعفيك من سماع ما بقى مما سواه ، فهل ترائى أصبت الرأى ، أم ترى أن تشير على بما يخالفه ؟ » .

وظل الرجل صامتاً كأنى لا أزال أتكلم . وكأنه لا يزال يسمع . . فلما فطن إلى سكوتي التفت إلى وقال : « بيدولى يا سيدتى أنك اتخذت فى الأمر قراراً لا سبيل إلى الرجوع فيه . فقد فرضت كل الفروض وأجبت عليها جواباً لا يحتمل المناقشة ، ولعلى لو قلت لمطلقك إنك سامحته وصدفت عنه فما لعله فرط منه أرضاه ذلك وطمانته . ولعله يزداد اطمئناناً حين أذكر له أنك تريد أن يغفر لك كما غفرت له . وأن يسامحك كما سامحته . ولكنى شد ما أخشى أن يبقى يعذبه ضميره إذا عرف أنك سامحته عن نفسك . وأبيت أن تسامحه عن وليدكما ، أنا أفهم ما تقولين من أن أمرهما ليس لك ، وأنهما هما اللذان يملكان مسامحته يوم يكبران . وهولا ريب يفهم ذلك كما أفهمه ، ولكنه يطمع فى ألا يكون قلبك غاضباً عليه من أجلهما . أفاستطيع أن أبلغه ذلك ؟ . . فلو أننى فعلت لسهل ذلك على التماس العذر عن عدم ذهابك إليه . ولا أحسبك تأبين على ما أطلب من ذلك وأنت تعلمين أنه لم يبعثر ماله فى ترف لنفسه أو فى عبث مما يتلهى المسرفون به ، كما أنك تعلمين أنه لو استطاع أن يضاعف ثروته لما أقعده دون مضاعفتها من طريق شريف أى اعتبار . »

قلت : « عزيز علىَّ يا سيدى أن أرفض لك مطلباً فى مقدورى إجابته . ولو أننى كنت امرأة واسعة الثراء لأجبتك إلى ما تريد ولجعلت

ليدئى من ماى ما يغنيهما عن ميراث أبيهما . أما وليس فى هذا الثراء فلابد أن يكفئهما غيرى . فكيف يرضى قلبي عن بقائهما عائلة على الغير وقد ألقا منذ مولدهما حياة النعم ! فإن يكن أبيهما قد أضاع ماله مضطراً فإن الله وحده هو الذى يغفر له . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . أما إن كان قد أضاع ما يملك فى غير ضرورة فإلله يتولى جزاءه . إن شاء غفر له . وإن شاء لم يغفر . ذلك غاية ما أستطيع قوله . ولعلك ترائى متصفة فيه كل الإنصاف ! . . .

لم يجد الرجل ما ييجئ به . ولم يطعم فى إقناعى بتعديل قرارى فاستأذن وانصرف مشكوراً .

ولست أدري على أى وجه أبلغ حديثنا لمطلقى . ولكنى علمت من بعد أن هذا المريض المسكين حز فى نفسه أن أيت زيارته ، وأن تراحت زيارة ولديه له . وإن كان لا يراها حين يذهبان إليه إلا لحظات لا تغنى ولا تروى ظمأ ظامئ .

مع ذلك استطال من بعد مرضه حتى رحمه شائوه . وحتى كان أحبأوه يتوجهون بالدعاء إلى الله أن يريحه بالموت من عثائه . وفى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر من تلك السنة أبلغت أنه مات . فترحمت عليه . وقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

هدأت نفسى حيناً بعد وفاة مطلقى . وخجل إلى أن الموت حسم ما بينى وبينه إلى الأبد . وأقام ستاراً كثيفاً حجب عنى ماضياً ذقت فيه غصصاً وآلاماً ، وتوهمت أن فى مقدورى أن أنسى هذا الماضى فلا يبقى

له في ذاكرتي ولا في أي مظهر من مظاهر وجودي أثر . وهل شيء كالنسيان
ينقذنا مما نود أن نتخلص منه ، ويتيح لنا أن نكيف ماضينا على ما نريد ،
لنتعم بما يحويه من خير وإن قل ، ونجسم هذا الخير ونمجده ، ونمحو
ما أصابنا فيه من بأساء وكأنها لم تكن ، ونزيف بذلك لأنفسنا تاريخها
كما تزيف الأمم تاريخها ؟ !

وأول ما دار بخاطري : لأجعل هذا الذي توهمت حقيقة واقعة ،
ولأمحو من ذاكرة الوجود أنني كان لي زوج قبل زوجي الذي يحبني
اليوم من كل قلبه ، أن أنسب ولدي إلى هذا الزوج الثاني وأمحو نسبتهما
إلى أبيهما الذي أتجهت بهما منه ، ولم يكن ذلك عسيراً والقانون ييسح تغيير الأسماء
إذا اتخذت لهذا التغيير إجراءاته ، ولكنني لم أكن لأقوم بتنفيذ ما أردت
إلا أن يوافق زوجي عليه وأن يعاونني في الإجراءات التي تحققه .

ولم يكن عسيراً عليّ أن أقنعه وأن أزيل من نفسه شبهات أبداها حين
بدأت حديثي معه في هذا الأمر ، فقد ذكرته بأنه قبل شرطي يوم خطبتي
إلى نفسه أن يتبنى الولدين حتى لا تبقى بيني وبين مطلقتي أية صلة ، وأنتي
كنت معترمة يومئذ أن أنسبهما إليه لولا أن رفع مطلقتي الدعوى يطلب فيها
ضم الولدين إليه ، ولولا أن حكمت المحكمة له بما طلب ، فاضطررتي حكمها
إلى مصالحته على بقائهما في رعايتي ، لولا ذلك لما تردد زوجي في تنفيذ شرط
قبله . ولم يبد الرجل اعتراضاً إلا خشيته من قالة الناس في فساد ظنهم
بي ، وسوء حديثهم عني .

واتخذ المحامي الإجراءات وحكمت المحكمة بتبديل اسم الولدين وجعل

نسبتهما إلى زوجي ومحو اسم أبيهما وإزالته عنهما . وقد اغتبطت يوم صدر هذا الحكم بقدر ما اغتبطت يوم قبل مطلق أن يتنازل عن ضم لولدين إليه ليقيما في كنفى . فقد أيقنت أني لن أسمع من بعد اسم هذا الرجل ولن أقرأه في الشهادات التي تبعث المدرسة بها إلى عن امتحان الولدين . ولن يبق له فيما يتصل بي أي ذكر أو أثر .

وذكر لي زوجي بعد صدور الحكم بتسمية الولدين باسمه أنه يريد أن يوصي لهما بثلاث ماله . وأنه لو وجد في القانون حيلة لأوصي لهما بكل ماله . قلت له : « لا تعجل فهما ولدك . والأب لا يوصي لأبنائه . أطال الله بقاءك وبقائى حتى نراهما شابا وفتاة ملأ العين ، وحتى تكفل لهما عنايتك ورعايتك مستقبلا يرضيك » . ولقد كنت أعبر صادقة عما يدور بقلبي ، فقد أكرم زوجي ولدي منذ تزوجنا إكرام الأب لبنيه ورعاها رعايته فلك بحنانه عليهما كل قلبي وجعلني أشعر بأن المثل القائل : رب أخ لك لم تلده أمك . كان يجب أن يضاف إليه . . ورب أب لك لم تحالطه أمك ! . .

وهل الأبوة والأمومة إلا الحنان والعطف ! أذكر وأنا أكتب هذه العبارة تمثيلية شهدت في باريس تصور زوجة سامحها زوجها بعد أن أنجبت ولداً من خليلها ، ونسب الولد بحكم القانون إلى الزوج الذي أعاد عليه من يوم مولده كل عطفه وحنانه . وشب الولد وكبر وهو يؤمن بأن هذا الزوج أبوه ، ثم إنه عشر يوماً في أوراق أمه بخطاب عرف منه سر مولده ، فثار في عروقه دمه أن حمل هذا الرجل الذي لم يكن أباه كل

ما يحمل الأب من عبء لنشئة أولاده ، وتطوع للجندي وندب كطليه للسفر إلى الهند الصينية فراراً من بيت ليس بيته ، وعبثاً حاول الرجل أن يقتعه بحماقة ما يصنع ، وأن طيش لحظة طاف بأمه لا يحجو عطفه هو عشرين سنة أو تزيد . وسافر الرجل يودع الشاب على الباخرة التي تبخر به إلى منفاه ويرجوه أن يعدل عن عزمه ، وأبى الشاب ، فلما بدأت الباخرة تتحرك ووقف الرجل على رصيف الثغر يودعه ويشير إليه بمنديله الأبيض ، صاح القتي : إلى الملتقى يا والدي . وطفح قلب الرجل سروراً بكلمة والدي هذه مقتنعاً بأن الشاب آمن برأيه في اللحظة الأخيرة ، وأنه لم يقل هذه الكلمة بحكم العادة ولا بدافع المجاملة .

وهذا الرجل في رأي على حق . فإقيمة الأبوة أو الأمومة العاقبة إلا أن يفرض القانون على هذا الأب أو على هذه الأم أداء الواجب للجيل الناشئ . فإن لم يفعلا لم يكن أيهما حقيقةً باسم الأب أو الأم ، هذا الاسم الكريم الذي يحمل في طبائمه أكرم المعاني وأنبليها ، وقد حمل زوجي عبء الأبوة لولدي من يوم تزوجنا ، فلم أكن مبالغة ولا مغالية في قولي له إنها ولداه ، ولا فيما فعلت من نسبة اسميهما إليه ، وإن كان من الحق على اليوم ، وقد مرت السنون على وفاة زوجي الأول ، أبيهما ، ألا أجد أنه إلى أن وافته المنية لم يقصر في واجبه إزاءهما ، وكان كله الحنان والعطف عليهما .

وتعاقبت السنون وقد وضعت زوجي الأول من ذاكرتي ومن قلبي في قبر محيق أشد صمتاً من القبر الذي يحوى رفاة ، فلم يكن اسمه يحرق على لساني ،

بل لم يكن يرميها . وتعود الوندان أن يخاطبا زوجي مخاطبة الولد لوالده .
وألا يذكر أنهما كان لهما أب سواه . وأن يقدر ما يحبوها به من عطف
وما يسبغه عليهما من حنان . ولقد أدهشني منه وأثار إعجابي به أنه لبس ثوب
الأب في سلطانه وفي حنانه . وكان محبته لي أدخلت إلى قلبه من عواطف
الأبوة ما احتواه قلبي من عواطف الأمومة . فكان ذلك مدعاة لانسجام
الحياة بيننا جميعاً كما تنسجم الحياة في الأسرة الواحدة بين الوالدين
والبنين .

وظل ذلك شأننا . وظل الولدان يكبران بأعيتنا وعنايتنا . لاشيء
يكدر صفونا : أويشوب سعادتنا . ولا نطمع من الحياة في خير مما أعطتنا
لم أعد أفكر في السفر إلى أوروبا أو إلى الأقصر . ولم تعد مغريات المجتمع
تجذبني إليها : بل أصبحت مملكة البيت مملكتي : والعناية بالبيت ومن فيه
مصدر سروري وسعادي . وقد بلغني في أثناء هذه السنوات الخفيفة أن صديقتي
تزوجت فدعوت لها بالتوفيق . ولم يتعرض طيفها لي ولم يثر جمالها ثائرتي .
ومالي أنا ولها ؟ ! . بل مالي أنا ولغيري من الناس وقد ظفرت بما كنت
أرجو من طمأنينة وسعادة ؟ . . وقد أنست إلى زوجي وولدي وأنسوا إلي .
وقد أصبحت أدعو للناس جميعاً بما حباني الله به من فضله .

يقولون إن الأم السعيدة لا تاريخ لها . ويدلوني أن الأسرة السعيدة
لا تاريخ كذلك لها . إنها تتخطى في هون على متن السنين مألوف حياتها .
فلا يثير طلعة أحد ولا تدعو أحداً للكلام عنها أو للتندر بها : وإن غبطها
الناس لما أفاء الله عليها من ستره ورعايته .

وتخطى ولدى الثانية والعشرين من سنى حياته . وإننى لجالسة يوماً
 فى غرفة نومى إذ دخل علىَّ يبدو على سياه اشتغال البال . ولم أرد أن أسأله
 عما يشغله ، واثقه أنه لم يحضر هذه الساعة اعتباطاً ، وإنما جاء يحدثنى
 فى أمر يراه جليل الخطر وللشباب عذرهم إذا اضطربوا لما لا يوجب الاضطراب ،
 فليست لهم من تجارب الحياة مناعة ترد عنهم شتات البال وتبيل الفكر فى كل
 شأن جل أو صغر . وأمسك الشاب عن الكلام هنيهة بعد أن جلس إلى
 جانبي وكأنه يدير الأمر فى رأسه ليصوره لى . على أنه ناء بالصمت بعد قليل
 فاندفع يقول :

« جئت أحذثك يا أماه فى أمر أجل من كل ما تتصورين خطراً .
 لقد أعجبتنى فتاة تعرفينها وتعرفين أهلها وأردت أن أخطبها إلى نفسى ،
 ورأيت أن أسألك أتوافقنى على أن تتزوج ؟ فقالت فى حياء وخفى إن
 الأمر فى ذلك لوالديها ، ولم أرد أن أفاتحك فى الأمر قبل أن أطمئن إلى
 رأى أمها ، فأنأ أعلم أن الأم إذا رضيت بعد أن رضيت ابنتها فقلما
 يرفض الأب ما رضىته ، فلما ذهبت إلى تلك الأم الطيبة القلب وعرضت
 عليها الأمر وقلت لها إن ابنتها تركت الحكم فى ذلك لأبويها قالت :
 إننى يا بنى لا أعز عليك شيئاً ، ولا أعز عليك ابنتى ، لقد كان والدك
 عليه رحمة الله صديقنا وكان من خير الناس وأطيهم قلباً وأكثرهم مروءة ،
 لكثك يا بنى محوت اسمه من اسمك ، وأبدلته باسم زوج أمك ، ولم أكن
 أنا ولم يكن زوجى راضين عن ذلك من يوم حدث ، فذكرى أليك أعز
 علينا من أن تمحى ، وأسألك يا بنى : إذا تزوجت ابنتى وأتجبت منها وسأل

الناس ولد كما عن جده لأبيه فاذا يقول ؟ أذكر أباك الحق أم يذكر زوج أمك ؟ ! فإن شئت يا بني أن أخاطب زوجي فيما تطلب فأعد قبل كل شيء اسمك كما كان ، انتسب لأبيك لا لزوج أمك . فإن فعلت فحبا وكرامة . ولك على أن أحاول إقناع زوجي لتكون زوج ابنة . أما إن أبيت تعزيز على أن أبلغك أننا آسفون إذا لم نستطع أن نجيبك إلى ما تطلب . ولا أريد منك الساعة جواباً بل تروني الأمر واستشر فيه .

كذلك قالت لي يا أماء . وقد رأيتها على حق فبحثت أعرض الأمر عليك قبل أن اتخذ فيه إجراء أو أخطو فيه خطوة . فأشيري على ! . . .

بم أجيب ؟ ليس الأمر الذي يعرضه علي ولدى نزوة شباب ، ولا هو من ضالة الشأن بما يثير ابتسامتي ، بل هو أجل خطراً بالفعل من كل ما توقعت ، فلا بد لي من مواجهته بشيء من الحزم يرد غنى وعن أسرتنا كلها ما يهددها في صميم كيائها . لذلك لم أتردد في أن قلت :

— وما لأُم هذه الفتاة أن تتدخل في أخص شئوننا وشئونك ! . .
وهلا ترى من تدخلها اليوم أنك إن صاهرتها غداً فستظل مستبدة بك تحاول توجيهك في الجليل والحقير من أمورك ، لذلك أنصحك أن تعدل عن التفكير في هذه الفتاة ، وأنا كفيلة بأن أجعل لك خيراً منها يفرح بها قلبك ويفرح بها قلبي . هذا إن كنت مصرّاً على الزواج وأنت لا تزال في هذه السن المبكرة ، أما إن أردت الخير لنفسك فأجل تفكيرك في إقامة أسرة قد تنوء اليوم بأعبائها ، حتى يعاونك عمل تنهض به ويدرك عليك أخلاق الرزق لتسعد أنت بأسرتك وتسعد هذه الأسرة بك .

وأجابني الفتى : ليس الأمر الساعة أن أؤجل التفكير في الزواج أو أعجل به ، وإنما الأمر في هذا الاسم الذي أحمله بغير حق ، ولقد خاطبت أختي في أن نعود باسمينا إلى اسم أينا الذي أجبنا فوافقتني على ذلك ولم يبد زوجها اعتراضاً ، هذا لب الموضوع في حديثي لك اليوم ، فإن أنت وافقتني ثم اعترضت على زواجي من هذه الفتاة لأسباب تعرفونها فإني عند رأيك ، ولا أعصى أمرك ! .. فهل ترين ما يمنع عودتنا إلى التسمية باسم أينا ؟ . . إننا الآن راشدان أنا وأختي ونستطيع هذا الأمر من تلقاء أنفسنا ، لكننا لا نقدم عليه حتى تكوني راضية عنه مطمئنة إليه .

قلت وأعصابي تضطرب وأكاد أرى أسرتنا تنهار أمام عيني : أنظرنى إلى غد أروى في الأمر ، وأشير بالرأى فيه ، فإنني الساعة متعبة : وأشعر بالحاجة إلى الراحة .

وقام الشاب وفي نظراته معنى الدهشة وقال : إلى غد إذن يا أماه ، وأرجو لك راحة الجسم وطمأنينة النفس .

ولم ألبث حين خرج أن رأيت الدنيا تدور من حولي ، وكأنني على زورق في بحر لحي لا شاطئ له ، أفأستطيع أن أفاتح زوجي في شيء مما قاله ولدى ليري كل ما أسداه لأخته وله ينقلب جحوداً وعقوباً ؟ وهل أستطيع أن أنكر على ولدى حقه في التسمية ، إن شاء ، باسم أبيه ؟ وأى داع دعا هذه السيدة ، وهي من أكثر أصدقائنا إخلاصاً لنا ، أن تثير هذا الأمر وأن تقفني هذا الموقف ؟ لست أعرف بيني وبينها حقداً ولا غيرة ، فما كان أجدرها أن تخاطبني في الأمر قبل أن تقضى بما قالت



فلما دخل زوجها إلى غرفة الاستقبال ، رأى فيها صورة مكبرة لزوجي الأول

إلى ولدى ! وكيف ترانى أنقض اليوم ما أبرمته أمس فيظن زوجى أننى خدعته لغاية فى نفسى ! . .

وتوارد طوفان من هذه الخواطر على ذهنى فشعرت بقلبي يخفق وأعصابى تزداد اضطراباً ، ثم أحسست برعشة كأنها الحمى ، ولقد حملت الله أن كان زوجى مدعواً للغداء ذلك اليوم ، ثم كانت عنده مشاغل تمسكه عن الحضور إلى البيت حتى المساء . وقلت فى نفسى : لعلى أكون قد تدبرت الأمر ووجدت حلاً قبل موعد حضوره .

وأقبل المساء فإذا الحمى تلازمنى وتمسكنى فى سرير نومى ، فلما جاء زوجى ورأى حالى أراد أن يدعو الطبيب فقلت له : دعنى الليلة فإنى أحسبها رعشة طارئة ، فإذا أصبحتنا ولم تنصرف عنى كان لدعوة الطبيب موضع ، ورجوته أن يقضى ليله فى غرفة أخرى . ولست أدرى بعد أن بقيت وحدى ما الذى أصابنى . أفنمت فعبث بي كابوس أزعجنى ، أم أنه هذيان الحمى الذى استبد بي ؟ . فقد تبدى أمامى طيف مطلق وهو ملتف فى أكفانه وأخذ يحملنى فى وسعته وكأنه يهتف بي : هأنذا سترينى الليلة وسترينى من بعد ، سترينى بينك وبين زوجك فى يقظتك وفى نومك ، سترينى بينك وبينه فى ثيابى وعاريأ كيم ولدتنى أمى ، سترينى بينك وبينه حتى فى سرير نومك ، وسترينى حتى يعود ولداى إلى التسمى باسمى ، فإن عادا تواريت لا عن رضا ، ولكن لأدع زوجك يتم قضاء الله فيكما والله أعدل الحاكمين .

واستيقظت جوف الليل مذعورة أصبح من هول ما رأيت ، وأسرع

إلى زوجي من المخدع الذي كان فيه يسألني ما في ؟ قلت وانحني تهزى :
 « إنه كابوس أزعجني فلا تتركني . وقضى الرجل بقية ليلته على « كنبه »
 في الغرفة . وبقيت مؤرقة حتى إذا نادى مؤذن الفجر . غفوت فرائيت في
 غفوتي كأن والدي يقول لي : « فيم تترعجين يا ابنتي . دعي الأمر لولديك
 يقضيان فيه برأيهما ولا تحملي أنت تبعته . قولي ذلك لوليك إذا جاء اليوم
 إليك يريد مشورتك . ونبيه إلى أن الأمر أخطر بالنسبة له ولك من أن يقضى
 فيه بخفة ومن غير روية » .

نمت بعد ذلك وطاب نومي ولم أستيقظ إلا قرابة الظهر . واستيقظت
 وقد نزلت عني الحمى وإن بقيت منهوكة الجسم . محطمة الأعصاب .
 وكان زوجي قد خرج لعمله فأتاح لي فرصة أتدبر فيها الأمر من جديد .
 ولم أجد خيراً من المشورة التي أسداها إلي طيف أبي . لكنني آثرت ألا أبت
 في الأمر قبل التحدث فيه مع زوجي ، وجاء ولدي ورأى ملازمة فراشي
 فأبت عليه بنوته أن يعيد الكلام عليّ ويسألني رأيي حتى أستعيد نشاطي .
 فلما جاء زوجي ودخل إليّ يسأل عن صحتي استبقيته عندي وذكرت له
 حديث ولدي ، وأن هذا الحديث هو الذي أركبني الحمى وأزعجني ، فسكت
 طويلاً ثم قال :

- هل نستطيع أن نمنعه أو نمنع أخته وقد بلغا رشدهما ولم يبق لي
 ولا لك عليهما سلطان ؟ . فليفعلا ما يشاءان فذلك حقهما . ثم يكون لنا
 بعد ذلك في الأمر رأي ! . .

وجاء ولدي الغداة فالفاني على مقعدتي الطويل فجلس عند قدمي

وسألني عن صحتي ، وحمدت له الله على أن أعاد إلي العافية . ثم قلت له :
 « إنك شاب عاقل تحسن وزن الأمور ، فلك أن تتصرف كما تشاء .
 فيما حدثني عنه أول من أمس ، ولا اعتراض لي على ما تفعل . وكل الذي
 أريد أن تعلمه أنني يوم بدلت اسمي كما إنما أردت خير كما ومصليحتكما ،
 عز علي أن تشعرا كلما دخلتما هذا البيت أو خرجتما منه أنكما غريبان عنه ،
 وأن يشعر زوجي كذلك مثل هذا الشعور ، فأردت أن أخلق فيه جو الأسرة
 بمعناه الكامل ، وقد أقرني زوجي على ما أردت وأعانتني فيه ، ثم ذهب إلى
 أبعد من المعونة فأراد أن يوصي لكما بنك ماله ، بل بكل ماله ، وعارضت
 يومئذ إرادته حتى لا يظن أنني قصدت إلى منفعة مادية مما صنعت ولا أراه
 إذا نفذت أنت عزمك وبدلت اسمك واسم أختك ألا بصر على تحرير
 وصيته تلك ، فهو رجل طيب القلب ، عاملكما منذ دخلتما بيته معاملة الأب
 لأبنائه ، بل اعتبركما ابنيه بالفعل وبذل لكما كل عطفه وحنانه ، أما وقد
 بلغتكما رشدكما وأصبح من حقكما أن تختارا البقاء على ما اخترت لكما أو
 تعدلا عنه لما كتبنا عليه فلكما من ذلك ما تشاءان ، وأنت قبل أختك خير من
 يقدر ما يترتب على تصرفه من آثار ونائج » .

قال ولدي في غير تردد : « أشكرك يا أمه من كل قلبي ، ولا تريب
 لي عليك فيما فعلته إبان صغري ، سواء فعلته غضباً من أبي أو التماساً لخيرتي
 ومصليحتي ، فإن كانت الأولى فلا أحسب الموجلة باقية في قلبك بعد كل
 هذه السنين على رجل يذكر عارفه جميعاً مروءته ، ويدكرين أنه أكرمك
 طول حياته بعد غضبك منه وانفصالك عنه ، وإن كانت الثانية فما كنت

لأبيع اسم أبي بثمان وإن عظم . فاسمه هو الادم الذى يجرى فى عروق . والحياة التى ينبض بها قلبي والنعمة التى يشع بها نور عيني . ولئن ينسني هذا الادم وهذه الحياة وهذه النعمة ما لزوجك الذى تدعوه أباانا من فضل علينا ويربنا وحنان ذقنا كل هذه السنين حلاوته . فلنسنا يا أماه عاقين ونحن ابناك وابنا أينا . وإذا كتبنا قد انفصلنا فى الحياة لأمر فذلك طارئ يحدث ثم ينسى . أما الاسم الذى حملناه يوم مولدنا فهو الذى يجب أن يبقى علماً على محبتكما وبركما . فالحياة محبة ، وما سوى المحبة هباء يذهب مع الريح ولا تبقى منه بقية .

تأثرت بهذا الذى سمعت من ولدى أبلغ التأثير فقبلته من أعماق قلبي وقلت له : « رعاك الله يا بني وهذاك السداد والحكمة ، ألا ترى أن تقضى لأبيك زوجي بهذا الذى ذكرت الساعة عنه » . وأجاب : « بكل سرور يا أماه لولا أن أخشى تأويل ذلك بأننى أطمع فى وصيته . فأستأذنك فى اتخاذ الإجراءات لأستعيد اسم أبى لى ولأعفى ، فإذا تم ذلك واستقر أمره جئت معها فأديننا لأينا واجب الشكر وعرفان الجميل » .

وانصرف ولدى مستأذناً فى أن يدعى أستريج ، وأخذت أفكر فى هذا الحديث الجديد ومقدماته ونتائجه . ولعنت الساعة التى عرف فيها ولدى هذه الفتاة حتى ليريد أن يخطبها إلى أهلها ، والساعة التى استشار فيها أمها وقد أدت مشورتها إلى هذا الاضطراب الذى أعانيه اليوم . وقد تودى إلى اضطراب أوسع نطاقاً تتأثر به صلتى بزوجى ، وينتهى إلى تشييت شملنا بعد إذ كان مجتمعاً فى انسجام واتساق . ودخل على زوجى وهذه الأفكار

تتناوبني وترسم صورتها على محبای . . فلما رأى ما يبدو من ذلك على
قال : « لا تجسمي الأمريا عزيزتي ولا تنزعجي له ، فهو واقع غداً إن لم يقع
اليوم لأنه نزول على حكم الطبيعة . . فا كان الدم لينقلب ماء في يوم من
الأيام ، وللوراثة حكم لا سبيل إلى مغالته ، وقد أصبحت ابنتك في عصمة
رجل وأصبح ابنك قديراً على الكفاح في الحياة فأغناها ذلك عنا ، وأتاح
لها من الاستقلال في التفكير ما نزع عنها سلطاننا ، وإن استبقى لها
حبنا وعطفنا » . فشكرت له سمو عواطفه وقلت له : « لو أنك سمعت ما قاله
ولدى عما يضره لك من إكرام ومن اعتراف بفضلك وجميلك ، وتقدير
لحنانك وبرك كل هذه السنين لسرك أن أثمرت تربيتنا هذه الثمرة الصالحة ،
وقد ذكر لي أنه سيؤدى ما عليه لك من واجب الشكر بعد أن يعيد إلى اسمه
واسم أخته اسم أبيهما ليكون الشكر خالصاً بريئاً من كل شائبة » ! . .
وجم زوجي لسماع هذه الكلمات الأخيرة ثم قال : « فليلهه الله
السلام والحكمة ! . . »

وعاد الرجل إلى وجوهه ، ثم انصرف غنى إلى مكتبه ، فلما آذنت
الشمس بالمغيب جاء إلى مخبرني أن أصدقاه دعوه إلى طعام العشاء وإلى
سهرة قصيرة بعده ، وأيقنت حين غادر البيت أن حديث ولدى فعل فعله
في نفسه ، وأنه مضطرب له اضطرابي ، حائر في أمره حيرتي ، مقدر أنه
لا يملك رده ، متألم من أجل ذلك له ، وأنه ابتكر هذا العشاء وهذه السهرة حتى
لا ينكشف لي اضطرابه ولله ، وقد زاد هذا اليقين في حيرتي واضطرابي ،
وفي خشيتي من المستقبل القريب وما ينطوي عليه من نذر .

وإذ جن الليل وأنى أن أسكن إلى مضجعي وأن أضئ أنوار غرقي .
 شعرت بالرهشة من جديد تهزى وتراجعت عن سريري فورة مخافة أن أرى
 الطيف الملتف في أكفانه يندس إلى جانبي ليكون بيني وبين زوجي . عند
 ذلك همل الدمع من عيني وعدت حيث كنت على مقعدى ورفعت أكف
 الضراعة إلى الله أن يعف عني وأن يريح بالي . وأقمت على ذلك زمناً ذهب
 بعده إلى مرقدى أحاول النوم فلا يطاق عني . وبعد منتصف الليل أحسست
 بزوجي يدخل الغرفة ولا يضيء نورها ويتمطى في مكانه من السرير وأنا
 متناومة لا أبدي حراكا . فلما تبينت من صوت أنفاسه أنه نام أخذتني
 الشفقة عليه لاضطرابه وحيرته ؛ فهو قد حاول أن يقيم أسرة تسعد بها كهولته
 وشيوخه . وبذل في سبيل ذلك حرواطفه وماله ، وما هوذا يرى محاولته
 تنهار من أساسها ولا يستطيع شيئاً لدعمها واستبقاء كيائها . وهأنذا شريكه
 في محاولته ؛ أشاركه الحسرة لانهارها . ثم أنا بعد ذلك أشد منه حيرة .
 اضطرب بينه وبين ولدي أحشائي ولا أقدر على منع كارثة تهددني !

وبعد أسابيع جاني ولدي متلهلاً يذكر أن الحكمة حكمت بإعادة اسم
 أبيه إلى اسمه واسم أخته . وأنه قد آن له أن ينجى معها إلى زوجي يعترفان له
 بسايق فضله ، وعظيم حنانه وبره .

قلت : « لقد كنت تخشى أن تفعل ذلك قبل حكم القضاء مخافة
 تأويله بأنكما تطمعان في وصيته . فهلا تخشى مثل هذا التأويل اليوم ؟ »
 وأجابني : « كلا ! فالرجل لم يحرر وصيته بعد ؛ فإذا هو حررها برغم
 ما فعلنا كان ذلك إقراراً منه لعملنا وإعلاناً لإبقائه على محبتنا والعطف علينا .

وإن لم يحررها فذلك شأنه ، ولن ينقص إحجامه عن تحريرها من اعترافنا
بجميله وفضله » ! . .

واستأذن الشاب في الانصراف لبعض شأنه ، فلما كان موعد
الغداء حضر زوجي ، ثم رأيت ابني وشقيقته يدخلان علينا ويقول ابني :
« لقد جئنا نتناول الطعام معك يا أماه ومع عمنا » ! . . ولاحظت لون
زوجي يتغير لسماعه كلمة العم بمن تعودت شفتاه أن يدعو أبني ، وكأنما
لاحظ ولدي ما لاحظت فأسرع يقول : « نحن يا عماه ابنك ، وقد جئنا
إليك نعتذر عن العود باسمينا إلى اسم أبينا . لم يكن ذلك إنكاراً لفضلك
ولا تنكراً لجميلك ، لكني أعلم أنك كنت أوفى الأصدقاء لأبي ، فلما اختاره
الله إليه اتخذتنا وديعة عندك فأسبغت علينا مثل بره وحنانه ، وسميتنا باسمك
حتى نشعر بأبوتك لنا وبنوتنا لك ، فلما بلغنا أشدنا وآن أن ترد الوديعة
أحسست بما في ذلك من مشقة عليك لرقه عواطفك وفرط حنانك ، ولأن
مر السنين ربط بيننا وبينك بأوثق رابطة ، فاحتملت أنا العبء عنك ،
مطمئناً إلى أنك سترضى صناعي لأنك رجل أمين لا ترضى أن تحتفظ بما
استودعت ، وتحرص على رد الأمانات إلى أهلها ، أما وقد ردت فقد
جئت وشقيقتي الآن نضاعف لك الثناء والحمد على عنايتك بنا ، وجميل
عطفك علينا ، وسمو أبوتك لنا ، طامعين في أن تقبل شكرنا لك وثباتنا
عليك ، والله يتولى جزاءك » ! . .

انفجرت أسارير زوجي لهذا الكلام ، فانتقلنا بالحديث إلى جو
أكثر طمأنينة . بذلك استأنفنا حياتنا وأنا أرجو أن تعود سابق سيرتها ،

لكنني شعرت بأن حجاباً قام بيني وبين زوجي . وكان هذا الاسم الذي استعاده ولدي . اسم صاحب الضيف المنتف في أكتفه . قد حل بيني وبينه حتى كاد يجعلني غريبة عنه ويجعله غريباً عني ! . . .

وجاءني ولدي بعد أيام يسألني رأيي في أمر الفتاة التي يريد أن يخطفها لنفسه . واستمهلته حتى أروى في الأمر كما قلت له . وحتى أسأل زوجي لكيلا يزداد الحجاب كثافة بيني وبينه . فلما سأله قال إنه لا اعتراض له على مصاهرة هذه الأسرة . فهم أصدقاؤنا ومن صديقنا . لكنه أضاف : « لكنك توافقيني على أن هذا المسكن الذي نقيم به لا يتسع لأُسرتين . وأنا أقترح أن يسكن ابنك وعروسه العمارة التي نقيم بها أخته حتى تسهل عليك زيارتهما كلما هفا لذلك قلبك . . . !

أحسست من هذه الكلمات الأخيرة أن الرجل لم يعد يطبق حياة ولدي معنا . برغم ما يبديه لي من مجاملة ولطف . فلما حدثني ولدي الغداة قلت له إنني أوافق على الزواج . وأقترح عليه أن يسكن العمارة التي نقيم بها أخته . وكذلك فعل . وجهزت العروس مسكنها جهازاً حسناً . وأخذت أتردد مع أمها عليه نعتي بنظامه وحسن تنسيقه .

وانتقل الشاب إلى مسكنه الجديد . وكنت أزوره هو وأخته الحين بعد الحين . وكان زوجي يرافقني في هذه الزيارات أحياناً . فيري في كل مرة جديداً في أثاث ولدي يسره ويعجبه . وإن شعرت دائماً بأنه يقوم بهذه الزيارات معي مجاملة لي . لا بدافع من قلبه ووجدانه .

فلما اطمأن ولدي إلى أنه أفاء على مسكنه آخر سمة له . دعانا يوماً

لتناول الشاي عنده ، وذهبتا عنده فاستقبلتنا أخته لأن عروسه شعرت ،
بوعكة لعلها من أثر الحمل . فلما دخل زوجي إلى غرفة الاستقبال رأى
فيها صورة مكبرة لزوجي الأول أبي الولدين ، فوقف يتأملها ووقفنا من
حواله ، أنا وولدي ، فنظر إلينا وإلى الصورة وقال : « هذه هي الأسرة
الأولى اجتمعت من جديد » .

وشعرت في نبرة صوته بأسى المنهم الذي حاول أن يقام الطبيعة فلم
تنجح محاولته ، وحاول أن يرث ما ليس له بحق فلم ينل ما أراد ، هنالك
أيقنت أنني أصبحت فريسة بينه وبين الولدين يجذبني كل إلى ناحيته ،
وأني لن يهدأ لذلك بالي ولن يطيب لي عيش بعد اليوم .

رباه ! . . ماذا أصنع لأتجو من موقف أنوء باحتياله ؟ ! إنني لا قدرة
لي على مغاضبة ولدي ، ولا قدرة لي على مغاضبة زوجي ، فولدای هما
ولداي ، وزوجي هو الذي افتداني من موقف لم يكن أحد لينقذني منه
لو لم يمد هو إلى يده ، إنني أضرع إليك ، أنا المرأة الضعيفة المؤمنة بقضائك
وعذلك ، فهبني من لدنك رشداً وهي لي من رحمتك سنداً أحتسب به من
هول هذا الموقف .

ولم تكذب مخاوفي ، فقد بدأ هذا الصراع الصامت بين زوجي
وولدي يتجاذبني يمنة ويسرة ، وبدأت أشعر كأني الكرة يتجاذبها المتنافسان
وكل منهما في موقفه لا يريم عنه ، فكان ولداي يذكرا أن اشتغالي براحة
زوجي يشغلني عنهما ، وكان زوجي يتهم في قاتلا : إن لي العذر أن طغت
على أُمومي فشغلت عنه . وزوجي وولداي لا يبدى أى منهم للآخر إلا المودة

والنحسنى. وتقلب مضوية على التذرع على هذه المرأة المنسكينة المغلوبة على أمرها لأنها زوج تفر لزوجها بفضل مروه ونيله . وأم تحب ولديها حب العبادة .

رباه . . ماذا أصنع ! عاودنى إذ ذاك رجوع من تقوى صباى يوم كنت رضوان الجنة ، فأعددت فى بيتنا مصلى عنيت به كما كنت أعجى بمصلى المدرسة . وأكبت على فروضى أصلياً لأوقاتها . أستيقظ مع الفجر أصليه حاضراً قائتة إلى ربى داعية إياه . أستغفره وأتوب إليه . وأبى داعى المؤذن كلما نادى : « سى على الصلاة ، فأهرع إلى مصلى فأجد فى الصلاة سكية نفسى وطمأنينة قلبى بانقطاعى إلى ربى .

وذكرت يومئذ عنى الحاجة وطرحها البيضاء . وكانت قد انتقلت منذ سنوات إلى جوار الله . فأتخذت للصلاة طرحة بيضاء كطرحها ، وإننى لأصلى الفجر يوماً وأقرأ القنوت إذ هتف فى هائف : « مالك لا تحجبن بيت الله أداء لقرضه ؟ إنك إن فعلى يغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . وتبعدين بذلك عن صراع أنت وحدك فريسته وضحيته » .

ما أرحمك يا رب وما أعظم فضلك ! . . لقد اطمأن قلبى هذا الهائف واعتزمت لساعى أداء هذه الفريضة الخامسة من فرائض دينى . فلما جاء زوجى أفضيت له بعزى فقال : أنت وما تريدن ! . . وأخبرت ولدى كذلك بأنى خارجة إلى الحج . وما كان لهما أن يصدانى عنه .

وبدأت أجهز للحج وأعد له علقى . ومن يوم بدأت هذا التجهز شعرت بالإيمان يطرد الهم من قلبى ويحل محله النور والطمأنينة . وشعرت

بزوجى وولدى يحوطونى بعناية سعدت بها من قبل ثم نسيتهما من يوم حملت
فى هذا الطيف الملتف فى أكفانه وصاح بى مهدداً ونذيراً .

ما ألد حلاوة الإيمان وما أعظم سعادة المؤمنين ! . . فنذ نذرت
الحج وشغلت بالتجهز له تقشعت من حولى كل سحابة داكنة ، وأقبل
على أهلى وأصحابى يهتفونى بما اختار الله لى ويطلبون لى أن أدعو لهم
بالخير وأنا عند بيت الله المحرم ، وجاءنى زوجى يوماً يقول :

« ناشدتك الله إلا ما استغفرت لى ربى وأنت تلين على عرفات
للصفح عني إن كنت قد أخطأت فى حق صديقى زوجك الأول » ،
وأخذ ولداى يسألانى عما يكملان به جهاز سفرى .، ويطلبان لى أن
أباركهما وأن أدعو الله لهما ، وسمت فى صلواتى فى هذه الفترة فوق نوازع
النفس كلها ، فهانت على الدنيا وما فيها وأيقنت حقاً أنها متاع الغرور ! . .

واقرب موعد السفر وتلاحقت زيارات المهشين والمودعين . فلما
كانت ليلة البرزة وهفا بى النوم إلى مرقدى ، رأيت أبى وأمى وهما فى ثياب
الآخرة ، وكأنهما ملكان يرفقان بأجنحة من نور فوق رأسى ، ويحمدان
الله أن رضى عني بما وهبني من تمام الإيمان بتقواى وبحجى ، ثم رأيت
الطيف الملتف فى أكفانه يلدو وعلى ثغره ابتسامة ومخياها كله الضياء وهو
يقول : « غفر الله لك وغفر لى ، وسعت رحمته كل شيء ، إنه رب التقوى
ورب المغفرة » .

واستيقظت الفجر وصلبته ، ثم إذا زوجى وولداى وطائفة من أهلى
يحيطون بى يقبلونى وليس فى قلوبهم جميعاً إلا الحجة الخالصة . وركبوا

جميعاً معي قطار السكة الحديد إلى السويس . وظلوا جميعاً معي على ظهر
الباخرة المسافرة إلى جدة . فلما آن لنا أن نبحر ودعيتي وكلهم يرجون الله
لي حجاً مبروراً : وذنباً مغفوراً : وأنا أرجو لهم جميعاً من الله الخلد والرحمة .

الفتن العاشرة

أبحرت الباخرة بمن عليها من الحجاج قاصدة بيت الله الحرام . فلما
 حاذت رابع أحرمتنا جميعاً . وفي بكرة الصبح من غدنا وصلنا إلى جدة
 فترلنا من الباخرة إليها ثم تخطيناها إلى مكة ، وهنا طقنا بالكعبة الشريفة
 طواف القدوم في انتظار يوم التروية الذي يسبق وقفة عرفات .
 وكانت حالتي النفسية تمر في هذه الأثناء موراً جاوز كل ما تصورت .
 لقد كنت قبيل سفرى أشعر حين صلواتي بأنني قريبة من ربى . وأنه يسمع
 دعائى أكثر به عن ذنبى ليغفر لى ويرحمى . فلما لبست ثوب الإحرام
 شعرت بأننى تجردت لله جل ثناؤه . ودخلت واسع رحمته . ولم يبق عندى
 شك ، وقد جثت بيه خالصة القصد فى التوجه إليه ، فى أنه غفر لى قبل
 أن أؤدى شعائر الحج ، لأنه رب القلوب . ولأن الأعمال عنده بالنيات .
 ولأنى قصدت بابه الكريم قائنة نائبة عابدة مسلمة إليه وجهى . آسفة على
 ما أسلفت من ذنوبى وأوزارى ، فهو لا يرد من قصده من عبادته ما خلصت
 نيته فى قصده .
 وبينما أنا فى هذه الحال من الطمأنينة والغبطة إذ فوجئت بما أخرجنى منها .

(١) كتب هذا الفصل وما يليه بعد زمن طويل من كتابة الفصول السابقة .

فقد وقفت يوماً عند مدرسة من مدارس الحرم فسمعت أستاذاً يحاضر الناس في الحج ويقول : « ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ، بل هو قبل كل شيء حساب النفس أمام بارئها عما قدمت في حياتها ، وهل أدت للحياة واجبها بما يرضى الله ويرضى الضمير ، فلم يحملها غرورها على اجتراح الآثام إرضاء لأهوائها ، ولم يوسوس لها الشيطان بأن الحياة حق للحى وليست واجبة عليه لله ، وللناس ، ولنفسه » .

زلزل هذا الكلام نفسى وأخرجنى من بلهنية الطمأنينة التى كانت تشتملنى وعاد بى إلى ماضى حياتى أنشره أمام بصيرتى ليكون صحيحى عند ربى ، وليكون ما أذرف من دمع التوبة عما فرط منى شفيعى إليه تعالت أسماؤه .. صدق الأستاذ ، ليس الحج شعائر ومناسك وكفى ، ولكنه حساب النفس واعترافها بذنوبها ، قبل أن تحاسب حين يتوفاها ربها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . . .

كانت هذه المرحلة من مراحل نفسى أشق المراحل على وجدانى . لكننى صمدت لها واجترتها بإذعانى وإسلامى ، وياقزارى بعجزى وضعفى ، وباعتراى الكامل بذنوبى وضراعتى إلى الله أن يغفر لى بعد الذى بلوت فى حياتى من محن كانت الجزء العدل عما كسبت نفسى . ولقد شعرت بعد اجتيازى هذه المرحلة برضا ملأ جوانحى وانتشر فى كل وجودى ، كما أضاء أمام بصيرتى نور يهدينى السبيل إلى بارئى ، فحمدته جل شأنه وازددت تواضعاً لله وثناء عليه وتسليماً بقضائه وإسلاماً لأمره .

وإننى لسعيدة بما أنا فيه من حال الرضا ، أصلى بالحرم الشريف

كل فوضى . وأطوف بالكعبة كل يوم . إذ رأيت منكم أكنز أتوقع .
 فقد صليت العشاء الآخرة ذات مساء ثم ذهبت إلى مضجعي فرائت
 فيما يرى النائم أني هممت بأن أسعى بعد ضوأي . فقصدت إلى باب
 الصفا لأخرج منه إلى المسعى . فإذا سيدة تقبل عليّ تقبلني وتعانقني .
 فرفعت إليها عيني لأتيناها . فلما رأيتها لم أملك نفسي من الدهشة .
 فنلك صديقتي . . نعم صديقتي التي اشتهرت بالخفة إلى حد الطيش .
 وقلت لها والدهشة لا تزال تملكني : « أنت هنا ! » . قالت : « نعم . مع
 زوجي ، وقد رأيتك مقبلة عليّ فشعرت . ونحن في بيت الله . بأننا أختان
 إن فرقت بيننا أهواء الدنيا في بلادنا : فلا شيء يفرق بيننا في هذا البيت
 العتيق ! » وزادني كلامها هذا دهشة ، فما عهدتها تنطق بمثل هذه الحكمة
 من قبل ، وقبلتها كما قبلني ، وأردت أن أستاذنها لأخرج فأسعى فأمسكت
 يدي وقالت : « أسأسي معك » وسعينا وكلتنا تدعو وتستغفر ربهما وتتلوما
 ألتي عليتا أن تتلوه في رواحنا وجيئتنا بين الصفا والمروة ، فلما أتممتنا سعينا
 سألتني عن موعد طوافي الغداة وقالت : « سأكون إلى جانبك نظيفاً معاً
 كما سعينا اليوم معاً » .

ثم رأيتني عدت إلى مسكني ولم تنفض دهشتي . ولا أكاد أصدق
 ما رأيته عيني ، فلما ذهبت صبح الغد للطواف ألقيت صديقتي في انتظاري .
 وتقدمت نحوي حين رأيته وقالت : إن لي معك حديثاً قصيراً قبل أن نبدأ
 الطواف . لقد هتف الليلة هاتف بي تبينه طيف زوجك الأول استحلقتني
 أن أقسم لك أمام هذا البيت المحرم أني ما كانت بيني وبينه قط ريبة .

وَأَنَا مَا أَحْبَبْتُهُ وَلَا أَحْبَبَنِي ، وَأَنَا لَمْ تَزِدْ مَوَدَّتَنَا عَلَى مُوجِبِ الصَّدَاقَةِ الْبَرِيَّةِ
الطَّاهِرَةِ أَمْلَاحًا عَلَى وَاجِبِ الْإِعْتِرَافِ بِجَمِيلِهِ لِمَا صَنَعَهُ لِي وَلِأَوْلَادِي مِنْ
اسْتِخْلَاصِ مِيرَاثِنَا ، وَأَمَلَتْهَا عَلَيْهِ مَرُوءَتُهُ وَشَهَامَتُهُ . ثُمَّ إِنَّمَا جَذَبْتَنِي مِنْ يَدِي
قَبْلَ أَنْ أَتِمَّكَ مِنْ أَنْ أَؤَكِّدَ لَهَا اقْتِنَاعِي بِصِحَّةِ قَوْلِهَا ، فَلَمَّا كُنَّا قِبَالَ الْحَجَرِ
الْأَسْوَدِ أَقْسَمْتَ هَذِهِ الْيَمِينَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَتْ : وَالْآنَ سَامِحِينِي يَا صَدِيقِي
لِيَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ وَلِي . وَأَجَبْتَنِي : بَلِ سَامِحِينِي أَنْتَ فَمَا كَانَ مِنْ سُوءِ ظَنِّي بِكَ ،
وإِفْسَادِ زَوَاجِكَ بَعْنِ تَرْوِجَتِهِ أَنَا ، وَأَقْسَمُ لَكَ كَمَا أَقْسَمْتُ لِي أَمَامَ هَذَا
الْبَيْتِ أَنْتَنِي يَوْمَ أَفْسَدْتَ هَذَا الزَّوْجَ لَمْ أَكُنْ أَفَكِّرُ فِي التَّزْوِجِ مِنْ صَدِيقَتَا بَرِغَمِ
مَا أَذْعَتِ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ . قَالَتْ فَسَامِحِينِي فِي هَذِهِ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا كُنْتُ
أَدْفَعُ عَنْ نَفْسِي وَعَنْ شَرَفِي ، وَسَامِحْتَنِي وَسَامَحْتَهَا وَأَقْسَمْنَا عَلَى أَنْ نَعُودَ
لِصَدَاقَتِنَا الْأُولَى ، ثُمَّ طَفْنَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ أَدَاءً لَوَاجِبِنَا ، وَتَوَكَّيْدًا لِقَسْمِنَا ،
وَاقْتَرَفْنَا وَكَلَّمْنَا تَحْمَدَ اللَّهِ أَنْ طَهَرَ قَلْبَيْنَا وَغَسَلَ بِرَحْمَتِهِ مَا غَسَلَ مِنْ ذُنُوبِنَا
وَتَدْعُو اللَّهَ لِبَنِيهَا وَلِذَوِيهَا أَنْ يَكْلَأَهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَعَنَابَتِهِ .

وَاسْتَقِظْتُ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ وَأَنَا أَسْأَلُ نَفْسِي عَنْ سِرِّ مَا رَأَيْتَ فِي
نَوْمِي ، ثُمَّ ذَهَبْتُ بَعْدَ أَنْ أَصْفَرَ الصَّبْحُ أَلْتَمَسَ الْأَسْتَاذَ الَّذِي يُحَاضِرُ النَّاسَ
فِي الْحِجِّ قَقْصَصَتْ عَلَيْهِ حَالِي ، وَكَيْفَ اطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي وَبَلَّغْتُ مِنَ الرِّضَا
غَايَةَ مَا أَطْمَعُ فِيهِ ، وَرَغِبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَفْشِرَ لِي مَا طَافَ بِي وَأَنَا مُسْتَعْرِقَةٌ فِي
نَوْمِي ، فَقَالَ : «إِنَّهُ مِنَ الْوَضُوحِ يَا سَيِّدَتِي بِمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ ،
فَإِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَبْلُغُ مِثْلَكَ حَالِ الرِّضَا يَجِبُ أَنْ يَطْهَرَ قَلْبَهُ وَأَنْ يَطْهَرَ عَقْلَهُ
الْبَاطِنَ مِنْ كُلِّ مَوْجِدَةٍ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ ، وَأَنْ يَغْفِرَ لِلنَّاسِ خَطَايَاهُمْ كَمَا

يطمع في أن يغفر الله له خطايته . ولا يزال قلبك ولجداً على هذه السيدة .
ولابد لك إن شئت لحال الرضا أن تدوم أن تعتردى هذه الموجدة من قلبك .
ومن ذاكرتك . ليكون تجردك لله خائصاً صادقاً مصدره حب الناس جميعاً .
والمغفرة لكل مخطئ . والاستغفار عن كل خطيئة . ومن أتم الله ذلك
له دام له الرضا في الدنيا وفي الآخرة .»

وتخطيت فناء الحرم والدمعة تنحدر من عيني . ووقفت في مقام
إبراهيم ورفعت يدي إلى السماء وهتف قلبي : « ما أكرمك ربى ! أجدية
أنا بكل هذه العناية ؟ أم أن أعظم الناس ذنباً أدناهم إلى عفوك وبرك .
رب إني لأشعر في أعماق روحي بأن قلبي لا يزال في حاجة إلى أن يتطهر
ليكون خليقاً بأن يسمو إلى حضرتك ويشرف بالمثل في مقامك الكريم ! ..
وطال وقوفى وإبتهالى إلى الله ودعائى إياه أن يهينى القدرة حتى يتطهر
قلبي ووجدانى ليدوم لى رضاه عني . فلما أتممت إبتهالى جلست مع الجالسين
في مقام إبراهيم حتى إذا سكن روحي وهذأت نفسي وعادتنى طمأنينتى
قمت فصليت ثم طفت بالكعبة ثم انتحيت جانباً قريباً من باب الصفا .
هنالك ذكرت ما رأيت في نومي فقامت فسويت بين الصفا والمروة وتلوت
ما ألقى على أن أتليه وأنا أسعى ، وسمعت المؤذن ينادى لصلاة الظهر وأنا في
آخر أشواط السعى ، فدخلت الحرم من جديد فصليت وراء الإمام ثم
انصرفت إلى مسكنى .

وشعرت حين خلوت إلى نفسي بأننى خلوت إلى حال جديدة من حالات
نفسى ، فلا بد لى إن أردت أن يديم الله ما أنعم به على من حال الرضا .

أن أمحو كل موجدة من قلبي وأن أحب الناس جميعاً وإن تكون محبة كل ما خلق الله شعاري ليشرح الله لي صدري ، ويرفع عني وزري . فتطمئن نفسي وأرجع إلى ربي راضية مرضية . . أتراني أستطيع أن أفعل ؟ ذلك ما ابتهلت فيه إلى الله ليبنى القدرة عليه ، والله سميع مجيب .

فلما كان المساء وصليت العشاء الآخرة نشرت صحيفتي أمام بصيرتي راجية أن يحو الله منها كل شائبة من وزر أو شبهة من هوى . وقرأت في هذه الصحيفة أول ما قرأت ما كرره لي زوجي الأول من أن الغيرة والغرور هما مصلر عليّ وسبب ما أرهقته وأرهقت نفسي وولديّ به من متاعب وبلاء ، وسرعان ما تيقنت أنه رحمة الله عليه كان ثاقب النظر ، وأن غيرتي وغروري جسماً أنانيّ فصرت لا أرى غير نفسي ، وأفرغت كل ما في نفسي من حب على هذه النفس الأمارّة بالسوء ، ولولاً أُمومتني وحيّ ولديّ وهما بعض نفسي لأنكرت الحب وأنكرت كل ما يتصل بالحب من عواطف . فأنايتي هي التي دفعتني للغيرة من صديقتي لأنني لست جميلة جمالها ، ولست فاتنة فتنتها ، وأنايتي هي التي دفعتني للاغترار بنفسي والإيمان بذكائي وسحر حديثي ، وإيثار من يؤمنون بهذا الذكاء وهذا السحر ، فيدفعهم إيمانهم إلى الإعجاب بهما وإنكار ما سواهما . وأنايتي هي التي جعلتني كذلك أسيرة نفسي فأذلّني لها وضربت حولي نطاقاً من سجنها وحالت دون تبادل مع الناس جميعاً أكرم العواطف ، فلو أنني محوت بفضل من الله أنايتي ، أو تغلبت على الأقل عليها ، لحطمت جدران سجنّي ولخرجت من عزليّ ولأحببت كل ما حولي ومن حولي ، ولتظهر بذلك قلبي ودامت على

نعمة الرضا من ربى .

وجاهدت منذ ذلك اليوم نفسى . فلم أكن أرى فى الحرم امرأة
تبدو عليها مظاهر ألم والألم إلا سكبت فيها من روحى ما يزيل همها وألمها ،
سواء على عرقها أم لم أعرفها . ولم أكن أسمع أنة مريض أو مكلوم القلب
حتى أخف لشفاء مرضه . أو لشفاء قلبه . ولم أكن أشعر بأنائى تتحرك
فما استبطن من أعماق وجودى حتى أقطب جبينى لها وأردها إلى أعماق
سجنها . بذلك صرت أفرح لأفراح الناس من حولى . وأتألم لآلامهم ،
ولذلك رجوت أن يشفى الله من على وأن يقبل بفضلته خالص توبى ! . .

وجاء موعد الحج فقضيتنا مناسكه . صعدنا إلى عرفات نلبي داعى ربنا :
ونشهد بوحدانيته لا شريك له ، وأن الحمد والنعمة والملك له تعالت أسمائوه .
وهناك ابتهلت إليه ودعوته لكل من رغب إلى أن أدعو الله ليبارك عليه وليهديه
ويغفر له ويرحمه ، وكان أحر دعائى لولدى أن ينجيها الله من شر نفسيهما ،
ومن الوقوع فى مثل آثامى ، وإلى والدى أن ينجيها الله بما أحسننا إلى ،
وإلى زوجى أن يبلغه الله مراتب الرضا . وإلى الطيف الملتف فى أكفانه زوجى
الأول ، أن يشبهه الله وأن يسكنه الجنة جزاء عفوه عني برغم ما أسأت إليه .
ودعوت الله كذلك إلى الأقربين من أهلى وذوى رحمتى كل باسمه ، وإلى
الناس جميعاً أن يرفع الله عنهم مقتته وغضبه وأن يهديهم سواء السبيل .

وأن لنا بعد أن طفنا طواف الوداع وسعينا سعيه أن نذهب إلى مدينة
الرسول عليه السلام ، وأنا أرجو أن أظل فى رحابها حتى يقبضنى الله إليه بها ،
وأن أدفن فى ترابها .

لا قدرة لي على تصوير شعوري حين أهلت المدينة وطلعتنا أعاليها ونحن منها على مدى النظر ، لقد كانت عمى تحدثني بعد حجها أنهم لما شافوا المدينة رأوا النور يتلألأ فوق القبة الخضراء من قباب المسجد النبوي ، أما أنا فلم تر عيني حين شارفت المدينة إلا ما يراه من يقبل على أية مدينة في العالم ، وكنت كلما اقتربنا منها ووضحت معالمها وتبيننا قبابها تمنيت لو كانت أدق نظاماً وأحسن عمارة ! . . وكذلك كان شعوري منذ دخلتها ، ولا يزال هذا الشعور آخذاً بنفسى إلى اليوم ، ولا أزال أدعو الله في صلواتي أن يهيئ لها من يحسن عمارتها ، ومن ينهض بكل مراققها إلى مستوى الحضارة في أرقى صوره .

لم تر عيني حين شارفت المدينة نوراً يتلألأ فوق القبة الخضراء لكنني أحسست بقلبي يملؤه النور أول ما علمت أننا تقترب من قبر الرسول الكريم ، وقبل أن تطالعنا قباب مسجده ، وانتشر النور من قلبي في كياني كله ، وأعاد إلى ذاكرتي كل صفحة من حياة النبي العربي قراتها قبل حجتي ، ولعل هذا النور الذي أضاء روعي وانتشر في كل وجودي كان يتغل من قلب عمى وأمثالها إلى أبصارهم فيرونه متلألئاً فوق القبة الخضراء ولا تخالج نفوسهم إثارة ريب في أنه منبعث من قبر الرسول الكريم الكائن تحتها ، والإيمان ينير البصائر كما ينير القلوب ، فترى الأبصار بفيض من قوة هذا الإيمان ما لا نرى ، ونقص صادقة ما لا ريب عندها في أنها رأت رؤية مادية كما رأت القبة الخضراء نفسها .

ودخلنا المدينة وأزلت عني غبار السفر وقصدت لتوي إلى مسجد

الرسول فصلت في الروضة النبوية الشريفة صلاة القدوم . ثم اتى زرت
الحجرة النبوية الشريفة ووقفت قبالة قبره صلى الله عليه وسلم أسأله الشفاعة
يوم الدين . وما لبثت حين بدأت أدعوني ليقبل شفاعة رسوله في أن
انهملت عبرتي وخفقت قلبي وانهقد لساني كأني في حضرة ملك عظيم .
بل كأني في حضرة أعظم الملوك وأجلهم قدراً وأوسعهم سلطاناً . وإن يكن
سلطانه سلطان بر ورحمة . لا سلطان جبروت ونعمة . ولم أستطع وتلك
حالي أن أغادر مكاني ، فتشبثت بأعواد الحجرة حتى دفعني الزائر
والزائرات عنها ليثمنوها تبركاً بها . هنالك جلست قبالتها وأطلت التحديق
فيها وقلبي مأخوذ عن كل شيء إلا عنها . ونظري ثابت نحوها لا يتحول يمنة
ولا يسرة ، فلما انحلت عقدة لساني أخضت أدعوني من أعماق قلبي رسول
البر والرحمة والتوبة والمغفرة أن يديم الله ما أنعم به علي من حال الرضا ،
وأن يفتح قلبي لمحبة الناس جميعاً . ونجبة أمثالي الذين أسرفوا في حياتهم
على أنفسهم ، وأن يسعنا جميعاً في رحابه ، وأن يتقبل توبة التائبين . وأن
يدخلهم فسيح رحمته .

وانخلت لي مكاناً في الروضة الشريفة أصلي فيه كل يوم فرائضي
الخمسة ، وأدعو الله مخلصاً أن يقبل توبتي ، وأتلفيه من سيرة الرسول
ما آتخذ منه الأسوة الحسنة . مع إقرارى بعجزى عن السمو إلى ذياك المقام
وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه .

وشعرت بقلبي يزداد كل يوم طمأنينة ، وينفسي تزداد كل يوم هلى .
فدفعني ذلك إلى التفكير في المقام بالمدينة أجاور الرسول الكريم ما بقى

من أيامى ، لكنى تركت بالقاهرة زوجاً أحسن إلى وولدين يشاقهما
 قلبى ، وتحنُّ إلى نظرة منهما نفسى ، ولئن استطعت أن أدعو الولدين
 لأراهما بالمدينة ولو مرة فى كل عام ، فليس من حقى أن أقيم بها إلا أن
 يأذن لى زوجى ، لذلك كتبت إليه كتاباً رقيقاً أشرح له فيه ما مرَّ من
 أحوالى وأشكر الله ما أنعم به على ، وأستأذنه فى المقام مجاورة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم حتى يختارنى ربي ، وأقمت أنتظر الجواب على خطابى .
 ولدهشتى وفرحتى جاءنى بعد قليل كتاب زوجى ينبئنى بأنه قادم إلى وبعه
 ابنتى ، وأن ابنى كان يود أن يحضر لولا أن أمسكته مصالحنى فى مصر
 ليرعاها .

ولم يطل انتظارى مقدمهم ، فبعد أيام من تناولى كتاب زوجى
 تسلمت برقية بأنهم أبحروا من السويس إلى ينبع فى طريقهم إلى المدينة ،
 أترانى أنتظرهم حتى يحضروا إلى ، أم أخف للقائهم بينبع ؟ كان الجواب
 على هذا السؤال مدار نزاع حامى الوطيس بين زوجى وقلبي ؛ قلبى يحركه
 الشوق إليهم فيدفعنى دفعا عنيفا لأذهب إلى ينبع . وروحي تحدثنى بوحى
 من عقلى أنهم سيلغون المدينة مساء اليوم الذى تستقبلهم ينبع فى صباحه ،
 وليس يشق على أن أنتظرهم هذه الساعات فلا يخلو مكانى فى أثناءها
 فى الروضة النبوية ، ولا أشغل خلاها بشيء عما أخذت به نفسى من عبادة
 ربي . وغلبت روجى آخر الأمر فأذعنت مؤمنة بأن غلبها كان بقضاء من الله
 وقدره ، وبقيت بالمدينة أنتظر القادمين العزيزين من غير أن أنقطع عن أداء
 ما لله على من حق .

واستقبلتهما وأنا في ثيابي الناصعة البياض . وحياتي زوجي في شوق وإكرام وتمنى لي حجاً مبروراً . وقابلت تحيته بمثلها في تواضع واحترام . أما ابنتي فاندفعت إليّ تقبلني وتعانقني وتضميني إلى صدرها فأشعر في هذه الضمة البتوية الصادرة من أعماق قلبها وكأنها تريد أن تعود بضعة مني كيوم كنت أحملها في أحشائي ، فيزداد قلبي وقلوبها امتزاجاً . وأحس بأننا روح واحد في جسدٍين . فلما فرغنا من حياتنا وحياتنا وعناقنا وذكرنا فم أني دعوت الله لهم ولأهلنا جميعاً سألت ابنتي : وكيف أخوك ؟ قالت : بخير يا أماه وهو يسأل متى تعودين إلى القاهرة ؟ ولحقت زوجي فإذا هذا السؤال مرسم على وجهه ، وإذا هو ينتظر أن يسمع جوابي عليه . قلت : ذلك ما ستحدث فيه بعد أن تقياً معي أياماً . وبعد برهة صمت قال زوجي : أولاً يجب علينا أن نذهب إلى الحرم تؤدي لصاحبه عليه الصلاة والسلام تحية القلوب ، قلت : ذلك لكما . وسأرافقكما . لكن الواجب عليكما أن تقرأ سيرته لتقدرا شرف مشولكما في حضرته حتى قدره . وهذه السيرة عندي يستطيع أيكما أن يقرأها إذا قام الليل إلا قليلاً ، فإذا هو زار الحرم بعد ذلك ووقف أمام الحجرة الشريفة استنار قلبه بنور صاحبها . وعرف كيف يتمتع الحق والخير والإيثار وإنكار الذات وسائر المعاني الرفيعة في نفس واحدة ، هي ملاك المعاني السامية كلها ، وهي القدوة خير قدوة لمن شاء أن يتبع خطاها ويسير في أثرها .

وقرأ زوجي وقرأت ابنتي السيرة وأخذنا يصحباني كل يوم إلى مسجد صاحبا ، ويجلسان معي في الروضة يصليان ويتعبدان ، على أنني شعرت

بعد أيام أنهما يحسبانى أبالغ فى تقواى ، فلم أعر حسابهما هذا بالأ ،
لأننى أدركت بما رأيت منهما أن أماً خاصاً يشغلها ، ونحلاً إلى زوجى
يوماً بين صلاتى العصر والمغرب إذ كانت ابنتى فى الحرم فسألنى : والآن
هل أستطيع أن أعلم متى اعتزمت العود إلى القاهرة ؟ فقلت : أوتذكرلى
أنت ما حدث بين ابنتى وزوجها ؟ . فأجبنى وقد علته الدهشة : وكيف
علمت ؟ . . وهل كتب إليك أحد من مصر بما حدث ؟ ! قلت : كلا ،
ولكنه إحساس خامر قلبي وشهد به عندى ما كانت تم عنه أسراريركما
كلما جاء ذكره فى حديثي معكما . قال مبتسماً بدء حديثه ، بادية عليه
سببا للأسف حين استطرد فيه : لا يزال ذكاؤك لماحاً برغم تقواك .
وكنيت أحسب أن الذكاء والتقوى لا يجتمعان ، أما وقد اجتمعا فلن
أستطيع أن أخفى عنك شيئاً ، والأمر يحتاج فى معالجته إلى حكمتك
وبصيرتك . إن ابنتك وزوجها يكثر اختلافهما حتى لأضيق أحياناً
بهما حين يحتكما إلى فأحاول إصلاح ذات بينهما ، وقد استطعت إلى
عهد قريب أن أتغلب على منازعاتهما وأن أردما إلى حمى الصلح والسلام ،
ثم استفحل خلافهما فى الفترة الأخيرة حتى خشيت انفصالهما وكدت
أبأس من إمكان تفاههما ، وإنا لكذلك إذ جاءنى كتابك تستأذنينى
فى البقاء بالمدينة هنا ، وقد انتهزت فرصة تناوله واتخذت منه حجة للكلام
فى غير ما يشتد جدلها حوله ، ثم رأيت حين قررت المجئ إليك أن تصحبنى
ابنتك راجياً أن يبعث بعدها شوق كل من الزوجين إلى صاحبه فينسبهما
الشوق لخلافهما . هذه قصتهما وقصتى معهما ، ولن يستطيع أحد ما تستطيعين

أنت علاجاً لحال يعصى على أمرها وأخشى أن يفلت من يدي زمامها .
 قلت : فلنستعن بالله فيما يعصى عليك . . فإذا جاءت ابنتي خاطبتها
 آملة أن أردّها إلى صوابها . لتردّ هي زوجها إلى صوابه .
 وذهبنا إلى الحرم وصلينا المغرب والعشاء وراء الإمام ، ثم عدنا وعادت
 ابنتي معنا .

فلما تناولنا طعامنا ، واستقر بنا المجلس ، قلت لها : لقد دار
 بظني أنك على خلاف مع زوجك إذ كنت أراك وعمك تنقبض أساوركما
 كلما جرى اسمه على لساني . وقد سألت عمك عن ذلك فأخبرني
 أنكما بلغ من أمركما أنّ خشي انفصالكما ، وأن كاد يئأس من إصلاح
 ذات بينكما ، فقيم تختلفان ؟ . . قالت - وهي تعبس دمة تفرقت في
 عينيها : هـ لقد أصبحت حياتنا لا تطاق يا أمّاه . . إن زوجي يريد أن
 يستأثر بكل شيء داخل المنزل ، على حين لا أسأله أنا شيئاً فيما خرج عن
 دائرة المنزل ، إنه يريد أن يكون السيد المطاع ، وأن تكون كلمته أمراً
 لا أناقشه فيه ، فإذا أردت أن أبدى له ملاحظة عن لون ثيابه أوزيه قال :
 مالك أنت وذلك ؟ هي ثيابي أنا ، متناسياً أن ما يوجه إلى ثيابه من نقد موجه
 إلى ذوق وحسن عتائتي ، وهو يريد مع ذلك أن يكون صاحب الرأي في
 ثيابي ، في لونها وقماشها وتفصيلها ، وأنت يا أمّاه تعرفين أن الرجال لا يعلمون
 شيئاً عن ثياب النساء ، فالنساء يغيرن أزياءهن والرجال معجبون دائماً
 بكل ما يصنعن ، حسب المرأة أن تملق غرور الرجل فتسأله رأيه في ثوبها
 ليبدى غاية الإعجاب بالثوب وبها ، وهذا وإن أوهمت المرأة زوجها بأنها

تستشيره قبل أن تختار القماش وطرز الثوب ، وبلغ من أمر زوجي معي حين نرت باستبداده أن قال يوماً : « إنني لا أريد أن تصيرى إلى ما صارت إليه أمك ! ! » عند ذلك رأيت الكأس قد طفحت ، وأنه وقد تخطاني إليك اليوم ، فإنه سيتخطاك إلى أبي غداً ، وإذا لم تقم الحياة بين الزوجين على تبادل الاحترام فلا خير فيها ، فالحب الذى يتجاوز الاحترام لا يكتفى وحده لاتصال الحياة بين الزوجين » ! . .

شعرت بأن ابنتي ذكرت إشارة زوجها إلى مصيرى لشير حماسى . لكننى كنت أشد حرصاً على مصيرها هى ، لذلك سارعت فأجبتها : « لا تحسبى رجلاً يستطيع أن يستبد بامرأة إلا أن يكون وحشاً كاسراً ، أو تكون المرأة عنيفة فقدت كل معانى الأنوثة ، أو مغرورة عبثت بها أنانياتها فلم يبق لزوجها إلا أن يفرض وجوده عليها » .

قالت ابنتي : « فأشيرى على يا أماه ! . . أنت تعلمين أننى أحب زوجى وأنه يحبنى ! . . لكننى أرى أن مشاركته فى الصغير والجليل من الشئون فقدان ثقة فى ، ولشد ما أخشى أن أبادله عدم الثقة فيكون لذلك من سوء الأثر فى حياتنا ما أريد جهد طاقى تجنبه » ! . .

قلت : « فاسمعى يا صغيرتى ، لا تطلبى إلى زوجك أن يثق بك ثقة عمياء ، وهولن يطلب إليك مثل هذه الثقة به ، أمتما شريكان فى كل شئ ، ومن حق الشريك أن يحاسب شريكه ، لقد خبرت هذا الأمر وبلوت من مره علقماً ، فتقة أبيتك العمياء فى هى التى أضلتنى ، وسبقه إياى إلى رغباتى هو الذى جر عليك وعلى أخيك أبلغ الضرر ، فهو لم يكن

يراجعني أو يصدني عن شيء وقد كنت معرضة للخطأ فيه ، حسب منى أنه كان يحبني وكنت أول سني زواجنا أحبه ، وأنتي لم أكن أسأله عن شيء في عمله لأنتي لم أكن أعرف ألف الطب ولا بابه ، وكان ذلك دافعي يومئذ لأرغب إليه في الانتقال من الطب إلى السلك السياسي ، ليكون سلطاني أفسح مدى ، لكنه أبى وأصر على إياه ، عند ذلك بدأ حبي إياه يضطرب في نفسي . والحب إذا اضطرب فصيره إلى الاحتضار والموت . وما قيمة حب لا مظهر له إلا أن يقول الرجل للمرأة ، أو تقول هي له : إني أحبك ، وألا يلتقيا إلا لإنجاب ذريتهما ، وألا يحاول كل منهما أن يكمل نقص صاحبه ليسمو به إلى ما يقر به من الكمال . ولو أن أباك راجعني بده زوجيتا فيما يخشى أن أتعرض للخطأ فيه وردني برفق لا يعرف العنف الذي كنت أواجه به بعد أن قر حبي له لما بلغت الأمور يتنا إلى ما تعلمين من انفصالنا . فلا تبالغي يا صغيرتي إذ تتحدثين عن حرص زوجك على الاستثمار بشئونك ، بل تسامحا وتشاورا وتشاركا في كل ما تستطيعان فيه تسامحا أو مشورة أو اشتراكا ينتقل ذلك بحبك من القلب إلى الروح . ولا حب كالحب بالروح بقاء ودواما .

أحسنست ابنتي الإنصات إلى حديثي . فلما فرغت منه قالت : وعلى ثغرها ابتسامة تشوبها السخرية : سامحيني يا أماه إذا قلت إنك لم تعرفي الرجال بعد برغم خبرتك الطويلة ، إنهم لا يكفيم أن يستأثروا بأجسامنا ، فهم يريدون أن يستأثروا بقلوبنا وعقولنا وأذواقنا وكل شيء في وجودنا ، إنهم لا حد لأنانيتهم ، وهم أشد حرصاً على أن يستأثروا بكل

ذلك من المرأة ما كانوا أشد لها حياءً ، وحرصهم يتجاوز كل حد إذا بلغ
حُبهم العيادة ، فإذا لم تصدم المرأة عن غيهم في الاستئثار المطلق بها فتي
أمامهم وجودها وأصبحت أمة رق لهم ، وهذا ما لا أرضاه ولن أرضاه
مخافة الغدوما أخشاه من مدلتى فيه .

وابتسمت كما ابتسمت وقلت : أنت على حق يا صغيرتى ، أنا لم
أعرف الرجال بعد كما عرفهم أنت ، ولكننا عرفت أن الرجل ضعيف
عنيف ، وأن المرأة ضعيفة قادرة ، فالرجل إذا استثير جابه الخطر ولو
كان في مجابهة الخطر حقه ، وجابهه مضطرب الروية زائع البصر ، غير
مؤمن بسلاح غير سلاح العنف . أما المرأة فالعنف ألد أعدائها . هي
حماة السلام ، فإذا نصبت نفسها للقتال فويل لها وويل للسلام ، وقدرة
المرأة في ذكاء أنوثتها ، هذه الأنوثة الذكية هي السلاح الحاسم الذى
تستطيع به كل شيء ، وتستطيع به أن تملك عقل الرجل وقلبه وروحه
وكل حواسه . والأنوثة الذكية تأنف العنف في كل مظهره ، لأنها
تدرك ما للرفق والمحبة من سلطان قاهر يعنوا له العنف ويتلاشى أمامه .
بالرفق والمحبة تجعل المرأة هزيمتها نصراً وإذعانها أكبر من النصر ، فعالجي
يا صغيرتى زوجك بذكاء أنوثتك وأنا كفضيلة لك بأنه سيكون طوع إرادتك
في كل ما تطلين .

قالت ابنتى في استسلام مصطنع : « سأحاول يا أماه ، ولعلى أجد
في حياتك درساً لى ، وإن كنت أخشى أن تغلبنى كبريائى يوماً فلا أبلغ
ما يشند حرصى اليوم عليه » .

وقاطعتها في عنف قائلة : « تعساً لباطل الكبرياء الذى ينفث فينا سموم الغرور ، إنه هو الذى يهزنا ويذلنا حين يكون النصر في قبضة يدينا . لا شيء يا ابنتي خير من التواضع ما لم ينزل بصاحبه إلى هوان المذلة . وإني لأدعو لك من كل قلبي أن تبلغ أنوثتك من الذكاء ما يفتح لك بالتواضع أبواب السعادة والهناء » .

قالت : ومتى تحضرين إلى القاهرة يا أماء لتسددي من خطاي ما أخشى أن يتعثر . ألا تعودين مع عمى ومعى ؟
وأجبتها : « ذلك ما سأحدث عمك فيه ، فأنا لا أستطيع أن أبقي هنا أو أعود إلى هناك بغير إذنه ، سأكشف له عن مكنون صدري ولا مرد بعد ذلك لحكمه . »

وأدركت ابنتي من عبارتي أنني أريد أن أدخل إلى عمها أحدثه فانسحبت متلطفة وقالت : أنا ذاهبة إلى مخدعي فلتسبياً بخير . ورددنا تحيتها بمثلها .
فلما خلونا قال زوجي : « أخشى أن يكون حوارك مع ابتك قد أجهدك وجعلك في حاجة إلى الراحة ، فإن شئت تحدثنا عن عودك إلى القاهرة بعد صلاة الفجر » ! . . .

وأجبت : « الأمر على عكس ما تظن . فقد أيقظ هذا الحوار كل حواسي وأطار كل خاطر للنوم من رأسي . فإن لم تكن أنت بحاجة إلى الراحة فأني مفضية إليك بذات نفسي . أما إن أثرت أن تسريح فأنا وما تريد » .
وآثر هو أن يسريح فتمت بجواره وألصقت جسمي بجسمه وشعرت بالدفء يسرى منه إلى كل وجودي ويبعث إلى قلبي من الطمأنينة ما سكن

من بقطة أعصابى وهفا بى إلى النوم ، واستيقظت مع الفجر وأيقظته وصليت مؤتمّة به . فلما فرغنا من صلاتنا ومن دعائنا قال :

— ألا ترين أنك تظلمينى إذا بقيت هنا وتركنى أعود إلى القاهرة أعانى الوحدة وآلامها ، إننى أدرك بعد الأيام التى أقمتها بالمدينة حلاوة هذه الحياة التى تحيينا ، تقضين معظم نهارك وطرفاً من الليل فى الحرم على مقربة من الرسول الكريم ، وكم تمنيت لو استطعت أن أجاوره كما تجاورينه ، لكنك تعلمين أن مصالحننا بمصر تحول بينى وبين هذه الأمنية العزيزة . . . ولك علىّ إن أردت أن تحبى كل عام وأن تروى أن أعاونك على ذلك ، وأن أصحبك فيه كلما استطعت إلى صحبتك سيلاً .

قلت - وقد ازداد قلبي رقة لهذا الرجل المحسن الكريم : « عزيز علىّ أن أدعك تعانى الوحدة فى مصر وأنت الذى أنقذتني منها . وكم نازعتنى نفسى إلى العود معك ، ولو أننا تحدثنا فى هذا الأمر يوم مقدمك إلى هنا لهفت نفسى إلى ما تريد ، فقد كنت أشعر يومئذ أنى بلغت من تطهير قلبي إلى ما يديم علىّ حال الرضا التى أكرمنى الله بها ، لكن الأيام التى قضيتها معى هنا أرهفت حسى نحوك وجعلتنى أشعر لك فى أعماق قلبي بما لم أشعر من قبل بمثل بأسه وسلطانه ، نعم ! إنى أحبك الآن حب امرأة لرجل ، فجسمى يهواك كما يحبك قلبي ، وأخشى أن ينسبني هذا الحب وهذا الهوى محبة غيرك من خلق الله ، وما خلق الله ، فإن حدث ذلك ، وشد ما أخشى أن يحدث ، زالت عني حال الرضا وعدت أعانى من حساب الضمير عن ماضى حياتى ما أنوء به . قد يكون هذا الحب العنيف من نزع

الشیطان ، وقد يكون اختباراً يريد به ربى أن يبلوئى وأن يشهدنى على ضعف نفسى وباطل غرورى : إذ أظن أننى سموت إلى مرتبة رضاه وروحي لا تزال تتجاذبها الأهواء ويختلط فيها الخيىث بالصيب . فهل لى أن أرجوك ، وأنت الزوج المحسن الكريم . أن تدعنى هنا أتابع ما بدأته من تطهير قلبى حتى أطمئن إلى نقائه ، ولعلك إن عدت للزيارة فى شهر رجب ألفتى فى طاعة الله وطاعتك سبابة إلى مرضاتك !!

كنت أنظر إليه وأنا أخاطبه بعينين ملئتاً عطفاً ومحبة . ثم كنت أراه مع ذلك مشدوهاً كأنما أخاطبه بلغة غير مفهومة . وقد ظل بعد أن فرغت من حديثى تعلوه الدهشة وكأنما يريد أن يتبين ما أريد فلا يسعفه ذكاؤه ، وبعد برهة ساد فيها بيننا الصمت قال :

أصدقك أننى لم أفهم كل ما قلته . لكنك ذكرت أنك أصبحت تحبيننى الآن حب امرأة لرجل : أو أفهم من ذلك أنك لم تكونى تحبيننى قبل أن تحضرى إلى المدينة ؟ ! وسارعت فأجبت : « لا تبالح يا عزيزى ولا تحمل ما قلته معنى لا يحتمل . إنما قلت إننى أحبيتك منذ جئت إلى هنا حباً لم أشعر من قبل بمثل بأسه وسلطانه . ولا أخالك تريدنى على أن أقصر عليك قصة عاطفتى نحوك من قبل فأنت تعرفها . وتعرف ما كان من حديث بعضهم عنها ، وكل الذى أرغب إليك فيه ألا تأخذك الشوة بحبى إياك اليوم ، وأن تدعو الله معى أن يديم على هذا الحب سلطانه من غير أن يحبسنى فى سجنه ، وأن بدع قلبى مفتوحاً لحب كل ما خلق ومن خلق حتى يدوم لى عفوه عنى فأبقى فى حال الرضا التى أنعم بها على .

لم يدعنى الرجل أستطرد فى الحديث بل قال :
 - بل أريد أن تقصّى على قصة عاطفتك نحوى فذلك أدنى لفهمى
 وأحب إلى نفسى .

قلت : أتراك راجعك شبابك يوم كنت تريد أن تتزوج صديقتى ؟
 ولكن لا بأس بأن أجيئك إلى ما يرضيك ، أنت تعلم أننى عرفتك أول
 ما عرفتك الصديق الوفى لزوجى الأول ، كما كنت الصديق الوفى لصديقتى ،
 كنت يومئذ أسترىح إلى مجلسك ، وأنس بحديثك ، وأغبط بحسن
 إصغائك إلى حديثى ، فكنت إذا جئت إلينا سررت بليقائك ، وحرصت
 على استبقائك عندى أطول زمن ممكن ، فلما أشركت زوجى الأول معك
 فى معاونة صديقتى على استخلاص ميراثها لم أجد بذلك أول الأمر بأساً ،
 لكنكما بالغتاً من بعد فى عنايتكما بهذا الأمر مبالغة أثارت نفسى بكما ،
 وأقنعتنى بأن جمال صديقتى ، لا الوفاء لأولادها أو لذكرى زوجها ، هو الذى
 يدفعكما إلى هذه المبالغة . ولقد كدت ، لمبالغة زوجى الأول ولكثرة تردده
 على صديقتى ، أحملك أنت التبعة لأنك شجعته على هذه المعاونة ودفعته
 إليها ، فلما أردت أن تتزوج صديقتى عرضت لى فرصة نادرة للانتقام منك
 ومنها فأفسدت هذا الزواج ، ومرضت أنت بعد ذلك واستبد بك المرض
 فتولانى الندم على ما فعلت وبدأت عواطفى نحوك تحرك قلبى ، وازدادت
 هذه العواطف حين أكدت لى غير مرة أنك لن تتزوجها ، وحين انقطعت
 كل صلة بينك وبينها ، على حين بقى زوجى متصل بها ، وبدأ العطف إذ ذاك
 يشوبه الود وإن لم يقلب حباً ، لأننا وقفنا صفاً واحداً ، تنكرت أنت على

صديقتي التي قاطعتني وأذاعت أنني أفقدت زواجها منك لأنك تزوجت
ولا أحب أنا زوجي لأنه أبى على ود صديقتي التي قاطعتني وطعنت عليّ .
وتضاعف ودي لك بعد أن هلك المرض بسبب فعلتي . وإنك واسيتني في
محنة احتضار حتى لزوجي مواساة استراح لها قلبي فاعترف بحملك وأقر
في أعماقه بعظيم فضلك . وازددت أنا إقراراً بهذا الفضل حين حاولت أنت
غير مرة أن تعيد الصفاء بيني وبين زوجي وفاء منك لصداقتي . مع يقينك
إذ ذاك بأنك تحاول المستحيل . من يومئذ وقت إلى جانبي فخفضت عني عبء
عزلي بعد أن انتقلت إلى الإسكندرية . ثم إنك أقنعت زوجي فطلقني
فضاعف ذلك ودي لك . فلما رأيته اضطرب في حياته الجديدة كما
تضطرب الخشبة الضئيلة ألقي بها في لجج البحر المتلاطم مددت يدك إليّ
فأنقذتني وترجعتني غير عانيّ بإثم الظن وقالة سوء ! . . . يومئذ غمرني فضلك
فأصفيتك كل قلبي فلم يبق لك من شريك فيه غير ولدتي . وزاد منك
هذا القلب حين اعتبرتهما ولديك . وبقينا من بعد ذلك السنين وأنا في
رحاب فضلك ، منسوبة أنا ولدي إليك ، نعيش في ظل عطفك وسابغ
برك ، فلما ارتد ولداي فتسميا باسم أبيهما تصارع في قلبي حبي إياك وحبي
إياهما ، فهرعت إلى البلد الأمين لائذة برئي لاجئة إلى حماه . وأقمت في
هذه الأرض المقدسة أدعو الله وأتوب إليه وأستغفره حتى اطمأن قلبي إلى أنه
غفر لي وعفا عني ومحا بفضل منه ما سلف من ذنوبي . عند ذلك شعرت
بأن قلبي وروحي عاودهما شبايهما وانفتحت لهما صفحة جديدة مبرأة
من الذنوب . فلما جئت أنت إلى هنا أحسست بهذا الشباب يتقل من قلبي
٣٠٥

بفضلك وجميلك انقلب حباً جارفاً . حب امرأة لرجل . بل عشق فتاة
 لشاب . عند ذلك أيقنت أن هذا الحب لم يكن وليد يومه ، وأنه لم يكن حباً
 من أول نظرة كما يقولون ، بل نشأ منذ عهد بعيد نطفة ثم مضغة ثم علقه
 جعل ينمو حتى بلغ اليوم فتوة شبابه ، ولقد كنت أسمع ولا أصدق أن حب
 الكهولة أعنف الحب ، وهأنذا اليوم وقعت في برائته بعد أن عشت في
 قلبي وأفرخ ، وبعد أن حملته في قلبي كل هذه السنين كما تحمل المرأة
 طفلها في أحشائها تسعة أشهر ، فإذا وضعته نسيت كل شيء ، بل نسيت
 حياتها من أجل وليدها ، وأكرر الآن أنني أخشى أن يبلغ من طفليان هذا
 الحب على أن يحبني في سجنه ، وأن ينسيني محبة ما خلق الله ومن
 خلق ، ولذا أعود فأرجوك باسم هذا الحب أن تدعني هنا أتابع ما بدأت من
 تطهير قلبي حتى يسع إلى جانب حبك حب خلق الله ، لأنه وسيلتنا إلى
 محبة الله ودوام عقوه وعطفه . فإن أذنت ولا أخالك إلا آذناً ، أسديت لي
 يداً تنفعني وتشفعك عند ربي ، فإذا عدت بعد ذلك يوماً إلى القاهرة عدت
 بريئة مطهرة ، وكنت النفس المطمئنة التي تطمع في أن يدخلها الله في عباده
 وأن يدخلها جنته .

كان زوجي يسمع قصتي مستريحاً لها راضياً عنها ، وتزداد أساريه
 انفراجاً كلما أمعنت فيها ، فلما فرغت منها ، هز رأسه وكأنما تولاه العجب
 وقال :

— لشد ما تختلف الصور لنتهى من بعد إلى التقاء ، بل إلى امتزاج ، فقصتي

معك تختلف عن قصتك معي كل الاختلاف ، والتقصتان تتجان مع ذلك إن
استراج قلينا أشد الامتراج ، لقد أحبيتك أنا من أول نظرة - يوم قدمي
زوجك الأول إليك على أنني صديقه الوفي . وقد تمتيت يومئذ لـ لم تكفي
وجه لأتزوجك ، ولعلك تذكرين أنك أنت التي طلبت إلي أن أعني
بميراث صديقتك وأبنائها . فاعتبر قلبي طلبك أمراً لا مفر من نفاذه .
ولا تنسى أنني استشرتك في الاستعانة بزوجك فأذنت لي . بل ألححت
عليه في معاونتي ، وأتاح لي ذلك فرصة الإكثار من التردد عليك وإرضاء
قلبي وروحي بمحاذيتك وسحر حديثك ، وكان ذلك يلهم حبي ويضاعف
الصراع بينه وبين الوفاء لصديق ائتمنتي على يته وشرفه . عند ذلك فكرت
في التزوج من صديقتك وأنا أعلم الناس بخفتها ونزقها ، لأجد في جماعها
وفي حواسها بعض ما يسكن شغفي بك وجبي إياك ، فلما أفسدت أنت هذا
الزواج آمن قلبي بأنك تحييني كما أحبك ، لهذا عاد الصراع بين الحب
والوفاء للصداقة أعنف مما كان . لكنني كتمت ما في نفسي إبقاء على
شرفك وشرفي وحاولت جهدي أن أعيد الحياة لحبك المحتضر . مكثت من حبي
إياك بالنظر إليك والمتاع بسحر حديثك ، فلما ذهب جهدي عبثاً وطلقت
من زوجك لم أرد أن أفاتحك بحبي حتى لا يصدق ما أذاعته صديقتك
من أنك أردت الطلاق لتتزوجي مني . لكن رأيك بعد ذلك ريشة
في مهب الريح فددت يدي إليك إرضاء لحب تأجج في صدري كل هذه
السنين ، فتزوجنا . يومئذ اطمأن قلبي ولم يعني من بعد أن يقول مطلقك
إني خنت عهد صداقته ، فإله يعلم وأنت تعلمين كم وفيت له وكم قاسيت

في سبيل هذا الوفاء . ولهذا أمتعنا الله سنى زواجنا بالسعادة والنعمة ، وكذلك
امتزج قلبانا بعد أن بقيا متحاذيين على طريق الحياة السنين الطوال ! ..

وسكت الرجل بعد ذلك هنيهة ، ثم قال :

على أتى يزداد يا عزيزي عجبى حين تذكرين أنك لم تشعرى
ببأس الحب وسلطانه ما تشعرين اليوم ، ثم تريدن مع ذلك أن تفرق !
أصدقك القول أتى لم أفهم هذا التصوف الذى تلبسين اليوم لباسه ،
وكنت أحسب أن سلطان الحب الذى حدثنى عنه سيدفعك إلى مصاحبتى
والعود معى إلى دفء عشنا الجميل بالقاهرة .

قلت وفي صوته نبرة التوسل والاستجداء :

- أنت تعلم أنك إن أمرتني أن أعود معك فلن أعصى لك أمراً ،
وأنى لن أقيم هنا إلا بإذن منك تبذله عن رضا وطيب نفس ، وإنما أضرع
إليك أن تدعنى هنا فى جوار الرسول إلى رجب المقبل حتى يطهر قلبى ، ويقبل
منى ربي ، ويصدق عنده توبتى فلا تشوب نفسى بعد ذلك شائبة من وزر
أوهى ، ولك على عهد الله وميثاقه إن أنت رغبت إلى خلال هذه الأشهر
السته أن أعود إلى القاهرة ، ولو بعد أيام من وصولك إليها ، فستجدنى
حاضرة عنك إيماناً منى بأن قلبك هو الذى دعانى .

وبعد هنيهة أفضت : والآآن أطلب إلى هذا القلب الكبير أن يأذن
ببقائى . ذلك رجاء أتوسل إليك فى ضراعة أن تقبله ، والأمر بعد الله لك
جزاء حبك وإحسانك وبرك .

كان زوجى مطرقاً وأنا أتكلم ، فلما فرغت من حديثى رفع إلى رأسه .

وقد ارتسمت معاني الطيبة والحب على محياه . وقال :

ما كنت لأحول بينك وبين ما تطمعين فيه من مغفرة بارئك وعفوه .
فأنت وما تريدن . أقيمي إلى جوار الرسول الكريم ما طاب لك المقام .
ولا تنسي الدعاء لي أن يغفر الله ذنوبي ! . . أقيمي راضية عني مرضية مني .
وأرجو الله أن يجمعنا هنا في زيارة رجب وأن تطيب نفسك يومئذ بالعود
إلى أرض الوطن طاهرة مطهرة .

عقدت غبطتي بكرم عواطفه لساني . فلم أجد الألفاظ التي تكفي
للثناء عليه ، فقامت إليه فقبلته قبلة شكر ومجبة ، ثم قلت له : « فليتول
الله جزاء إكرامك إياي وإحسانك لي » ! . .

وانتقلنا بالحديث إلى مألوف القول ، ثم اتيت بعث بالخادم فدعت
ابنتي فتناولت فطورها معنا ، فلما فرغت منه سألت : أو تعودين معنا
يا أماه ؟ وأجبته : قد أذن لي عمك يا ابنتي في المقام هنا إلى زيارة رجب
على أن أخف بالعودة إلى القاهرة ساعة يدعوني إليها ، وإن لساني ليعجز
عن شكره على جميل صنيعه . أما وقد علمت منه أنكما تعودان إلى مصر
على الباخرة التي تبهر من ينبع بعد غد فإني أرجو لكما السلامة ، وأحملك
إلى أخيك قبلات شوق ومحبة ، وكم أتمنى لو أتيح له أن يحضر إلى هنا
لأراه كما رأيته ، وأروى برؤيته شوق الظامئ لضمه إلى صدرى وهو
لا ريب أحكم من أن يحتاج الأمر بيني وبينه إلى سوار كالذي دار بيني
وبينك .

وابتسمت الشابة وقالت : « إن طيبة قلبه وكرم خلقه وشدة حبه

لزوجته يغنيه عن مثل هذا الحوار.

« ولقد فكرت هذه الليلة طويلاً فيما أسديت لى يا أماء من نصائح
فرايتك على حق ، أهو عقلي الذى هداى إلى تبين هذا الحق ، أم هو وحي
هذه المدينة المنورة ، أم أنهما تآزرا على هدايتى ؟ ! . . أيا كان الأمر
فإنى شاكرة لك من أعماق قلبى ، مستغفرة عما لعله فرط منى فى أثناء
حديثى . »

وقبلتها وقلت : « إن الهدى يا ابنتى هدى الله . أمتعتك الله بالسعادة
والهناء ! ! . . »

وفى الغد تأهب زوجى وابنتى للسفر إلى ينبع فصحبتهما إليها ، وودعهما
حين أبجرت الباخرة ، وعدت فى رفقة إلى المدينة ، واتخذت مكانى من
الروضة وحمدت الله أن هدى ابنتى إلى الحق وهدى زوجى ليدعنى فى جوار
الرسول الكريم ! ! . .

الفصل الحادي عشر

عدت إلى المدينة وإلى مكاني من الروضة في المسجد النبوي وقلبي
مفعم غبطة أن أتاح الله لي فرصة كاملة لتطهير روحي من كل شائبة .
ورأى خادم المسجد أعود وحدي إلى مكاني بعد أن كان زوجي وابنتي
يصحباني إليه ، فتلطف في السؤال عنهما . فلما علم أنهما عادا إلى مصر
وأنها سيحضران إلى المدينة في زيارة رجب دعا لهما بالخير وأثنى عليهما
أجمل الثناء ، وتمنى لهما زيارة في رجب موفقة . وكذلك عدت إلى مالوف
سيرتي قبل مجيئهما من مصر ولا أشك في أن الله قد رضى عني . وأن بقائي
بالمدينة يأذن بذله زوجي طيب النفس ببذله خير مظهر لهذا الرضا .

وأقمت الأيام والأسابيع والشهور من يومئذ أمعن في تطهير نفسي
وقلبي ، وأطمئن إلى من بمصر من رسالاتهم إلي . وأدعولهم وللناس جميعاً
بالخير . وإن شهر رجب ليقترب ، وإن نفسي لتنفو لرؤية الأعزة ولصحبته
في زيارة مدينة الرسول ومسجده وآثاره ، إذ تناولت من ولدي بريقة نصها :
« صحة عمي توجب حضورك فوراً » ! ولشد ما أزعجتني هذه البرقية
وجعلتني أضرب أخماساً لأسداس أحاول أن أحس ما أصاب زوجي .
لقد كان في كمال صحته يوم كان هنا ، ويوم ودعته يبيع ، ترى أصابته
ثوبة من تلك النوبات التي تخشى مغبتها فدفعت ولدي ليعث إلي يدعوني

إلى القاهرة ؟ فأننا أعرف ولدى وأعلم أنه لا يزعمنى هذا الإزعاج لطارئ
لا نخشى عواقبه ، لابد إذن من السفر على أول باخرة تبصر من ينبع .
وتجهزت للسفر واتخذت له كل عدته ، وذهبت إلى ينبع وأبحرت
منها إلى مصر ، وكان زوج ابنتى فى انتظارى بالسويس . فلما رأيته
سألته فى لهفة عن أنباء عمه . وحاول الشاب أن يطمئننى لكن محاولته
لم تزل مخاوفى ، لأن سؤالى جعله فى حيرة اضطرب لها هنيهة قبل أن
يتكلم ، ثم لم تكن عبارته حين تكلم عبارة الواثق بنفسه ، وقلت له :
« لا تخف عنى شيئاً يا بنى ، إننى سأرى الرجل بعد ساعات إن كان
لا يزال على قيد الحياة ، فأصدقنى ولا ترد بمحاولتك اضطراب نفسى » .
وكان جوابه : « لقد أصابته يا أماء نوبة قلبية شديدة هى التى دفعتنا
لاستدعائك على عجل ، وكانت صحته قد بدأت تتحسن حتى لقد عاتبنا
أمس على إزعاجك لكنه استيقظ فجر اليوم متعباً فدعونا له الطبيب
قبل أن تطلع الشمس ، ولم أستطع البقاء لأعرف رأى الطبيب مخافة
ألا أدرك الباخرة أول وصولها ، وكلنا ندعو الله من أعماق قلوبنا أن يمن عليه
بالشفاء وأن يرد إليه العافية . »

وأضرت لما سمعت ورفعت رأسى أدعوا الله من أعماق قلبى ألا يسيئنى
فى هذا الرجل الطبيب الذى أحسن إلىّ وأنقذنى ، ثم أحسن إلى سنوات
طوالا بعد زواجنا ، ثم أحسن إلىّ مرة ثالثة فأذن لى فى مجاورة الرسول
الكريم .

وأقلتنا السيارة تنهب طريق الصحراء إلى القاهرة ، فلما دخلت

غرفة المريض العزيز وأنا في ثوب الإحرام الناصع البياض . نظر إلى بعينين
ملاهما الدمع نظرة شوق ويأس . وأقبلت عليه فقبلت جبينه ويده وإن
أرتجف لشدة ما أصاب قلبي من الخفقان . فلما هدأ روحي بعض الشيء
أمسكت يده وقلت : « شفاك الله يا حبيبي وعافاك . إنها دعوة يهتف بها
قلبي منذ عرفت وأنا بالمدينة بعض ما أصابك . وظل يهتف بها في كل
صلواتي وخلواتي وساعات قنوتي وتهجدتي ، وأرجو أن يسمع الله لي . إنه
سميع الدعاء » . فنظر إلى بعينين ملتئماً يأساً وقال في همس : « شكراً لك
يا حبيبتي . لكنني أحسن دنو الأجل . . نعم ! . . إنها النهاية . فاستغفري
لي ربك هنا ، واستغفريه حين تعودين إلى المدينة تجاورين رسول الله الأكرم » .
وسكت بعد ذلك برهة ثم قال في صوت خافت لا يكاد يبين : « وداعاً
وحمداً لله أن رأيتك قبل أن ألقاه لتستغفريه لي ، فأنت ولية الله الصالحة » ! ..
قلت : « بل أنا يا حبيبي المذنبه الثابتة . فليغفر الله لك ولي . وليرحمك
ويرحمني ، إنه رب القوى ورب المغفرة » ! ..

وأسبل الرجل عينيه ... أتراه ودع الدنيا ؟ . أتراهي حضرت من
المدينة إلى القاهرة لأراه هذه اللحظة القصيرة ؟ . أتراه ودعني حقاً وداع
الأبد ؟ ! ..

عاد إلى قلبي خفقانه ، وعادت إلى جسمي رجفته ، ولم أشعر ويده
لا تزال في يدي أتلجها الموت أم أنها لا يزال فيها دفء الحياة ! . . وإني
لنفي هذه الحال من الحيرة والاضطراب إذ دخل الطبيب الذي عاده وأنا
لا أزال بالسويس ، فلما رآني استأذنتني وأخذ يد زوجي من يدي ثم وضع

أذنه على قلب الرجل ثم قال : البقية في حياتك يا سيدنى . وانصرف .
 رياه ماذا أصنع ! هذا قضاؤك لا مرد له ، أصبح كما تصبح النساء ؟ ..
 أدخل ثياب إحرامى لألبس السواد ؟ . خنفتنى العبرة وهوى قلبى إلى
 قرار سحيق وجبس صوتى فلم أجد إلى الصباح سيلا . ولقى الطيب ابنتى
 صاعدة إلى الغرفة التى أنا بها فأسر إليها النبأ الفاجع فدخلت على والدعم يملأ
 عينها وقبلتنى وفى نبرات صوتها حزن لم تعرفه يوم مات أبوها ، وأقبل ولدى
 ومعه زوجه وزوج ابنتى واجتمعنا كلنا حول هذا الميت المسجى فى فراشه
 وأنا لا تنفج شفتائى عن كلمة ، وإن هملت عينائى بالدعم الهتون ، وجاء
 جيراننا يشاركوننا مصابنا فتلقيناهم فى حجرة أخرى .

وخرج ولدى وزوج ابنتى بعد أن لدفن الميت ، وذهبت ابنتى وزوج
 ولدى فلبستا السواد وعادتا ، أما أنا فبقيت فى لباس إحرامى ، لأن
 وجيعة قلبى لم تكن بحاجة إلى لباس يعبر عنها ، بل كانت تعبر عن نفسها
 بأبلغ مما يعبر عنها أى مظهر .

وأى وجيعة لقلب امرأة فى كهولتها أقسى من أن ترى حبيها الذى
 اكتمل وملاً دمهياً وأعصابها كما ملاً قلبها يتحطم على صخرة الموت فلا يبقى
 له فى متاع الحياة أمل أورجاء .

ودفن زوجى عليه رحمة الله قبيل المغيب من يوم وفاته ، فلما ذهبت
 إلى مرقدى بعد أن صليت العشاء الآخرة ذكرت ، ويالهول ما ذكرت !
 ذكرت يوم رجائى رسول زوجى الأول أن أذهب إليه وهو فى ساعات
 احتضاره ليسمع منى بأذنه أننى سامحته فأبيت . ! ألا كم كنت قاسية

يومئذ ! . . أويغفر لي ربي هذه القسوة ؟ وغفوت فإذا الغليظ الملتفت في
أكفانه . . طيف زوجي الأول ، يبتدى لي قائلا : لا عليك مما صنعت
يومئذ . لقد سامحتك كما سامحتني . فليغفر الله لك ولى . فنامى هادئة
مطمئنة .

واستيقظت الصباح بعد غفوة غفوتها بعد صلاة الفجر . فلما تقدم
النهار انتقلت إلى بهو الاستقبال أتلقى العزاء ممن جئن مواسيات . فإذا
بينهن صديقتي . فلما مال ميزان النهار وانصرف الناس بقيت هي حتى
خلت إلى ، عند ذلك قالت : « جئتك يا صديقتي معزية في زوجك
الذى اختاره الله إليه أمس ، وفي زوجك الأول ، ولأقسم لك أنني ما كان
يبنى وبين أيهما إلا المودة البريئة الطاهرة أملاها على اعترافى يجمليهما في
استخلاص ميراثى وميراث أبنائى . وأملاها عليهما شهادتهما ومروءتهما .
أما وأنت اليوم ولية الله الصالحة التى جاورت رسوله الكريم فقد جئت إليك
مستغفرة عما فرط منى في حقلك ، راجية أن تسامحنى ليغفر الله لي ! ! . .

وذكرت لحديثها ما رأيت في نومي وأنا بمكة حين سعينا معاً ، وطفنا
معاً ، وأقسمنا أن نعود صديقتين كما كنا ، فقصصت عليها رؤياى تلك
وتفسير الأستاذ الذى يحاضر الناس في الحج مغزاها ، وكيف أتى طهرت
نفسى من كل موجدة عليها ، فعدنا صديقتين كما كنا ، ثم قلت لها :
« وأنا يا صديقتي لست ولية الله الصالحة كما تذكرين ، وكما ذكر
زوجى أمس وهو في احتضاره . . إنما أنا المذنبة النائية التى ترجو عفو ربها
ومغفرته ذنوبها » .

وقامت صديقتي فقبلتني قبله شعرت بها صاعدة من أعماق قلبها وقالت : « شكراً لك ، والحمد لله أن عدنا صديقتين كما كنا ، وإني لشاكرة من كل قلبي أن أكون من جديد صديقة لولية الله الصالحة » ! .

وقلت من جديد : « بل للمذنبه الثابتة ، ولعلنا نلتقي يا صديقتي عما قريب في بيت الله فتطوف معاً ونسعى معاً لتصبح رؤياي حقا ، ولتتروى معي مدينة الرسول الكريم وتبركي بمسجده والصلاة في روضته » ! .

وقبلتني صديقتي من أعماق قلبها قبله أخرى وقالت : فليسمع الله منك وليهيئ لي بفضلها حج بيته وزيارة نبيه ورسوله .

وودعني وودعتها وقد امتلأ قلبي حبا لها وعطفاً عليها وبراً بها ، فلما عدت إلى مجلسي بعد انصرافها رفعت كفي أشكر الله على تطهير قلبي وروحي ووجداني .

وانقضت أيام العزاء ، فلما كنا عشية الجمعة الذي تلا الوفاة أوصيت بشراء قدر كبير من الورود وأغصان الشجر وما يوزع على الفقراء في المقابر من الطعام . وفي صباح الجمعة صحتي ولدي وابنتي وزوجاهما إلى قبر المتوفي وهناك قمنا بمراسم تحيته والدعاء أن يرحمه الله ويغفر له ، ووضعت نصف ما معنا من الورود وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت على الفقراء الذين أحاطوا بنا ساعة خرجنا من عنده نصف ما معنا من طعام ، ثم قلت لولدي : هيا بنا إلى قبر أبيكما ، فأقبل ابني وابنتي يقبلانني في لهفة وقد ملأ الدمع أعينهما . وبلغنا مقام القبر ودخلناه وحيينا صاحبه ودعونا الله أن يغفر له ويرحمه ووضعت الورود وأغصان الشجر على قبره ، ووزعت ما بقي معي من

طعام على الفقراء . وقبيل خروجنا لم أملك عيرتي . فقد ذكرت الضيف
الملتف في أكفانه يوم هتف بي أن الله غفر له وني . وقلت مناجية ربّي :
« رب ما أعدلك وما أرحمك وما أعظم فضلك . رب لقد بلغتني حتى ضهر
قلبي ، رب فاعف عني ، وسعت رحمتك كل شيء » ! ! .

ومن المقابر عدنا إلى بيت ولدي . فلما دخلنا بهو الاستقبال وواجهتني
في صدره صورة زوجي الأول شعرت لمراها بصدمة لم أكن قط أتوقعها
بعد أن كنت منذ قليل على قبره وأديت له واجبه . فقد أثارت هذه الصورة
أمام بصري منظره الكامل في حياته ، كما رأيت عينيه تنظران إليّ وكأنما
تريدان أن تحترقا شغاف قلبي إلى دخيلة ضميري لتربا فيه الدافع الصحيح
لذهابي إلى قبره وقيامي بما قمت به عنده . إذ ذاك رأيتني أضطرب في موقف
وشعرت بالعرشة تسري في جسمي ونخيل إليّ أن ماضي حياتنا يرسم كاملا
أمام بصيرتي ، ولم يغني ما ذكرت من صفح هذا الرجل الكريم عني .
بل تضاءلت نفسي أمام هذه الذكرى ، وبدأ لي أن أوهامي تخدعني . وأنتي
لم أبلغ بعد من طهر القلب والضمير ما حسبت أن الله أكرمني به . وأفاء
علي من أجله حال الرضا .

وعدت في المساء إلى بيت الزوج الذي أصفيته حبي إلى آخر نسمة
من حياته ، واتخذت من أصغر حجرة فيه مصلى أخلوها إلى نفسي ساعات
وحلتي وأحاسب فيها نفسي بعد صلواتي ، وكانت كثيرات من صديقاتي
يزرنني يسرين عني بعض ما أمضى من عميق شجني . وكن جميعا
يبحثن لابسات السواد المألوف في مصر ، فرأيت ناصع الياض الذي ألبسه

غير متفق مع مظهرهن ، فلبست السواد مثلهن ، وإن استبقيت طرحتي
اليضاء لصلواتي ولأذكر بها أيام سكينه النفس وطمأنينه الضمير ، وكان
ولدى وابنتي يقضيان معي أوقات فراغهما حتى لا تثقلني الوحدة بهومها
فتزيد اضطراب نفسي ووجيعه قلبي .

وبدا لي بعد زمن أن أعود إلى المدينة المنورة لعل في حياتها ما يخفف
عني ويهون علي مصابي ، لكنني خشيت أن يبلغ ما كان يعاودني من تخاذل
النفس واضطراب الأعصاب مبلغ الخطر على حياتي وأنا في وحدتي وغربتي ،
وقد استشرت الطبيب فأقر مخاوفي وأشار بضرورة تريثي ، فأثرت أن أبقى
حتى تهدأ ناثرتي وتثوب إلي سكينتي ، فإذا ذهبت بعد ذلك إلى المدينة
استطعت أن أؤدي لله حقه ، وأن أرجو عفوه ومغفرته .

وأقمت في بيت زوجي أستقبل زائرائي وأستريح إلى صحبة ابني وابنتي ،
فإذا لم يبق بالمتزل جليس ذهبت إلى حجرة خلوتي أؤدي فرائضي وألتمس
عون الله في محنتي . وكنت أحسب أن مضي الزمن كفيل بشفاء نفسي
من الاضطراب الذي كان يعتادني ، لكنني شعرت بعد لأي بأن نفسي
ترداد اضطراباً ، وبأن الأرق يتولاني ، وبأن الهواجس تعصف بفؤادي ،
ثم إنني ما لبثت أن استبد في الفزع حين شعرت بأن صلاتي وخشوعي
وتهدئي وقنوتي لم تبق خالصة من الشوائب ، فقد جعل زوجي الذي أصفه
كل حين زائري بالمدينة من أنني أصبحت أحبه حب امرأة لرجل ، وأحبه
بحوامي وبدمي وبأعصابي ، فيزداد دمي هملاً على حب ملك علي

كل وجودي ، ثم أتى عليه الموت حين بلغ عتفوانه . وقبل أن أستمع
بشمراته .

ولم تكن هذه الذكرى المريرة بعض أحلامي وكفى . بل كانت
غصة يقظتي ، وكانت تساورني وأنا في صلاتي . وقد حاولت مغالبتها
بالفرع إلى ربى كى ينقذنى منها فإذا هى تزدد تمكناً من نفسى ووروداً
إلى خاطرى ، وتبلغ من ذلك أن تخرجنى من صلاتى فأستغفر ربى ثم
أعود إلى الصلاة فلا يلبث شيطان الذكرى أن يثير أشجائى ويفسد من
جديد صلاتى .

ذكرت وأنا فى هذا المضطرب النفسى ما كنت قطعته لزوجى من
عهد أن أعود معه إلى مصر بعد زيارة رجب لنستمع بهذا الحب الذى
استوفى كماله ، وكيف اضطرت إلى العودة قبل هذا الموعد بأيام لأشهد
احتضاره ولأودعه الوداع الأخير ، ترى لو أن الله قد غفر لى حقاً ، وكانت
الرؤى التى رأيتهأ شاهدة بهذه المغفرة صادقة . أفكان الله يمتحننى هذا
الامتحان القاسى الذى لا يصبر عليه قلب إنسان ؟ أم أن تلك الرؤى كانت
من أفانين الخيال ، وأن هذا المصائب الذى حل بى كان بعض الجزاء
الذى ادخره القدر لى عن ماضى حياتى ؟ .

وكنت أزداد كل يوم شعوراً بالوحدة والعزلة ، وبأننى لم يبق لى فى
هذا العالم صديق أو أنيس بعد أن فقدت هذا الصديق الأنيس والزوج
الحبيب . ولم يدر بخللى فى هذه الساعات التى كوت لواعج الحزن
فيها شغاف قلبى أن الله وهبنى ابناً وابنة يؤنسان وحلى ويضعلمان جراح
٣١٩

قلبي ، بل كدت أنسى هذين الولدين اللذين أراهما كل يوم ، وأنسى أنهما
بضعة منى وأنهما امتداد حياتي .

وكذلك كان شعوري بالفاجعة يزداد عنفاً على الأيام حتى لقد
كنت في كثير من الأحيان أقضي الليل مسهدة محزونة ، فإذا أوشك
الليل أن يولي ، غفوت وطلبت غفوتي فلم أستيقظ لصلاة الفجر ، ثم لم
يسعني أن أستغفر عما فرط مني ، لأنني كنت لا أكاد أتم استغفاري
حتى أعود إلى بئى وحزنى ، وأندب ما قضى عليه الموت من حبي ، وأعود
على نفسي باللائمة أن لم أعد مع زوجي من المدينة المنورة إلى مصر ،
يوم دعاني للعودة معه ، لأمتع هذا الحب بما يشق غلته خلال الأشهر
الخمس التي عشها بعيدة عن هذا الحبيب ، ومن يلدى ؟ . فلعل لوصيغته
يومئذ وعدت معه لما دهمه الموت مستعجلاً ، ولكنك قد بعثت إليه من حيوتي
وحياتي ما أطال في حياته وحفظه لي ! .

وكانت تقواي تعاودني فأحاول التغلب على هذه الحال ، فكنت
أمرغ وجهي في التراب لعل روجي تطهر بتعذيب جسمي ، وكنت
أصوم الأيام المتعاقبة راجية أن يعيد إلى الصوم طمأنينة النفس ، وكنت
أهرع إلى البؤساء والمساكين الذين يقفون على أبواب المساجد أستجديهم
كلمة عطف لعل الله يغفر لي ، ثم كنت بعد كل ما أصنع من ذلك أشعر
بترغ الشيطان ، وكأنما يقول :

« وماذا أفدت من تقواك ومن صلواتك وقنوتك وعبادتك ، إلا أن
قضيت على الرجل الذي كان يحبك حب العادة ! عودى إلى صوابك

وفكرى لغدك أكثر مما تفكرين فى أمسك . ولعل الحظ الذى أتاح
لك من أنقذك من وحدتك . يوم طلقك زوجك الأول يد إليك بده
مرة أخرى ، وبهيء لك من ينقذك من شجك ومن هموم كهونك » ! .
ولقد سخرت من نفسى حين نزع الشيطان لى . ونظرت مع ذلك
إلى وجهى فى المرآة ، فرأيتنى ولا تزال فى عبنى جاذية شبابى . وإن
خطت الكهولة على جينى بعض سطورها . وسرعان ما استعذت بالله
من الشيطان وزرعه ، وهتفت به جل شأنه ضارعة إليه أن ينقذنى من شر نفسى .
وأن يهدينى سواء السبيل .

وانتنى لتساورى هذه الهواجس . وتعبت فى هذه الموم إذ جاء
إلى ولدى ذات صباح مقطب الجبين ، يذكر لى أن أخته تركت بيت
زوجها وجاءت إلى بيته تقيم به . وأنه حاول أن يعيد الصفاء بين الزوجين
فلم تفلح محاولته ، وأن هذه لم تكن أول مرة اشتد الخلاف فيها بينهما ،
وأنه يلجأ إلى لتدبير الأمر بحكمتى بعد أن تولاه اليأس منه ، وبعد أن
خشى أن يؤدى إلى نتائج لا تحمد عاقبتها .

وتولتنى الدهشة لما سمعت ، فقد كنت مقتنعة إلى يومئذ بأن ما دار
من حديث بينى وبين ابنتى حين زارتنى مع عمها بالمدينة قد ردها إلى
صوابها ، وأن ما قلته لها عن ذكاء الأنوثة وسلطانها القاهر قد مكبها من التغلب
على نزواتها ونزوات زوجها . . وكان مصدر اقتناعى هذا أن ما كان يرد
لى من خطابات ، خلال الأشهر الخمسة التى كنت فيها بعيدة عنهم ، لم يرد
فيه شيء يزعرع هذا الاقتناع ، بل كانت كلها تتحدث عن هناءتهم

وسعادتهم في انتظار عودتي إليهم . . أفجدّ بعد عودتي إلى مصر جديد آثار
منازعات الزوجين ؟ . . وهل يحدث مثل ذلك ونحن نعالج هنا ونحاول
أن ندأى مصابنا ؟ . .

وأطرقت برهة أفكر في الأمر وكيف أتدبره ، وفجأة انحدرت من
عيني دمة لخاطر مرّ بخيالي . . أو لم تكفني وفاة زوجي عقاباً لي على ما سلف
من أوزاري ؟ أم يريد القدر أن يضاعف عقوبتي في شخص ابنتي ؟ . .
أين إذن ما كان من توبتي واستغفاري ؟ . . لست أنا إذن ولية الله الصالحة ،
بل لست إذن المذنبه الثابتة ، فما هي ذى توبتي لم تقبل ، وهأنذا أواجه
من قسوة القدر ما لا قبل لي به ، ولا طاقة لي باحتاله .

وبصري ولدي والدمة تنحدر من عيني ، فزائل جبينه قطوبه وأقبل
على يواسيني ويخفف الهم عني ، ورفعت عيني ونظرت إلى وجهه ، فإذا
الطيبة بكامل معناها مرتسمة على أساريره ، طيبة أبيه زوجي الأول ، وإذا
هو يقول لي : « لا تجزعي يا أماء . سأبذل لراحة أختي كل ما أستطيع بذله ،
وإذا لم يكن إلى مصالحتها مع زوجها من سبيل ، فسأحمل عبء حياتها ،
لتعيش كريمة ما حييت وما استطعت إلى ذلك سبيلاً » .

وقبلته وقد ازداد تأثري لمشابته أباه في طيبته ، كمشابهته إياه في
ملامحه ، ألا كم جنيت عليه وعلى أخته بانفصالي عن أبيهما بعد أن
بذل في سبيل رضاي كل ما يستطيع إنسان بذله ! وبعد هنية قلت له :
« عد إلى منزلك وسألحق بك فيه به عما قريب » .

وانصرف الشاب وذهبت أنا إلى خلوتي أصلي بها ركعتين لعل الله

يهديني الرشاد في أمر ابنتي . وما كدت أتم صلاتي حتى امتلأت عيناي
بالدمع مرة أخرى ؛ إذ خيل إلي أن شواظاً من جهنم قد سلط على ضميري
يعذبه ، وأن هذا الشواظ قد صور في شخص ابنتي . وأنتي لن يهدأ لي بعد
اليوم بال ولن تطمئن لي نفس لأنني عذبت أباها . فحق علي أن أوفي
جزاء ما قدمت يداي فأتعذب لعذابها ، وأتألم لألمها . وبعثاً حاولت أن
أطرد هذا الهاجس الذي استبد بي زمناً لم أدر أطل أم قصر ؛ ولولا أنني
خشيت أن يطول على ولدي غيابي لأمسكني هذا الهاجس . فلم أستطع
من خلوتي حراكاً ، لهذا قمت وارتديت ملابس خروجي وذهبت إلى منزل
ولدي .

ودخلت على أهله فألفت زوج ولدي تحدث ابنتي في رفق تحاول
إقناعها بالعود إلى زوجها ، وجلست إليهم سألت ابنتي : ما أغضبك ؟
قالت وفي نبرة صوتها حدة لم آلفها يوم تحدثت إليها وأنا بالمدينة المنورة
لأعيد الصفاء بينها وبين زوجها : « لم يبق يا أماه في قوس صبري مترع .
ولم يبق من انفصالي عن زوجي مفر ، لقد كنت أشكو من قبل تدخله
في أخص شئوني ، وقد استطعت بفضل نصائحك أن أتغلب على ذلك
بتمليق غروره تارة ، وبالتظاهر بمواقفته أخرى ، أما اليوم فالأمر مختلف .
لقد تمكنت الغيرة من نفسه على نحو شبه الجنون ، وهولا يغار من رجل بذاته .
بل يغار من كل رجل ينتجه إلى نظره ، وإن له لصديقاً يزورنا بين الحين
والحين ويحاملني بالثناء على ثوبي ، أو يبدى الإعجاب بحسن حديثي ،
فإذا انصرف رأيت زوجي انقلب شيطاناً يحاسبني على كل كلمة قالها

صديقه ، وقلت له حين تكرر ذلك منه « إذا جاء صاحبك هذا إلى هنا فلا تدعني لألقاه حتى لا تثور غيرتك » . وكان جوابه : « وما تريدني أن أقول عني ؟ . . أتريدني أن يهمني بالتأخر ؟ . . لكن واجبك ألا تتزني زينة تثير إعجابه ، ولا تتحدثي حديثاً يستدعي طول إنصاته » . وأجبت إلى ما أراد ، فلما جاء صديقه يوماً ودعاني هو إلى مجلسهما ذهبت إليه في ثياب أشبه ما تكون بثياب المنزل ، ولم أزد في الحديث على أن أجيب بإيجاز عما أسأل عنه ، ولم يزد صديقه في أثناء ذلك على أن جاملي بكلمات من مألوف القول ، ومع ذلك اشتد زوجي في تأنيبي على إهمال ثوبي ، ثم اتهمني بأن أردت بثوبي وبحديثي أن أثير عجب صديقه بدل أن أثير إعجابه ... وليس هذا يا أماه إلا مثلاً مما يدور بيننا كل يوم ، أترين حياة كهذه يمكن أن تطلق ؟ أو ليس انفصالنا خيراً من الصبر عليها أو انتظار ما هو شر منها ! . .

دار بخاطري وأنا أسمع حديث ابنتي أن القدر ينتقم في شخصها من مثل غيرتي ، حين كنت ألوم أباهما على العناية بصديقتي ، أفقدها المسكينة أن تترك كل حظي ، وأن تعاني في حياتها ما عانيت في حياتي ؟ . . أفحق أن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون ؟ . . وهل تجمع هذه العبارة القديمة في ألفاظها القليلة ، قوانين الوراثة التي تحدثنا الكتب الحديثة عنها ؟ . . مهما يكن من أمر فن واجب اليوم أن أعالج ما حدث بين ابنتي وزوجها ، فإن نجحت فذلك ما أرجو ، وإن لم أنجح فن حسن حظ ابنتي أنها لم تنجب بعد ، فهي لذلك غير معرضة في مستقبل حياتها لما

تعرضت وأتعرض له من تبعات ، تثقل الضمير وتبعث إلى انفس الأسى والشجن .

أتمت ابنتي كلامها فقلت :

أريد قبل أن أحكم لك أو عليك أن أسمع كلام زوجك لأنكون أدنى إلى العدل بينكما ، فدعينا أنت الآن . واذهب يا بنى فادع زوج أختك إلى هنا وقل له إننى أريد أن أتحدث إليه ، ولم يبطئ ولدى فى العود مع زوج أخته ، فهما يسكنان عمارة واحدة . وحيانى الشاب تحية حسنة ، وإن بدا الجلد على وجهه ، فلما اطمأن به المجلس قلت له : أنت يا بنى شاب حصيف عاقل ، وابنتى فى عصمتك ، فأنت الذى تعصمها من خطئها إذا أخطأت ، وأنت الذى تعصمها من الغير إذا حاول الغير أن يسيء إليها ، وأنت كذلك الذى تعصمها من غضبك إذ بلغ هذا الغضب أن يعرضكما لسوء ، فكيف - وذلك مكانك منها - يبلغ التفور بينكما مبلغاً لم يستطع زوجى عليه رحمة الله فى وقت من الأوقات أن يتغلب عليه ، ولم يستطع ولدى أخيراً أن يصلح منه ؟ إبنى أجباً يا بنى إلى حكمتك وحسن رأيك ، فإن تكن زوجك مخطئة عاوتتك عليها ورددتها إلى صوابها .

أمسك الشاب برهة عن الكلام وكأنه يريد أن يبحث فى ذاكرته عن تهمة بلصقتها بزوجه ، وأحسبه لم يجد شيئاً معيناً يذكره ، فاندفع يقول : اسمعى يا أماه ! . . . يجب أن تعلمى أننى رجل شديد الغيرة وفى ابتك جاذبية شديدة أحببتها من أجلها لأول ما رأيته ولا أزال أحبها من أجلها أشد الحب ٣٢٥

وأعنفه ، لكن هذه الجاذبية تجعل غيرى من الرجال يحاولون التقرب منها ، بل التمسح بها ، أنا أعلم أنها لا ذنب لها في ذلك ، فجاذبيتها بعض خلقها ، لكن هذا التقرب يثير غيرتى إلى أبعد حد ، ويدعو إلى ما يقع بينى وبينها من خلاف ، وقد خيل إليها أن انفصالنا بالطلاق هو الدواء لما أشكو منه ، وأنت تقدرين أن ذلك أسخف الرأى ، وأنه وهم باطل ، فحجى إياها سبب غيرتى عليها ، ولولا هذا الحب العنيف لكان على أن أنفصل عنها ، فهل لديك لهذا الموقف الشاذ دواء ؟ .

وسارعت إلى إجابته بقولى : نعم يا بنى ! . . الدواء الناجع أن تنجبا أطفالا تشغل أنت وتشغل أمهم بهم ، فيقسم حبك بينها وبينهم وتحف بذلك غيرتك عليها ، وتوجه جاذبيتها إليهم فتقل عناية الرجال بالتقرب إليها .

ونظر إلى الشاب في دهشة وكأنما خيل إليه أنى أمزح معه أو أسخر منه وقال : « هذا اقتراح مفيد لعلاج طويل الأجل . وهو كذلك إذا اقترضنا أن إنجاب الأطفال رهن مشيئتنا . . إنما أريد دواء سريع المفعول للتغلب على الموقف الذى تقفه اليوم ، ومحال أن يكون الانفصال بالطلاق هو هذا الدواء ، فأنا أحب زوجتى ولن أتيح لغيرى فرصة الاستيلاء عليها بردحريتها إليها . وأنت يا أماء سيدة مجربة تعرفين ما لا نعرف ، وتستطيعين أن تصفى الدواء السريع المفعول ، فنحن فى أشد الحاجة اليوم إليه ! » . .

قلت : « هذا الدواء فى يدك يا ولدى ، وابتنى طوع بناتك إذا عاجلتها وعاجلت نفسك به . . ذلك أن تجعل الحكم فى غيرتك لعقلك لا هواك ،

ولو أنك فعلت لأدركت أنك تبالغ في لوم زوجك على ذنب تعرف أنت بأنها لم تجته ، ثم لأدركت أن القدر وهبك سعادة تريد أنت تدس إليها السم بدل أن تستمتع بها صافية سلسيلا . أنت تلوم زوجك ، بل تؤنبها . بل تعاقبها لأن الرجال يتملقونها أو ينظرون إليها مفتونين بجاذبية أسبغها عليها بارئها ، وأنت مع ذلك تعلم أن هذه الجاذبية في ملكك أنت . أنت وحدك الذي تستمتع بها بهارك وملكك ، في يقظتك وفي أحلام نومك . وأن نصيب غيرك منها لا يزيد على غبطتهم إياك أو حسدهم لك عليها . أنت كمن يملك قصراً منيفاً يقف عنده من يمرون به ويتمنون أن يكون لهم مثله ، وهم لا يملكون إلى ذلك الوسيلة ! . أفلا تعلم أنت هذا القصر وتحاول هدمه ؟ أم تردد اعتذاراً به وحمداً لله على أن جعله لك ؟ . هذا إلا أن تنهم زوجك في وفائها أو في عفافها ، وذلك ما أعينك وأعنيها بالله منه ، فإن يكن ذلك ورددت الأمر إلى حكم عقلك ولم ترخ فيه العنان لهواك استرحت وأرحت زوجك وهيات خير مكان للسعادة من بيتك . هذا دوائي الذي أقرحه أملت على تجربة قاسية ، أود ألا تعصف بجبكا تجربة مثلها .

وأطرق زوج ابنتي هنية ثم قال : « إن منطقك دقيق يا أمه ، وسأحاول جهدي أن أغالب غيري ، لكنني بحاجة إلى معاونة زوجي في هذه المحاولة ! » .

قلت : « فعد إلى يا بني ساعة الشاي ، وإنني لعظيمة الرجاء أن تعود الحياة الزوجية بينكما مصلرهناء وسعادة » .

ودعوت ابنتي بعد انصرافه وطالعتها بكل ما دار بيني وبين زوجها ، وأعدت عليها ما ذكرته لها حين زارتني بالمدينة عن ذكاء الأنوثة وسلطانها ، قالت : « أؤكد لك يا أماء أني أجهدت هذا الذكاء وابتكرت لزوجي من حيله ما كدت أضيق ذرعاً به ، ألم أقل لك ونحن بالمدينة إن الرجل إذا بلغ حبه المرأة حد العبادة لم يكفه أن يملك منها قلبها وعقلها وذوقها وكل شيء في وجودها ، وإن غيرته عليها تشوبها عند ذلك وحشية تخرج بالرجل عن منطق العقل وعن منطق القلب ، إلى حال أقرب ما تكون إلى الجنون ؟ . . . فكيف ترييني قادرة على معاونة زوجي كي يتغلب على جنون حبه ؟ . . . » قلت : « هي يا ابنتي هذه الحال مرضاً ، أو ليس واجباً على الزوجة أن تسهر على زوجها ، إذا مرض حتى يشفى ؟ . . . وقد وصفت أنا الدواء واقتنع بفائدته إذا أنت عاونته بذكاء أنوثتك على الاستفادة منه ، فحاولي مرة أخرى لعل هذه المحاولة تكون موفقة ، فإذا جاء ساعة الشأى فعودي معه إلى بيتك كأن لم يكن بينكما شيء ، وسأدعولكما الله من كل قلبي أن يهديكما ويوفق بينكما » .

وكذلك كان ! . . . جاء زوجها ساعة الشأى وتحدثنا كأن لم يكن شيء ثم عادا بعد الشأى إلى مسكنهما وعدت أنا إلى بيت زوجي فأويت فيه إلى خلوتي ودعوت الله من كل قلبي أن يرزق ابنتي أطفالا تسعد ويسعد زوجها بهم ويشغلونهما عن منازعاتهما بما يعيشون إلى حياتهما من روح الأبوة والأمومة ومن عواطف الحنان والمحبة والرحمة . وتفتح قلبي إثر هذا الدعاء ، ورجوت الله مخلصاً أن يحققه ، فقيه لي كذلك عزاء وسلوى

إذ يعود الأطفال بنا معشر الجدات إلى أيام طفولتنا وشبابنا . ويعثون إلى حياتنا من براءة طفولتهم ما ينبت على أغصان كهولتنا التي كادت تحف وتنوي أوراقاً جديدة تنبت حيوتنا إلى نشاط كادت تنساه . وكادت لذلك تنظر إلى المستقبل بعين زایلها كل أمل أو رجاء . لأن المستقبل يصبح في نظرها المنحدر الذي يهوى بنا إلى القناء .

والحق أنني لم أكن أمزح مع زوج ابنتي ولا كنت أسخر منه . حين قلت له إنه إن أنجب هو وزوجه أطفالاً شغل هو بهم عن غيرته وشغلت هي بهم عن تمليق الرجال جاذبيتها . وظل ذلك دأبهما سنوات عدة حتى يكبر الأطفال ، وفي هذه السنوات يصبح هو أقل غيرة . وتشغل زوجه عن نفسها بأبنائها ، وتتغير حياة الأسرة كلها تغيراً أرجو أن ينعكس عليها الرضا والطمأنينة ! . .

وانتقلت من حجرة خلوتي إلى غرفة نومي . فلما دخلت سريري وأطفأت الأنوار ذكرتني غيرة زوج ابنتي بما كان من غيبي أيام شبابي . وما كان لهذه الغيرة من أثر في حياتي . وما أدت إليه من انفصال بالطلاق عن زوجي ، وأن طفولة ولدينا لم تمنع يومئذ الانفصال ولم تشغلني عن هذه الغيرة . على أنني دفعت ما أثارته هذه الذكرى من مخاوف . بأن غيرة المرأة ليست كثيرة الرجل ! . . حسب الرجل من المرأة أن يؤمن بوفائها له ، ومحافظتها على عهده ، ليطمئن قلبه ، وليستريح إلى أن يجاملة الرجال لامرأته بالثناء عليها ، بل بتمليق مزايها ومواهبها . لا أثر لهما في وفائها وإخلاصها له ولأسرتها . أما غيرة المرأة فرجعها إلى أن الرجال لا وفاء

لهم إلا ما ندر ، لأن تعدد النساء في طبعهم ، ولأن عدم وفائهم لا يدخل على أسرهم من ليس منها ، فمن حق المرأة أن تكون دائمة اليقظة دفاعاً عن نفسها ، ولما عذرها إن دفعها الغيرة إلى مثل ما دفعني إليه ، مع ما في ذلك من مضرة بها وبأبنائها ، وأقنعتني هذه الحجة بأن ابنتي ليست معرضة لمثل مصيري ما وقت هي لزوجها ، فاطمأنت لهذا المنطق وذهبت في الطمأنينة إلى عالم النوم .

تنصف شهر شعبان ، فأدبت لزوجي واجبه ، فذهبت إلى قبره ووضعت عليه الورود وأغصان الشجر ، وتلا قارئ القرآن هناك ما يسر منه ، ووزعت الطعام على الفقراء ، ثم عدت إلى بيتي ولا يزال أثر البكاء في عيني ، وفي الأيام الباقية من هذا الشهر أخذت أعد لسهرة رمضان ، وأفكر في نظام حياتي بعد نهايته .

وكان هذا التفكير في سهرة رمضان جديداً على ، فلم يعتد زوجي - ولا اعتاد زوجي الأول قبله - إحياء هذه السهرة . ولا أخالني كنت أفكر في إحيائها لولا ما عاودني من تقوى صباى مما دفعني بعد ذلك للحج والمقام بالمدينة ، ولولا وفاة زوجي وفاة حزت في كبدي . فلما بدأ رمضان ، وأخذت الفارقة التي اخترتها ترتل القرآن بصوتها الرخيم ، شعرت لسماعه بطمأنينة النفس إلى قضاء الله وقدره ، وازددت يقيناً بمغفرة الله للتائب الذي صدقت توبته وإنابته ، وإن أيقنت كذلك بأن التوبة الصادقة تقتضي صاحبها التكفير عن خطاياهم بصدق الندم عليها ، والإيمان بأن ما أصابه وما يصيبه من جرائمها ليس إلا الجزاء العدل عنها جزاء يجب أن تقبله شاكرين .

وقضيت رمضان في العبادة والتهجد : أقيم الليل . فإذا تناولت طعام السحر ، وصليت الفجر ، أويت إلى مضجعي لأستيقظ لصلاة الظهر أو للجمع بين الظهر والعصر . وقبيل المغرب نجيء القارئة تلو ما تيسر من القرآن ، فإذا غابت الشمس صليت ثم أفطرت ثم صليت العشاء وبدأت السهرة ، فجاءني بعض صديقاتي وزارني أبنائي . وأقمنا نستمع للقرآن وتداول الحديث حتى إذا انصرفوا قبيل موعد السحر . أقمنا أتحدث مع القارئة حتى نتناول طعام السحر معاً ، ثم ذهبنا إلى حجرة خلوتي وأقمنا بها حتى أصلى الفجر لأذهب بعد الصلاة إلى مضجعي .

وانقضى رمضان وأديت في فترة العيد واجباته لزوجي ولزوجي الأول ، فذهبت إلى قبريهما ومعى أولادى ، وهناك قمنا بالمراسم المألوفة في هذه المواسم .

وأخذت أفكر في المستقبل القريب وما أصنع فيه . ذلك أننى جال بخاطرى غير مرة في أثناء رمضان أن أحج البيت وأهب حجى لزوجى لعل الله يغفر له ، وأن أحج العام الذى يليه وأهب حجى لزوجى الأول عسى الله أن يرحمه . وإبنى لكذلك إذ تناولت مع البريد رسالة فضضتها فتولتني الدهشة ، وأخذ منى العجب : فهى مكتوبة بالألمانية ، ونظرت في التوقيع فإذا هى من زوج السفير الألمانى الذى عرفت منذ أكثر من عشرين سنة . والى اعتزت يوماً بمركزها وجنسيها فقال ذلك من كبريائى ومن قومي . فأقننت الألمانية وقرأت أمهات أدبها ، حتى لا تزعم أنها خير منى في المجتمع مكاناً ، وابتسمت لهذه الذكري ، ذكرى الشباب وكبريائه وغروره .

وتلوت الرسالة فإذا صاحبها تذكر سابق معرفتنا ، وأنها جاءت إلى القاهرة إثر وفاة زوجها تسلى عن شجنها بذكريات سعيدة نعمت بها في عاصمة مصر مع ذلك الزوج الذي كان يحبها من كل قلبه ، وتطلب إلى أن نلتقي في الموعد الذي أعددته لنجدد بالتقائنا عهداً تنافسنا فيه ، ثم تصافينا ولم يطرأ بعد ذلك على صفائنا ما يشوبه .

وابتسمت بعد أن فرغت من تلاوة الرسالة ؛ فقد أثارت أمام خاطري عهد الشباب ونضارته ، ورسمت أمام كهولتي تلك المرأة الشابة الجذابة الساحرة الحديث التي كتبها ، والتي أثارت إعجاب المعجبين وتعليق الملقين ، وذكرتي لغة الخطاب بذلك الأملاني الذي عرفت في الأقصر ، والذي زارني بعد ذلك في القاهرة ، بعد أن بلغ إعجابه بي أن قال إنه يراني على الأرض كما يرى الله في السماء ! ألا ما أجمل الشباب وبراعة غروره ! ما أجمل تلك الأيام التي يشعر الإنسان فيها بأنه محور الوجود ، وأن كل ما في الكون يتجه بنظره نحوه ويتحدث إليه ! . . بل ما أجمل أخطاء الشباب وخطاياهم وأوزارهم ! . . إنها مصدر سعادتنا في شبابتنا ، والتكفير عنها والتوبة منها مصدر نعيمنا في كهولتنا . ترى لو أن الشباب لم يندفع مع غروره إلى الخطأ وإلى الخطيئة فهل تكون الكهولة وهل تكون الشيخوخة إلا فراغاً ثقيلًا لا معنى له ، إلا أنه غرة انتظار للأجل المحتوم ؟ !

ترى كيف حال هذه السيدة الألمانية زوج السفير الذي سبقها إلى العالم الآخر ؟ . . ألا تزال فيها بقية من ذلك الجمال الذي كانت تنبئه به ، وتلك الكبرياء القومية التي كانت تدفعها إلى التعالي على الناس ؟ ! . .

ومالى أسأل نفسى عن ذلك وحسبى - لأراه رأى العين - أن أضرب لها موعداً كما طلبت فى كتابها . وعندئذ يصبح الخبر خبراً . إذ أراها وأتحدث إليها وأذكر معها عهداً سعدت به ثم شقيت . ونعمت به ثم استغفرت الله عنه .

وكسبت إليها أدعوها لتناول الشاى معى فى يوم قريب عيته . وجاءت لموعدى فكذت أنكرها لأول ما رأيته . . لقد ابيض شعرها : وتجمد وجهها . وأطفأ منظارها الأزرق بريق عينيها ، وأثقلت سمتها جسمها . وبدت وكأنها تكبرنى بأكثر من عشرين سنة . وحمدت الله حين رأيته لما أنعم به علىّ ثم أخذت أحدثها عن سالف أيامنا وفتوة شبابنا ، فتحدثت ثم قالت : « وارجمته لذلك العهد السعيد ! . . لم أكن أصدق ما قيل من أن مصرية فى عهد القراعنة كسبت على قبر ولدها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم » ، وكنت أحسب أن الحياة لذاتها أحب إلينا من كل من نحب . لكنى رأيت أمى وأبى وإخوتى وأعز صديقائى وأصدقائى يتهاونون إلى قبورهم كما تهوى ريح الخريف بورق الشجر إلى الأرض . فكنت أشعر لكل صدمة بجانب من نياط قلبى ينقطع ، وبفسى تساقط أنفساً ، وبحيوتى يغيض معينا وكأنا يذهب جزء منها مع كل واحد منهم إلى مثواه الأخير ، فلما مات زوجى العام الماضى كانت الضربة القاضية . حتى لقد شعرت بأن حياتى كلها تذبل وتندى ، وأنتى أصبحت كالشجرة التى سقط عنها كل ورقها ، وانحدر منها ماء حياتها ، فهى تجف وتجف لتسقط مع أول ريح تعصف بها ، وقد جمعت كل قوتى لأقاوم أحزاني

ومصائبى ، وحثت إلى هنا ألتمس فى الذكريات السعيدة الماضية ما يزيد فى هذه القوة ، لأتمكن من مغالبة الحياة والتغلب على هومها . أترانى أنجح فيها قصدت إليه ؟ . . أم أن لعنة هذه المصرية القديمة ستحل به بعد موت أحبتي ، وسيكون ما بقى من حياتى بعدهم أنشودة بؤس وشجن .

قلت : « لا تذهب نفسك حشرات على الماضين يا صديقتى ، وليكن لك فى إيمانك بالله وعفوه ومغفرته لك ولم ما تسلين به عن همك وشجنتك » ! . .
قالت : « ليتنى عرفت الإيمان يا صديقتى فى شبابه لأجأ إليه اليوم ؟ ! . .
أما ولم أعرفه إذ ذاك فإنى أخجل من نفسى أن أستعيه اليوم لأجعل منه وسيلة سلوى وعزائى ، ولو فعلت فمن ذا أخدع ؟ . . أخدع رب السماوات ، والمؤمنون يذكرون أنه يعلم السر وأخفى ! . . أم أخدع نفسى وأخذ من هذه العارية علالة أعالج بها سقم حياتى كما يخدع الطفل باللعبة يقبمها إليه أهله ليتسلى بها عن مرضه أو عن ألمه » ! . .

لم أدريم أجيبها فصمتُ برهة جالت بخاطرى فى أثناءها حكمة لقاسم أمين : « أتعس البرية إنسان ضاع إيمانه يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليه لذتها وينغص عليه شهرتها » ، ودعائى تذكر هذه الكلمة للعدول بالحديث إلى أمور لا تثير نفسها ، فسألتها : كيف تريد أن تقضى إقامتها فى مصر؟ وأجابتنى أنها تريد أن تقضى ستة أسابيع بأسوان ، وأنها كانت تودّ لو نصطحب فى هذه الرحلة ، واعتذرت بأن « عاداتنا القومية لا تجيز لحزينة مثل أن تغادر المدينة التى تقيم بها ، إلا أن تذهب لأداء فريضة دينية . عند ذلك سألتنى عن ولدى وما صاروا إليه فذكرت لها أنهما تزوجا . .

قالت : « أسعدك الله بهما . وكبر أتمنى اليوم لو كانت لي ابنة تجعل تستقبل أملاً أرجوه . وتكون لي في هذا الحاضر عزاء وأنساً . لقد كنت صدرشبابي أعجب لبنات وطنك كيف يحز في كبدهن ألا يتجنبن . وكنت أسأل نفسي ما لمن يردن أن يحملن في الحياة أعباء ما أغناهن عن حملها ؟ ! وكان عجبى يزداد حين أسمع الآباء ، إذ يكفل الواحد منهم عدة أبناء وينفق على كل ابن وابنة أضعاف ما أنفق عليه أبوه ليكون خيراً منه في المجتمع مكاناً . أما اليوم فإني أشعر بالحزن أن لا ولد لي كشعوري بالحزن لفقد زوجي . . لقد أظلم ماضى بموت زوجي والأخبة من أهلي وأصدقائي . وأظلم مستقبل لأنني لا أرى فيه طفلاً يمت إلى أحشائي . وتبعث براءة ابتسامته إلى نفسي أجمل الرجاء في أن أسعد بسعادته . . لم يبق لي إذن ماض ولا حاضر ، ولم يبق لي إلا أن أجاهد الحياة بعزيمتي المفردة ما بقيت . وسأجاهدها وسأتمس في ظلماتها قيساً من نور . لا أدري كيف أجده . ولكنني موقنة بأن العزم القوي الصادق قدير على كل شيء . بل قدير على المستحيل ! . . .

لا أريد أن أقص هنا ما دار بيني وبين صاحبتى من حديث عن ذكريات شبابنا ، فالحديث في أيام الكهولة عن ذكريات الشباب يوجب الحسرة . وحسبي - وأنا موشكة أن أختم قصتي - ما سطرت فيها مما أثار ألمي وتندى له جيبى . ثم حسبي أن أذكر أنى زرت صاحبتى هذه وزارتي من بعد غير مرة ، ولأى رأيها برغم صلابة عزمها في مجالدة الحياة . تضعف أحياناً حتى تنحدر الدموع من عينيها حين تذكر أحبها . وحين تذكر

زوجها ، وحين تذكر عقمها . وكم قبلت بعد كل زورة من هذه الزورات
ظاهر يدي وباطنها شكراً لله على ما أنعم به على من ولد ، وما أبقي لي
في كهولتي من صحة وحيوية لا تخجلان حين يذكر الشباب . أما الأحبة
الذين انحلروا إلى ظلمات القبور فهم السابقون ، ونحن اللاحقون ، وشكراً
لله أن أنعم عليّ في صباي وكهولتي بنعمة التقوى والإيمان ، لأستغفر لهم الله ،
ولأتوب إليه لعله يشملهم ويشملني برحمته .

وكم أدخلت هذه المقارنة بين حظي وحظ هذه الألمانية من الطمأنينة
إلى نفسي ، وذكرتني بأن متاعب الحياة ومصائبها لا تحصي فحق علينا
أن نحمد الله ، كلما رأينا حظنا من ذلك خيراً من حظ غيرنا .

وذكرت لي الألمانية حين زارتي للمرة الأخيرة أنها مسافرة إلى أسوان
بعد ثلاثة أيام بقطار عربات النوم . وذهبت إليها قبيل الغروب من يوم
سفرها أودعها فرأيتها في بهو الفندق الذي تقيم به ، فتدق سميراميس ،
ورأيت معها رجلاً يتحدث إليها وكأن بينهما معرفة قديمة . فلما اقتربت منهما
قام الرجل فأقبل نحوي مبتسماً وهو يقول : هذه أنت ! . . وحلقت به فإذا
هو الألماني الذي عرفت بالأقصر منذ أكثر من عشرين سنة ، ولا تزال تبدو
عليه مع ذلك مخايل الفتوة ؛ برغم بياض فوديه وبياض شعرات في شاربهِ
وحاجبيه ، واغتبطت لمراه وذكرته إعجابه بي كما ذكرت الهدية التي قدمها
لي من صنع يده ، وابتمت حين حيته وقلت : « ألا ترى أن العالم ضيق
الرقعة وأن الزمن سريع الدوران ؟ ! » . قال وهو يتسمك كذلك : « كما أرى
أن كهولتك لا تقل جاذبية عن شبابك ، ألا تسافرين الليلة مع السفيرة ؟ ..

أنا مسافر في القطار الذي تسافر به . ولكني سأغادره بالأقصر أقضي بها أياماً
أستعيد بها أسعد ذكرياتي قبل أن أذهب إلى أسوان » . وأجبتني : « أمتعنا
الله بالسلامة ، أما أنا فإني أعد منذ الآن عدتي للسفر إلى الحجاز » .

وجلست معه إلى السفيرة فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . ونذكر
خلاله ما بالأقصر من روائع الفن الفرعوني ، وفيما نتحدث سمعنا ضجة إعجاب
في شرفة الفندق فأسرع الألماني يرى سببها ثم نادانا قائلاً : « هلمنا ! . .
إن مغرب الشمس اليوم بديع ، وهي تليق من أشعتها على صفحة النيل وعلى
أشجار الجزيرة ما يحيلهما سحراً رائعاً » ، وقمنا في بطاء . السفيرة لمستنا
وشيوخوتها ، وأنا لزمهدي وتقواي ، لكننا ما لبثنا حين رأينا هذا المنظر البديع
أن وقفنا نستمتع بروعة جماله في مثل حماسة الشباب . وكأننا لم نر من
قبل مثله على كثرة ما تنعم به مصر من مغارب الشمس الرائعة ، فلما آن
للشفق أن يبوي ، والليل أن يسحب على هذا المنظر البديع رداءه ، بدأ
الناس يعودون إلى مجالسهم ، وبدأت أستدير ، لأدخل بهو الفندق من جديد .
لكني شعرت بيد ناعمة على كتفي فنظرت فإذا صاحبتنا صديقتي . وما لبثت
حين استدرت إليها أحبيها أن قالت : « أنت هنا ! . . ذلك ما لم أكن
أصدقه ! » على أنها رأت صديقنا الألماني مقبلاً نحونا وسرعان ما عرفته
وقالت : الآن فهمت ! . . وسألها : ماذا فهمت ؟ . . ولم تجب ، ولم يذكر
الألماني شيئاً عن سحر عينيها وكأنه لم يقف بهما في شبابها ، فسرني ذلك
منه ، واعتبرته خير جواب على سوء ظنها ، وجاءت السفيرة بخطاها المتثاقلة ،
فقدمت إليها صديقتي ، ثم قلت : أخشى أن يحول وجودي دون إلقاءك

النظرة الأخيرة على متاع سفرك ، وجهت الكلام إلى صديقتي قائلة :
 « لقد جئت أودع السفيرة في سفرها هذا المساء إلى أسوان ، فألفت
 صديقتنا الألمانى معها ، فسرت لهذه المصادفة ، كسرورى لمقابلتك الساعة
 مصادفة كذلك » ! . .

واستأذنت السفيرة وصاحبنا الألمانى ورجوت لهما سفراً سعيداً ، واستأذنت
 كذلك صديقتي وعدت إلى بيتى . فلما خلوت إلى نفسى أثارت هذه الزيارة
 بمصادفاتهما أمام خاطرى منظرأ تعدل روعته منظر مغيب الشمس الليلة ،
 على صفحة النيل وعلى أشجار الجزيرة ، ذلك منظر مغيب الشمس الذى
 كنا نشهده ونحن فى شرقه « ونتر بالاس » بالأقصر ، ونرى النيل ونرى
 هضاب « طيبة الأموات » تتابع عليهما ألوان هذا المغيب فتبعث إليهما من
 الجلال والجمال ما يثير فى النفس أعظم الإعجاب ! . . عند ذلك ذكرت
 الإنجليزية التى لقيتني عامين متتابعين بونتر بالاس ، والتى أخذ المنظر
 بمجامع قلبها فحدثتني - وهى تحلق به - عن إعجابها الذى لا حد له
 بالفراغة وحضارتهم ، وقلت فى نفسى : من يدري ؟ . . لعلها كانت بين
 الحاضرين فى شرقه ميميراميس الليلة ، هذا إن لم تكن قد تحطت حدود
 عالمنا إلى عالم الأرواح .

وهاجت هذه الذكرى خواطر شبابه فأردت كتبها فأويت إلى حجرة
 خلوتى وقسرت نفسى على التفكير فى جهاز سفرى إلى الحجاز . فقد كنا
 إذ ذاك فى منتصف ذى القعدة ، ولم يكن باقياً على سفر الباخرة التى أبحر
 عليها غير أسبوعين اثنين . وإتني لأفكر فى ذلك إذ دخلت على ابنتي ومعها

زوجها ، وقالت بعد أن قبلتني : جئت يا أماه أزف إليك البشرى . لقد استجاب الله دعائك أن تصبحي جدة لطفلك المنتظر .

لم أشعر منذ عهد بعيد بمثل السعادة التي شعرت بها لسماح هذه البشرى .
وقعت إلى ابنتي أقبلها وأقبل زوجها ، وأنا في فيض من الغبطة أنساني كهولتي وأنساني خلوة عبادتي وفتح أمامي آفاقاً من الأمل الحلو وصور لناظري الطفل المرحو باسم الثغر والعينين . وأرانيه يكبر بعناية أمه وعنايتي فيملاً البيت على أبيه وعلى بشراً وجوراً ، وخرجت من خلوتي ومعى ابنتي وزوجها وذهبتا إلى غرفة نومي وقد عقد السرور لساني ، فلما اطمأنت الأنفاس قلت :

- كنت أفكر الساعة في جهاز سفرى إلى الحجاز لأهب حجتي إلى عمكا ، ولأقيم بالمدينة حتى عامنا المقبل لأحج كرة أخرى وأهب حجتي لأبيك يا ابنتي ، ثم أبقي بعد ذلك بالمدينة راجية أن أظل في رحابها حتى يقبضني الله إليه بها وأدفن في ترابها . أما وقد وهبنا الله هذه النعمة ، التي بشرتني الساعة يا ابنتي بها ، فسأعود بعد حجتي وزيارتي هذا العام أنتظري إلى جوارك حتى أطمئن عليك وعلى وليدك ، ثم أعود العام المقبل فأحج وفاء بنذرى وراحة لضميري ، وعند الله حسن الثواب .

وأخذنا نتحدث ، وجعلت أذكر لابنتي ، وقد حلت عقدة لساني ما يجب عليها لنفسها ولحفيها في أثناء حملها . وكان زوجها يستمع لحديثنا وعلى محياه أمارات السعادة ولا يقول شيئاً ، وفيما نتحدث دخل علينا ابني وزوجه ، وكانا قد عرفا النبأ السعيد قبلي فشاركنا في حديثنا ، وأراد

ابني لهذه المناسبة أن يصرفني عن الحج هذا العام لأبقى إلى جانب أخته ،
فقلت له إن حجى وزيارتى لن يطولا أكثر من ستة أسابيع ، وإن أخته
لا يزال أمامها في الحمل أكثر من ستة أشهر ، وما كنت لأعدل عن الوفاء
بنذر نذرته والسبيل مهياً للوفاء به .

وحججت وزرت ووهبت حجى وزيارتى لزوجى ، ولم يستغرق
ذلك كله ستة الأسابيع التى ذكرتها لولدى ، ووقفت ساعة الوداع أمام
المقصورة النبوية وهتفت بصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام : « معذرة
نبي الله ورسوله ! . . » لقد حرصت على أن أبقى في جوارك حتى يختارنى
الله إلى جواره ، فأنعم في عالم الأرواح بطمأنينة السكينة الأبدية ، فأبى
القدر إلا أن أعود إلى وطنى وأهلى ، وأنتظر هذا المولود ليردّ إلى أهله وإلى نعمة
الحياة ، وليحملنى من جديد أعباءها ، فكان شفيعى عند ربى ليجعل لنا
من هذا الحفيد سعادة ونعمة ! . . .

وعدت إلى مصر وبقيت إلى جوار ابنتى حتى تم وضعها فأسمت الوليد
باسم جده ، أبيها ، واستأثر هذا الوليد البرىء بكل ما في قلبى من حنان
وبر ، ونظرت إليه يوماً وهو بين ذراعى وقلت في نفسى : ترى لو أن جده
زوجى الأول كان اليوم حياً ، أفا كان قلبانا يجتمعان حول هذا الطفل
يحوظانه بأجمل ما ينبضان به من عواطف ؟ ! . . ولم ألبث حين مر هذا
الخطر بخيالى أن سألت نفسى : كيف سولت لى يوماً أن أفكر في فصم كل
صلة بينى وبين هذا الرجل ؟ . . وأن أنسى أننا إذا انفصل جسامنا فصير
قلبينا إلى اجتماع حول حفيدنا ، وأن الحكمة تقتضينا لذلك أن نعالج بالصبر

أهواء الحياة . فأهواء الحياة قَلْبٌ ، وأساس الحياة الحق انجبة ، فإذا استبقيناها في قلوبنا أبقينا على خير ما في الحياة ، بل أبقينا على أساس الحياة ، وسر وجودنا فيها .

وجعل الطفل ينمو فيزيد نموه في محبتي إياه . فلما انتفضت أشهر على مولده ، وأن موعد الحج وفيت بنذري فحججت وزرت ووهبت حجتي وزيارتي لجلده ، ثم عدت إلى مصر متشوقة أشد الشوق لاجتلاء ابتسامته . وجاء ولدي يستقبلني بالسويس ، وفيما نحن في طريق الصحراء إلى القاهرة زف إلى البشري بحمل زوجه ، وبأنني سأصبح عما قريب جدة لولده كما أنني اليوم جدة ابن أخته . واغتنبط وقبلته ونحن في السيارة تهب بنا الأرض إلى غايتها . فلما بلغت بيتي ألقيت ابنتي وزوجها وابنها وزوج ولدي في انتظاري ، ثم ألقيتهم جميعاً يقبلون عليّ يقبلونني ويرجون لي حجاً مروراً ، وتناولت الطفل العزيز من أمه وقبلته وضممته إلى صدري . وشعرت به فلذة من قلبي .

وفي المساء ذهبنا جميعاً نتناول العشاء في بيت ولدي ، وجلسنا كلنا في بهو الاستقبال وفيه صورة زوجي الأول وكأنه ينظر بعينه الثابتين إلى بنيه وحفدته .

عند ذلك أيقنت بأن الله أكرمني بأن لم أعقب من زوجي الثاني ، وإن حرّ في نفسي ما تيقنته ، من أن هذا الرجل الذي أنقذني وأكرمني سيصبح عما قليل نسياً منسياً .

أتراني أستطيع بعد اليوم أن أفكر في العود إلى المدينة المنورة لأقيم

في رحابها ، حتى يقبضني الله إليه بها ، فأدفن في ترابها ؟ ! . أم أن الحياة
أمسكني هنا مع أبنائي وحفدتي الأبرياء ، حتى أرقد الرقعة الأخيرة في
صحراء القاهرة ؟ . . .

وهل أنعم الله عليَّ بهؤلاء الحفدة ليكونوا عزاء كهولتي وشيخوختي ؟
أم أن الحياة لا تزال تعدُّ لي من بأسائها ما يضطرب قلبي لمجرد تصوره ؟ . . .
علم ذلك كله عند ربي . والحمد لله الذي وهبني على الكبر نعمة العود
إلى الحياة والمتاع بها من جديد مع حفدتي الأطفال الأبرياء ! . . .

خاتمة

فرغت الآن من تدوين قصتي ، متوخية فيها الصديق جهد طاقتي ،
أتراني أستطيع أن أغامر فأنشرها على الناس ؟ ! . .

لقد كان جيني يندى وأنا أسطر بعض صفحاتها ، ولشد ما أخشى
إذا هي نشرت أن يندى هذا الجين كلما لاح لخيالي قارئ يحاول أن
يستشف من خلالها ما يرضى طلعه ، أو يقف منها على أسرار لا شأن لغيري بها ،
ولا علم لغيري بدوافعها وملايساتها ! . .

ولست آسف مع ذلك على ما أفقت من وقت في تدوينها ، فقد تمتعت
في أثناء كتابتها بألوان من المسرة ، سواء وأنا أجلو الصحف المضئية أو
الأركان المظلمة من حياة قلبي على ورود ، وعلى أشواك يثير مسها في
النفس أحاسيس متباينة تبعث إليها الرضا برغم تضاربها ، لأنها مظهر
حياتي خلال عشرات السنين التي طويت من عمر الحياة ، والتي أذاقني
كل ما في الحياة من هناء وشقاء ، ومن سعادة ويأس ، ومن لذة وألم ، ومن
أمل ويأس .

وكيف آسف وإنني لتهمزني الغبطة كلما عدت إلى هذه الصورة التي
رسمتها من حياتي ورأيت هذه الحياة كاملة أمامي ، لا يحجبها عني تعاقب

الأزمنة ولا تغير الأمكنة التي مرتت بها . فأنا أرى فيها الطفلة التي كتبها ،
والصبية التي ترعرعت على أعواد هذه الطفلة ، والشابة والزوج والأم ، وأرى
انسياب الأيام يندس إلى هذا الشباب رويداً رويداً فيجعله كهولة تتخطى
على هون إلى ما بعد الكهولة ، وإني لأبتسم لهذه الأطوار جميعاً ، وأبتسم
لآلام حزت يوماً في نفسي وأوقفتنى على حافة اليأس ، ثم مر الزمن بيده
الحسنة على هذه الآلام فأصبحت اليوم موضع عطى ، ومدعاة تقديري
وغبطى .

يذكر الذين ترجموا للمثال الإيطالي الخالد ميكلانجيلو أنه لما أتم ،
تمثاله « موسى » ورآه بلغ الكمال ، خاطبه مبدئاً إعجابه بكأله . فلما
لم يجد لكلماته من جانب التمثال صدى نظر إليه مغضباً ، وضربه بإزميله
وصاح به : مالك لا تتكلم ! . . . ولست من الغرور بحيث أنظر مغضبة إلى
هذه الصفحات التي كتبت وأنا أعجب كيف لا تخرج من بينها الصبية
والمرأة التي رسمت ممتلئة حياة ونشاطاً ، فلم يبلغ إيماني بالقز ما بلغه
من نفس المثال الإيطالي الخالد ، وأنا أقل إيماناً بفنى من أن يدور مثل
هذا الخاطر بخلدى ! . . .

فلماذا لا أحسنى أغامر فأدع هذه القصة تنشر يوماً على الناس . .
وما جدوى نشرها ؟ . . . لست من السذاجة بعد الذى قطعت من عمر الحياة
وقطع الوجود من عمرى لأتوهم ما يذهب بعض الكتاب إليه من أن قراءها
سيجدون فيها عبرة تنفعهم في حياتهم . فالعبرة كلمة نقولها ولا مدلول في
الواقع لها . وهل اعتبرت الإنسانية بما يصيبها من أهوال الحرب وويلاتها

فأفلعت عنها ؟ ! . . . وهل يعتبر الشباب بما أصاب آباءهم وذوئهم . إذا
 لاحتاطوا فلا يقعون فيها وقع هؤلاء الآباء فيه ؟ . . . وكيف تنفع العبرة وفي الحياة
 من الغيب المستور ما تتغير معه المقدمات والنتائج تغيراً لا يستطيع أكثر الناس
 ذكاء وعلماً توقعه ، بله التقدير له ! . . . وكيف يستطيع الشباب أن يتخذ
 العبرة من المشيب ولا يعرف من أمر المشيب قليلاً ولا كثيراً ! . . . لقد طامنا
 اطلعت في شبابي على مثل هذه القصة فوجدت في مطالعتها تسلية ولذة
 لم يتعدى حدود اللذة والتسلية ، وكان لأصحاب هذه القصص من البراعة
 ما ليس لي ، فإذا لم تظهر قصتي بتسلية قرائها فمن حقهم أن ينقموا مني
 وأن يلعنوا غروري . وخبر لي أن أتقى النعمة واللغة كليهما . فلا أطلع الناس بما
 يدفعهم إليهما . ذلك خير لهم ولي ، وأدعى أن ينفقوا وقتهم فيما يعود عليهم
 بما يلذهم ويرضيهم .

ولا أحسبني أبالغ حين أذكر أن العبرة بما يصيب الغير كلمة لا مدليل
 لها في الواقع ، فنحن لا نعتبر إلا بما يصيب ذاتنا .

كانت لي أخت طفلة لما تبلغ عامها الثاني ، وكانت بادية الذكاء منذ
 طفولتها ، وكان أبي مغرماً بها ، يغبط بمداعبتها ، ويقضى في ذلك سويعات
 كل يوم . وقد أدنى من إصبعها يوماً عوداً من الكبريت ملتباً ، ثم سحبه
 في حركة تدل على خوفه من أن يحرقها ، لكن الصغيرة لم تفتن لهذه
 الحركة ولم تعتبر بها حتى أدنى والذي عود الكبريت الملتب من إصبعها
 فكاد يحرقها ! . . . هنالك أدركت أن النار تحرق ، وصارت تسرع إلى
 سحب يدها كلما أدنى أحد النار منها . وذلك شأننا جميعاً في الحياة .

إذا لم نكن نحن موضع العبرة لم يكن للعبرة مدلول في نظرنا . . وكثيراً ما نخطئ في تقدير مدى العبرة مما يصيبنا نحن ، فلا نفيد منها إلا القليل .

وليس عجباً أن تكون العبرة كلمة لا مدلول في الواقع لها ، فنحن نحكم على الأشياء بمجموعة من العناصر الذاتية ، يختلف الحكم باختلاف تأثيرها بما في الحياة وتأثيرها فيها . . نحن نحكم بعقلنا ، وعلمنا ، وعواطفنا ، وميولنا ، وإحساسنا ، وأعصابنا ! . . وهذا المزاج من العناصر يتأثر بما نكون عليه من أحوال الغضب والرضا والطمأنينة والقلق ، كما يتأثر بالبيئة المحيطة بنا ولا سلطان لنا عليها ، فأى هاتيك العناصر تكون أقوى أثراً في اعتبارنا بما نقرأ ؟ . . وقد تكون البيئة أقوى من كل تلك العناصر أثراً ! . .

كنت في العاشرة من سنّي ، وكنت تلميذة بالمدرسة السنية للبنات في العشرة الأولى من هذا القرن العشرين ، ولم يكن يومئذ للبنات مدارس مصرية غير السنية وأم عباس ، وإني لأمر بفناء الدار دعائي والذي فدخلت غرفة الجلوس وحوله فيها جماعة من أصدقائه ومعارفه ، بينهم مطربشون ومعمون ، وسألني والدي عما تدرسه في الجغرافيا والتاريخ ، وخبرجت من عنده وانتحييت جانباً في الفناء فلم ألبث أن سمعت مناقشة حادة بين الموجودين مع أبي ، يبدى أحدهم إعجابه بما سمع مني ، ويعترض آخر على ذهابي إلى المدرسة اعتراضاً شديداً ، ويعترض على تعليم البنات بوجه عام ، قائلاً : إن مصير البنت أن تتزوج ، فما فائدة أن تتعلم القراءة والكتابة ؟ . . بل إن في تعليمها لضرراً أبلغ الضرر ، إنه يمكنها من قراءة الروايات وما فيها من قصص الحب ومن كل ما يفسد الأخلاق ، وهي بعد في غير حاجة إلى هذه

المعرفة ، فنحن لا نعدّها لوظيفة في الحكومة ولا لعمل من الأعمال يحتاج إلى القراءة والكتابة . واستمر الرجل يؤيد هذا الرأي . ويزداد حماسة في تأييده كلما ازداد مناقشه تأييدا لضرورة تعليم البنات . لتشكل وجودها الإنساني . وقد كان يؤيد ذلك المعارض في تعليم البنات يومئذ كثير من المتعلمين تعليماً مديناً . وكانت البيئة تسبغ يومئذ مثل ذلك التفكير . ترى أيمكن أن يدور مثل هذا التفكير اليوم بخاطر أحد أو يمرؤ على الجمهور به وقد أخذت البنات يجلسن من مقاعد الجامعة . وقد غصت وظائف الحكومة بالكثيرات منهن ، وقد أصبحت ميادين العمل الحر مفتوحة أمامهن ؟ ! أقلاً يشهد ذلك بأن آراءنا وأحكامنا تتأثر بالبيئة إلى حد كبير ؟ وتأثر كذلك باعتباراتنا الذاتية ، وقتية كانت هذه الاعتبارات أو غير وقتية ، مما يدل على أن العبرة التي نتلمسها في القصص قليلة الأثر في الواقع ، إن كان لها من هذا الأثر أي حظ ؟ !

لم أعن نفسي بهذا الحوار حول تعليم البنات يوم سمعته وأنا في موقف على مقربة من باب غرفة الجلوس ، بل فررت مسرعة إلى داخل الدار خيفة أن يراني أحد ويتساءل عن سبب وقوفي . وما كنت لأفكر يومئذ أي المتحاورين على حق ؟ فقد كان أبي هو الذي يفكر لي وهو الذي يفكر في تفكيره ، إن شاء أن أبقى بالمدرسة بقيت ، وإن شاء أن أغادرها وألزم البيت كان الرأي رأيي ، ولقد مرّ هذا الحوار من بعد بخاطري فأنارتني ابتسامة إشفاق حيناً ، وابتسامة تحالطها المرارة أحياناً ، أما الإشفاق فعلى هذا الذي توهم أن البنات تتعلم الحب في قصص الحب ، وهل تقرأ الطير قصص الحب وهي في

عشها وفي سماواتها ، وللطير على اختلاف أجناسها قصص في الحب أروع من قصص بني الإنسان ؟ . . فالحب غريزة ركبت في الذكر والأنثى يلتمس كلاهما من سبلها تخليد النوع . والفتى الساذج في الحقل وفي المصنع ، والفتاة الساذجة التي تشاركه العمل ، ينجذب أحدهما نحو صاحبه ، في غير حاجة إلى كتاب يقرؤه ، مندفعين في ذلك بحكم الغريزة التي لا تقهر ، وهما يسمعان من قصص الحب ما يغنيهما عن قراءة شعر « المجنون » أو قصة « روميو » و « جولييت » ، فإذا توهم أحد أن قراءة قصص الحب مفسدة للأخلاق فهو جدير بالإشفاق وبأكثر من الإشفاق .

وأما المرأة التي خالطت ابتسامتي أحياناً فقد أثارها في نفسى شعور ذاتي لا اعتبار قل أن يرد بخاطر أحد . فأنا كثيرة القراءة ، وإدمان القراءة يدعو إلى شيء من العمق في التفكير ، وإلى عزلة لا مفر منها يدفع إليها التفكير العميق . فهذا التفكير فيما حولنا يكشف لنا عما في حياة المجتمع من حمق وسخافة ، ويدفعنا للتعالى على هذا المجتمع ، بل إلى ازدرائه في كثير من الأحيان .

هذا لون من الغرور لا ريب ، وهو غرور يجعلنا ننظري على أنفسنا ونتدقق في دخليتنا غبطة كبيرة بتفوقنا ، ولكنه يدس إلينا مع هذه الغبطة مرارة سببها انكماشنا عن الناس وتعلو التفاهم بيننا وبينهم في كثير من الأحيان ، وقد تبلغ هذه المرارة أن تدفعنا إلى حاقة اليأس فلا ينجينا منه إلا أن ننزل إلى المستوى العام ، وأن ننسى أنفسنا في ألوان من المسرة يمجها ذوقنا ، لولا هذه المرارة التي تضطربنا للرضا بما لا نرضاه بحكم عقلنا وثقافتنا .

وإذا كان للبيئة من السلطان على أحكامنا ما قدمت فلظروفنا الخاصة سلطان لا يقل عن سلطان البيئة ، فهذه الظروف هي التي تكيف اتجاهنا في الحياة ، وهي التي تكيف أحكامنا على ما رأينا وما نرى : أليس يختلف حكم الأغنياء عن حكم الفقراء على الأشياء ؟ . . . وهلا يختلف حكم الأذكىاء عن حكم الأغبياء ، ويختلف حكم أبناء الحرقة الواحدة عن أبناء الحرقة الأخرى على ما يرون ؟ . . . ألا ترى شخصاً يوهب منذ مولده أذناً واعية للأتغام والألحان ، وآخر يوهب عيناً بصيرة بالصور والألوان ، وثالثاً لا يعنى من الأتغام ولا من الألوان بأكثر من التسلية ، برغم ما له من ذكاء نفاذ وحسن بصر بالأمور ؟ ! . . .

وليس يسيراً أن نحيط بظروف الناس الخاصة ، فهي لا تحصى ولكني طالما سألت نفسي : أترانا برغم هذه الظروف نزعج أن لنا في الحياة اختياراً بأى مقدار ؟ . وهل كان لي اختيار أن أولد أنثى ، وأن أولد في المدينة وأبواى من أهل الريف ، وأن أكون على حظ قليل أو كثير من الجمال أو الذكاء أو الجاذبية ، وأن يكون أبواى من طبقة معينة من طبقات المجتمع ، وأن يقيدنى كل واحد من هذه الظروف بقيود لا فكاك لي منها ، ولا سلطان لي عليها ؟ . . . وما هذا الاختيار الذي يحدثوننا عنه إذا كان الإنسان مهدداً بالعقاب لعمل يجترحه ، موعوداً بالمشوية إذا عمل صالحاً ؟ أم نحن مختارون حين يشتهي أحدنا صنفاً من الطعام ويشتهي صاحبه صنفاً آخر لأن معدة الأول لا تطيق ما تطيقه معدة الثاني ! . الحق أشهد أنني لم أشعر بأننى كنت مختارة في يوم من الأيام ، وإنما فرضت الحياة نفسها على ، فلم يكن

لى اختيار فى قبول ما فرضت ، مذ كنت طفلة إلى هذا اليوم وإلى أن
أموت .

وإذا لم يكن لنا فى الحياة اختيار ، فهل يبقى للكلمة العبرة معنى
أو مدلول فى الواقع ؟ . لقد عدت غير مرة إلى كتب قرأتها منذ سنوات
عديدة فتغير حكمى على ما فيها عما كان عليه يوم قرأتها أول مرة ، فأيقنت
أن أحكام شابنا تختلف عن أحكام كهولتنا ، لأن عناصر الحكم الكينة
فيتا يختلف مزاجها بتقدم السن أو بتغير أحوالنا المعيشية أو باختلاف البيئة
التي تحيط بنا أو بما يمر بنا من حالات الصحة والمرض ، والنجاح والفشل ،
والرجاء واليأس ، وبعض هذه الكتب التي عدت إلى قراءتها ليست قصصاً
جانب التسلية فيها أوفر من جانب العبرة ، بل هي كتب تفكير ورأى ،
أو كتب علم أو فلسفة ، فإذا كانت صور الأشياء تتغير أمامنا على هذا
النحو فهي إذن وهم وليست حقيقة ، وهي صورة لما نشعر به فى دنخلة
أنفسنا أكثر منها حقيقة كونية مادية يمكن الاطمئنان إليها .

وبعد ، فهل فى الحياة حقيقة ثابتة ؟ أم أن ما فى الحياة كله حقائق
وإن كانت لا ثبات لها ؟ . أترى الحقيقة هي النور أم الظلام ، وهي
السعادة أم الشقاء ، وهي الرجاء أم اليأس ، وهي الحياة أم الموت ؟ .
لقد طالما تبدلت لتفكيرى صور وألوان من هذه الحقائق التي لا ثبات لها ،
والتي نمر بها على دوام تغيرها متفانية متجددة ، فأوقفتى التفكير فيها فى حيرة
كانت بعض أسباب المرارة التي انلمست إلى حياتى ، وبعض أسباب العزلة
التي باعدت بينى وبين الناس ، ثم وجدت الوسيلة فى بعض الأحيان إلى

التغلب عليها بأن اندمجت في غمار الناس وسرت سيرتهم . وطلقت التفكير حتى اهتديت آخر أمرى ، وفي مولات عمرى ، إلى أن الحقيقة فوق هذه الصور جميعاً ، وإلى أن التماسها يقتضيها السمو فوق صور الحياة في انبساطها وتجدها لنظالم وجه الله الأكرم ذى الجلال .

وما لي أطيل التفكير فيما كتبت ؟ وهل ينشر على الناس أو لا ينشر ؟ وفيما إذا كان لكلمة العبرة مدلول في الواقع أو أنها ليس لها هذا المدلول ؟ أليس خيراً أن أدع التفكير في هذا لغيري ، فإذا رأى قصة حياتي حقيقة بأن يطالعها غيري فيجد فيها متعة أو عبوة فليشرها ، وإلا فليلق بها في سلة المهملات كما يقولون ! . إنني قد اعترمت مغادرة مصر إلى حيث أستطيع التوجه إلى الله بكل قلبي ألتمس عنده المغفرة من ذنوبي ، وأجد منه الهدى إلى الحقيقة التي يستريح لها وجداني . ويوم يتاح لي تنفيذ غرضي فسأدع هذه القصة بين يدي من يستطيع أن يحكم عليها بأعدل مما أستطيع . وله يومئذ أن يفعل بها ما يشاء ، فإذا نشرت فلن أستطيع قراءتها مطبوعة لأنني سأكون بعيدة عن مصر ، بعيدة عن هذا المجتمع الذي نعمت به وشقيت ، والذي عرفت بين أحضانه ألواناً من السعادة والبأساء ، ومن اليأس والرجاء ، أكثر مما عرفت كثيرات من بنات جنسي ! . . .

والله أسأل أن يهيئ لي فيما بقي من أيام حياتي سبيلاً أهدى من السيل التي اخترت إلى اليوم ، وأن يكتب لي أن أموت راضية مرضية ، وأن يجعل من توبتي ومن أيام شقوتي شقيعاً عنده ، إليه المرجع والآب ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

• • •

أتممت كتابة ما تقدم عشية الحج أول مرة ، وكنت أحسب يومئذ
أنى فرغت من تدوين قصتى ، ورسمت الطريق لما بقى لى فى الحياة من
أسابيع أو شهور أو سنين كثيرة أو قليلة ، لكن القدر سرعان ما أثبت لى مرة
أخرى أنه لا يعبأ بإرادتنا الإنسانية ، وما نرسم أو نصور ، وأنا أضعف أمامه
من أن نثبت بإرادتنا شيئاً فى لوحه .

صحيح أنى حججت وزرت مدينة الرسول ، وعزمت أن أجاوره ،
لكن هذا العزم ما لبث أن عبث به الأقدار واضطرتنى للعود إلى القاهرة
لأواجه بها أقمسى ما يواجه إنسان فى حياته . وعدت فعزمت أن أقم بالمدينة
ألمة أن أظل فى رحابها حتى يقبضنى الله بها ، وأدفن فى ترابها ، فإذا هذا
العزم لا يثبت للمرة الثانية أكثر مما ثبت للمرة الأولى ، وإذا بى أضطر للمقام
فى مصر فى جوار أحفادى ، سعيدة بهذا الجوار ، مشفقة من هذه السعادة ،
خائفة أترقب ما يحجب الغد فى طياته مما قد أنوء به .

وقد قصصت ذلك كله بعد زمن طويل من تدوين ما جرى فى
شبابى وبوادر كهولتى . ولست أدرى أيعنى أحد بأن يطلع عليه ، ولذلك
تركته مع ما سبقه إلى من يستطيع أن يقطع فيه بحكم فينشره أو يهمله .
وسواء على أنشرت هذه القصة أم لم تنشر ، فحسبى أن دونتها ولن أعود
إلى قراءتها من بعد ، فلى من هؤلاء الأحفاد ما يشغلنى عنها ، وعما كان
زوجى الأول يسميه غيرتى وغرورى .

والله أرجو أن يتوب على ويغفر لى ، إنه الغفور الرحيم ! . .

للمؤلف

نسخة الأولى ١٩٦٤	الإيمان والمعرفة
الطبعة الأولى ١٩٦٤	عثمان بن عفان
نسخة الأولى ١٩٦٣	الشرق الجديد
الطبعة الثانية ١٩٦١	الإمبراطورية الإسلامية
الطبعة الرابعة ١٩٧٤	هكذا خلقت
الطبعة الأولى ١٩٥١	مذكرات في السياسة المصرية الجزء الأول
الطبعة الأولى ١٩٥٣	الجزء الثاني
الطبعة الخامسة ١٩٧٢	الفاروق عمر (جزءان)
الطبعة السادسة ١٩٧١	الصدى أبو بكر
الطبعة الخامسة ١٩٧١	في منزل الوحي
الطبعة الثانية ١٩٧٤	حياة محمد
عشرة	
الطبعة الثالثة ١٩٦٦	ثورة الأدب
الطبعة الأولى ١٩٦٦	ولدى
الطبعة الأولى ١٩٥٤	تراجم مصرية وغربية
الطبعة الأولى ١٩٤٩	عشرة أيام في السودان
الطبعة الثانية ١٩٦٨	في أوقات الفراغ
الطبعة الثانية ١٩٦٥	جان جاك روسو الجزء الثاني
الطبعة السابعة ١٩٧٤	زينب
الطبعة الأولى ١٩١٢	دين مصر العام - بالفرنسية
الطبعة الثانية ١٩٧٤	قصص مصرية

١٩٨٩ / ٧٧٩٥	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٧٦٥-X	الترقيم الدولي

١ / ٨٩ / ١٧

طبع بقطاع دار المعارف (ج.م.ع.)

